ألف ليلة دوت كوم

ARABIAN NIGHTS.COM

Jacky Chugy

Translated by Amr Zakaria Khalil

فهرسة أثناء النشر

إعداد إدارة الشئون الفنية

قنوهل، داليا كوهين

معبر مندلباوم/داليا كوهين قنوهل. ترجمة: عمرو زكريا خليل، ط 1، القاهرة، المؤسسة المصرية للتسويق والتوزيع (إمدكو). 2016

ص 448 ؛ 17 * 24 سم

تدمك : 978 977 5098 504

1. القصة العبرية

أ. خليل، عمرو زكريا (مترجم)

ب. العنوان 892,43

رقم الإيداع / 19930 في 8 / 9 / 2016

الترقيم الدولى: 978 - 977 – 5098 – 50 - 4

الناشر/ المؤسسة المصرية للتسويق والتوزيع (إمدكو للطباعة والنشر) . 163 ش بورسعيد – السلسلة – خلف دار الهلال – السيدة زينب- القاهرة. محمول : 01004633770 - 01000751101 البريد الإلكترونى: emdco.press@yahoo.com - زورونا على : http://www.facebook.com/emdco

حقوق النسخة العربية محفوظة للمترجم

جاكي حوجي

ألف ليلة دوت كوم

العالم العربي اليوم

ثقافة, دين, سياسة

ترجمة

عمرو زكريا خليل

EMDCO Marketing&Distribution
المصرية للتسويق والتوزيع (إمدكو)

الفهرس

- تقديم.....7
- مقدمة للقاريء العربي.....13
- مقدمة المترجم.....15
- مدخل..... 19
- الفصل الأول: الإنترنت 23
- الفصل الثاني: الإعلام والديمقراطية 51
- الفصل الثالث: النساء.....87
- الفصل الرابع: إسرائيل واليهود.....117
- الفصل الخامس: الجهاد والإرهاب.....149
- الفصل السادس: الشيعة.....179
- الفصل السابع: الشرق والغرب.....201
- الفصل الثامن: شرق أوسط قديم.....223
- الفصل التاسع: الدين والشريعة.....255
- الفصل العاشر: الجنس والحياة الزوجية.....279

تقديم

لقد حدثت ثورة في مجال التكنولوجيا ووسائل الاتصال، وصلت إلى ذروتها في العقد الأخير من القرن العشرين وبداية الألفية الجديدة. وإذا كان تاثير هذه الثورة لم يكن ملحوظ لدى الأمم والشعوب المتقدمة حضاريا وتكنولوجيا؛ حيث إنها سارت في طريق تطور طبيعي فإن له تأثير كبير في بنية المجتمعات الشرقية وبخاصة في المجتمعات التي يعاني سكانها من مشاكل اقتصادية وثقافية وتعليمية بل وأحيانا مشاكل دينية، علاوة على المشاكل السياسية. ولقد أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة متننفسا لكثير من الحركات الاحتجاجية سواء على العادات والتقاليد أو على النظم التعليمية القائمة على الحفظ والتلقين أو انتشار الفساد الأخلاقي والمالي أو حتى من الاحتجاجات على النظم السياسية. لكن القضية الأساسية التي يلاحظها المتابع لقنوات الاتصال المعاصرة بجميع تنوعاتها أن نتائجها السلبية في المجتمعات الشرقية، أو العربية خاصة أكثر بكثير من نتائجها الإيجابية. ويعود ذلك في الواقع إلى غياب ثقافة الحوار البناء أو النقد الهادف تلك الثقافة التي تفتقدها الغالبية العظمى منذ نعومة الأظافر؛ فالطفل يقهر في أسرته ولا يسمح له مثلا في مخالفة أمر والديه في أبسط الأمور إن كانت لديه رغبة لا توافق هوى الوالدين أو أحدهما، والتلميذ يقهر في مدرسته حيث يفرض المدرس رأيه ولا يعطي، إلا نادرا، مساحة للحوار والمناقشة أو دعوة تلاميذه للبحث في معلومات خارج المقرر الدراسي، وكذلك الطالب في الجامعة والموظف في وظيفته. وبالتالي هذا النمط من التربية الذي لا يستوعب المختلف معه في الرأي يؤدي إلى حالات التشنج والتعصب في الرأي وليس هذا فحسب

بل إن أبسط قواعد الحوار، الإنصات، حتى ينتهي طرف من الحديث ليبدأ الطرف الآخر في الحديث، غير متوافرة. فالملاحظ للبرامج الحوارية، على سبيل المثال، يبدو له مدى العشوائية والتخبط بل الصراخ والألفاظ غير المقبولة أخلاقيا.

دعك من ذلك كله، ولاحظ التناقض الواضح بين الأقوال من جانب والأفعال والسلوك من جانب آخر، فهناك الكثير من الأمثلة على تفشي هذه الظاهرة. فتجد من يتحدث عن العدالة الاجتماعية ليل نهار، لكن تجده يمتلك القصور والسيارات الفارهة، أو هناك من يتحدث عن مجانية التعليم وضرورة أن تستمر الدولة في دعم ذلك التعليم وهو في الوقت ذاته ينادي بوجود برامج مميزة داخل الجامعات الحكومية أو تجده يعلم أبنائه في الجامعات الأجنبية داخل مصر أو الجامعات الخاصة المصرية، والعكس أيضا صحيح وهناك من يطالب بالحد الأدنى من الأجور وهو نفسه يتقاضى أجورا خيالية، بل يرفض تطبيق الحد الأدنى على العاملين معه؛ أما التناقض الأكثر سلبية فيظهر في مجالين: الأول، هو مجال الفتوى في مصر بصورة خاصة؛ حيث نجد نوعا يمكن أن نسميه فوضى الفتوى، خاصة مع كثرة وتنوع وسائل الاتصالات. إننا لا ننكر اختلاف الفتوى بحسب المكان والزمان، لكن ما ننكره أمرين: أولهما، تصدي غير المتخصصين بالفتوى للفتوى في أمور الدين؛ وثانيهما، تسفيه نفر قليل من علماء الدين لغيرهم من علماء الدين للاختلاف في بعض الفروع وليس الأصول. والمجال الثاني، هو ادعاء التدين والتمسك بالدين من جانب، وفعل كل ما يناقض التدين والتمسك به، من جانب آخر. ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة من خلال رصد من يذهبون للصلاة وقت العمل وتعاملهم مع الجمهور قبل وبعد الصلاة، أو من خلال انتشار ظاهرة الحجاب الشكلي وسلوك بعض المحجبات في الجامعات والحفلات، أو لاحظ مثلا حفلات الأفراح غالبا ما تبدأ بأسماء الله الحسنى يتبعها سلوك يتنافى تماما عن السلوك الدين القويم.

وفي هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي يرصد الصحفي جاجي حوجي واقع المجتمعات العربية من خلال تتبعه للمواقع الإلكترونية والصحف اليومية والبرامج التلفزيونية. فقد أشار إلى أن التكنولوجيا ساهمت في إثارة قضايا في مجالات مختلفة لم يتم التطرق إليها في الماضي مما أدى إلى الرقابة على وسائل الاتصال الاجتماعي بل ورصد ما حدث لبعض المدونين من

تنكيل من قبل السلطات وصدور أحكام سريعة، موضحا أنه تم الإفراج عن بعض أصحاب الرأي نتيجة ضغوط مدونين أوروبيين الذين أوصلوا صوت أولئك المدونين المتمردين إلى دوائر صنع القرار في أوروبا، ولم يرصد المؤلف حالة تضامن واحدة مع مدون طلب بالسلوك القيمي والأخلاقي السليم.

يركز المؤلف على إظهار التناقضات القائمة في المجتمعات العربية مستشهدا بالآراء الشاذة ثقافية كانت أو حضارية أو حتى في مجال ما أطلقنا عليه فوضى الفتوى الدينية. وقد ركز بصورة خاصة على تعدد الفتاوى الإسلامية في مجالات معاصرة لم يتم التطرق إليها من قبل مثل قيادة المرأة السيارة في المملكة العربية السعودية، وكذلك رأي البابا شنودة في استخدام التكنولوجيا المعاصرة في قضية الاعتراف التي يقوم بها المسيحي أمام أحد القساوسة. وأظهر الفرق بين القساوسة ورجال الدين المسلمين مشيرا أن الأول منع استخدام التكنولوجيا في مجال الاعتراف بدعوى أن وسائل الاتصال قد تكون مراقبة ووصف البابا شنودة بأنه الأب الروحي والسياسي لجموع الأقباط؛ أما المسلمون فقد أباحوا الفتوى والتعارف من أجل الزواج عبر وسائل التكنولوجيا الحديثة. والسؤال الذي نطرحه على ما يعرف باسم النخبة أو المثقفين: لماذا لم تؤ ردود فعل تجاه موقف البابا من استخدام التكنولوجيا، مقابل ردود فعلهم عند صدور فتوى من أحد الشيوخ لا توافق هوى أولئك النخبة المدعية؟! يعود مثل هذا التناقض إلى أسباب كثيرة متنوعة أهمها عدم وجود نموذج أو قدوة وإن وجدت فيتم تهميشها أو تسفيهها وربما اتهامها باتهامات باطلة. كما أن المؤسسة الثقافية قد رسخت صورة ذهنية سلبية لنماذج بعينها مثل مدرس اللغة العربية للتقليل من هيبته وقيمة اللغة القومية وكذلك صورة الشيخ الأزهري للحط من قيمة رجال الدين؛ ولإفساد التعليم لدينا مسرحية "مدرسة المشاغين" نموذجا، ولإفساد القيم لدينا مسرحية "العيال كبرت" نموذجا. لذا يجب على المؤسسة الثقافية أن تغير من أسلوبها في التعامل مع القضايا المجتمعية بمعنى الإكثار من النماذج الإيجابية في شتى مجالات الحياة، فالمجتمع دائما ابن بيئته وهناك الكثير من النماذج الإيجابية في المجتمعات العربية وليس أدل على ذلك سوى رصد المبعوثين أو المهاجرين العرب وتفوقهم في أماكنهم الجديدة.

ويرى المؤلف أن التكنولوجيا الحديثة قد تم استخدامها استخدامًا إيجابيا سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الحكومي فيذكر على المستوى الفردي حالة أحد المدونين السعوديين الذي بدأ عمله هاويا في مجال نشر الوفيات في منطقته ووضعه شروطًا لنشر الإعلان أهمها تحري الدقة، وثانيها عدم نشر وفيات الأطفال، وتحولت الهواية إلى تجارة حيث بدأ نشر إعلانات الوفاة مدفوعة الأجر. أما على المستوى الرسمي فيشير إلى استخدام حكومة رفاعي رئيس وزراء الأردن التكنولوجيا في قضاء حوائج الناس وذلك رغم وجود بعض القيود.

لا شك أن كل مجتمع من المجتمعات المعاصرة وخاصة في المنطقة؛ به الكثير من التناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بما فيها إسرائيل ففيها من التناقضات الكثير، فهناك التناقض بين العلمانيين والمتدينين، والسفاراد والأشكناز، والمغربي والأثيوبي، والحريدي والرباني والإصلاحي، كما توجد تناقضات بين الحاخامات أنفسهم من وسائل التعامل مع التكنولوجيا الحديثة، والتجنيد والسلام مع الفلسطينيين والعرب. غير أن هذه التناقضات لم تنل حظًا من الدراسة من جانب المتخصصين العرب في مجالات الدراسات العبرية الحديثة والمعاصرة. إن رصد مثل هذه الظواهر لتكون متاحة ليس فقط للعامة بل المتخصصين في علم الاجتماع والنفس لدراسة مثل هذه التناقضات دراسة علمية موضوعية تساعد متخذي القرار في التعامل مع الكثير من القضايا المستجدة مع المسؤولين في إسرائيل.

وفي مقابل هذا الإهمال من جانب المتخصصين والاكتفاء بالترجمات عن العبرية، وعدم صدور دراسات علمية موضوعية عن المجتمع الإسرائيلي باستثناء بعض المقالات الصغيرة التي يغلب عليها الطابع الصحفي وليس الأكاديمي ودراستين عن الشخصية الإسرائيلية: الأولى، قام بها الدكتور قدري حفني في سبعينيات القرن الماضي، والثانية تعود إلى بداية هذا القرن وقام بها الدكتور محمد خليفة حسن. نجد الكثير من الدراسات باللغة العبرية سواء عن المجتمعات العربية أو عن مجتمع إسرائيل؛ فالمجتمعات الصحية هي تلك التي تقوم بتشخيص هذه التناقضات ووضع الحلول لها قبل تفاقمها ووصولها إلى ظاهرة تمس سيادة المجتمع وأمنه.

وتعود أهمية هذا الكتاب ليس فقط أنه يرصد واقع المجتمعات العربية وموقفها من التكنولوجيا الحديثة، بل حرص المؤلف على إبراز أمرين في غاية الأهمية: الأولى، تقديم معلومات

للمؤسسات الإسرائيلية عما يحدث من تناقضات داخل المجتمعات العربية وبالتالي يسهل على تلك المؤسسات اختراق المجتمعات العربية ومعرفة كيف تفكر هذه المجتمعات وكيف يمكن اختراقها فكريا، فالنصر دائما لمن يملك معلومات علمية وكيفية توظيفها. أما الثانية، فتظهر واضحة في حرص المؤلف على أن قضية الصراع مع إسرائيل في طريقها للزوال بسبب التشرذم القائم بين الدول العربية وانشغال كثير منها بالبحث عن سد احتياجات المجتمعات المعيشية في ظل ظروف صعبة.

وأخيرا وليس آخرا أشكر الأستاذ عمرو زكريا على تحمله مشاق الترجمة وجعل الكتاب متاحا للقارئ العربي في لغة سهلة وسلسلة، فله جزيل الشكر على ما قام به. وأتمنى من زملائي في التخصص الاهتمام بدراسات المجتمع في إسرائيل دراسة علمية موضوعية. ليس فقط من خلال الأعمال الأدبية، فالأدب رغم أنه مرآة المجتمع لكنه في الوقت ذاته تسيطر عليه بعض الفنتازيا؛ لكن من خلال التعاون مع تخصصات علم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا، وأن يستفيد من هذا الكتاب علماء الاجتماع وعلماء علم النفس وكذلك رجال الدين من دراسة الآثار السلبية لوسائل التواصل الحديثة وتوجيه المجتمع نحو الاستخدام الإيجابي والبناء من هذه الوسائل الحديثة. ولا يمكن أن ننهي هذا التقديم دون توجيه الشكر للدكتور محمود عبد الله، مدير نشر دار "إمدكو للطباعة والنشر" على تفضله بطبع الكتاب ونشره، والله ولي التوفيق.

أحمد محمود هويدي
أستاذ الدراسات اليهودية
جامعة القاهرة. كلية الآداب

مقدمة للقارىء العربي

في 30 يناير من عام 2011 انتهيت من العمل في هذا الكتاب في نسخته العبرية، ثم أرسلته للطباعة. وكانت هذه الفترة عصيبة بالنسبة لمصر، وكان علي أن أتابع عن قرب موضوعين مهمين في آن واحد: الموضوع الأول القاهرة والاضطرابات التي شهدتها؛ والثاني المطبعة حيث مولد هذا الكتاب الذي عملت عليه طوال أربع سنوات كاملة بكل مثابرة وجد.

ومرت ثمانية أيام وأعلن رئيس المخابرات العامة المصرية الراحل اللواء عمر سليمان، تنحي الرئيس حسني مبارك وتكليفه المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية بإدارة شئون البلاد. وبعد أربعة شهور من ذلك التاريخ قمت بزيارة القاهرة فوجدتها مختلفة عن القاهرة التي أعرفها؛ حيث عمت البهجة والسرور، والتفاؤل الشارع المصري أكثر من أي وقت مضى. وسعدت مع ملايين المصريين بالفرصة التي سنحت لهم باستعادة حياتهم من جديد، لكن ساورتني بعض الشكوك: فهل من الممكن أن يحدث مثل هذا التغيير الكبير خلال هذه الفترة القصيرة؟

تدفقت مياه كثيرة في النيل وتوالت الأحداث بعد شهور عام 2011 العاصفة؛ ففي الوقت الذي اهتزت فيه مصر وتونس وبدأتا في التعامل مع موجات العنف المتزايد، بدأت تظهر في سوريا بوادر النكبة التي حلت بشعبها. وفي ليبيا حاربت القوات الأجنبية بغشاوة كبيرة من أجل إسقاط حاكم عربي آخر -بعد ثماني سنوات من العمل بصورة مشابهة ضد صدام حسين ونظامه. أما اليمن فقد تزايدت فيها الضغوط التي سرعان ما أدت إلى تنحي الرئيس علي عبد الله صالح، وبقاء أبناء الشعب اليمني متوجسين من مستقبلهم الضبابي.

إن الثورات التي أدت إلى ظهور ما يسمى بـ"الربيع العربي" لم تكتمل بعد، فبعضها مازالت تمر بمخاض الولادة، وأخرى لم تولد بعد. كما أن التغييرات الدراماتيكية التي شهدتها المجتمعات العربية في السنوات الأخيرة قد حدثت على مستوى الأنظمة الحاكمة، وإن كان لبعضها التأثير المباشر على مصير أبناء شعوبها، وعلى الرغم من أن الثورات العربية الكبرى ما زالت بعيدة عن نهايتها إلا أنها قد انطلقت، وهي تذكرنا بالثورة الفرنسية في الشكل والطابع، حيث كان أساسها التغيير في الوعي: بفضلها حصلت الشعوب على الفرصة المناسبة من أجل فهم أفضل لوعيهم الاجتماعي، وتقدموا خطوة أخرى نحو الموقع الذي تستحقه على الساحة.

فالمواطن لن يصبح بعد ذلك خادما لسيده بل العكس فالأسياد هم الذين سيقومون على خدمته.

مرت خمس سنوات فقط، وعرف كثير من المواطين -بشكل متعمق أكثر- وضعهم وما يستحقون الحصول عليه. ويعتبر ذلك إنجازا كبيروعادلا في حد ذاته، ونأمل أن يقطف المواطن العربي ثمار ذلك بنفسه، وليس أبنائه وأحفاده فقط. فهكذا كانت الثورات الكبرى: يولد الوعي في البداية، ثم يأتي الحكماء بعدها ويصيغونه في كلمات واضحة، ثم يأتي الفعل. ومن الممكن أن تستمر الثورة لعشرات السنين، لكنها تكتمل في النهاية.

لو صدر كتاب "الف ليلة دوت كوم" اليوم لأول مرة لكان من الممكن أن يكتب بصورة مختلفة، لكن على الرغم من ذلك فالمجالات التي تناولها حول: مكانة المرأة، والعلاقات بين الحاكم والمحكوم، والديمقراطية، والدين، والإرهاب، والانترنت؛ بقيت كما هي، وهي التي تقود الحوار العلني في المجتمعات العربية.

وأود أن أتوجه بالشكر للسيد عمرو زكريا خليل على قيامه بعملية الترجمة من اللغة العبرية وعلى اختياره كتاب "ألف ليلة دوت كوم" ككتاب يستحق أن يطلع عليه القاريء العربي.

نحن الإسرائيليون يمكن أن نتعلم الكثير من العرب، وهذا ما حدث بالفعل عندما قمت بدراسة المجتمعات العربية أثناء عملي على هذا الكتاب، كما إنني تعلمت اليوم درسا جديدا بفضل الترجمة التي بين أيدينا، التي تعتبر في حد ذاتها عملا أدبيا وثقافيا.

جاكي حوجي

يناير 2016

مقدمة المترجم

كيف يرانا الإسرائيليون؟ سلسلة من الكتب المترجمة عن اللغة العبرية قام الصحفي الكبير الراحل الأستاذ حسين سراج, بالعمل على إصدارها مع الكاتب الراحل الأستاذ نبيل خالد (دار بن لقمان للنشر), كي تعرض الصورة التي يرى فيها الإسرائيليون العالم العربي. وصدر من هذه السلسلة عدة كتب منها مذكرات السفير الإسرائيلي موشه ساسون, وكان لي شرف إصدار ترجمتين لكتابين في هذه السلسلة وهما: "اليسار المصري والصراع العربي الإسرائيلي", للدكتور يوسي أميتاي؛ و"أسرار التطبيع بين مصر وإسرائيل", للسفير دافيد سلطان. ولقد رأيت بعد وفاة الصديق العزيز الأستاذ حسين سراج أن أكمل ما قد بدأه, فوجدت الكتاب الذي بين أيدينا "ألف ليلة دوت كوم" للكاتب الصحفي الإسرائيلي جاكي حوجي[1], المتخصص في الشؤون العربية في إذاعة الجيش الإسرائيلي. وكان ما دفعني إلى ترجمة هذا الكتاب هو الوقوف على ما يقدمه الصحفي الإسرائيلي للقارىء الإسرائيلي عن العالم العربي (الذي لا يعلم الكثير عن العالم العربي ويعتبرهم جميعا سواء), والقضايا التي تهمه عن العرب لتقديمها للمجتمع الإسرائيلي. الكتاب يغطي عشرة موضوعات رئيسية تغطي أي مجتمع بشكل عام, والمجتمع العربي بشكل خاص، ومنها: علاقة الإنترنت والتكنولجيا الحديثة بالمجتمعات العربية؛ الإعلام العربي والقضايا التي تثير اهتمامه؛ النساء ومكانتهن في العالم العربي, والمشكلات التي يعانين منها مثل الزواج المبكر والمساواة مع الرجل وغيرها من القضايا النسائية المعروفة؛ ثم يعرض المؤلف لقضية من

---

[1] صحفي إسرائيلي عراقي الأصل يعمل محللا للشؤون العربية في إذاعة الجيش الإسرائيلي، وصحيفة "معاريف"، كما يكتب بشكل دائم في موقع "المونيتور" الأمريكي الإخباري، وكذلك في صحيفة "جلوبوس" الإسرائيلية الاقتصادية. ويحاضر في مختلف المحافل، وكذلك في جامعة بن جوريون ببئر سبع. قام بإعداد عدة برامج وثائقية منها "العميل رقم 88" عن الجاسوس الإسرائيلي في سوريا " إيلي كوهين" ، وكذلك برنامج "المهمة المقدسة" عن ملابسات اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات.

أهم القضايا التي تهم كل عربي وهي إسرائيل واليهود, وكيف ينظر إليها العرب؛ ثم يتناول دور الشيعة في العالم العربي؛ ثم علاقة الشرق العربي بالغرب الأوربي؛ والشرق الأوسط القديم؛ ومكانة الدين والشريعة في العالم العربي؛ وأخيرا العلاقات الزوجية والمشكلات الجنسية في العالم العربي.

بدأ المؤلف, في كل موضوع من هذه الموضوعات, بعرض عام لا يتجاوز بضع الصفحات لهذه القضية, ثم يكتب بعض المقالات القصيرة في هذا الموضوع, تتناول بعض القصص والحكايات في العالم العربي حول هذا الموضوع من المحيط إلى الخليج, عندما تكون الظاهرة التي يتناولها ظاهرة عامة, مثل سن زواج البنات, وحقوق المرأة وغيرها.

حاول المؤلف تناول القضايا التي تبرز سلبيات تعامل العالم العربي معها, خاصة المرأة, لكني أعتقد أنه كان من الممكن عمل تنويع أكبر في الموضوعات والتركيز كذلك على الجوانب الإيجابية إلى جانب السلبية, وليس التركيز فقط على سلبيات المجتمعات العربية.

لاحظت من ترجمة الكتاب مدى الإلمام الذي يلم به المؤلف بقضايا الوطن العربي بشكل عام, ومدى المتابعة المستمرة لجميع القضايا والأخبار التي تحدث في العالم العربي بشكل يومي, ومتابعته المستمرة للإعلام العربي بمختلف أنواعه: مسموع ومقروء ومرأي, بشكل خاص, ما يدفعك إلى الشعور بأن الكاتب يمضي معظم وقته في متابعة أحوال العرب ومشاهدة برامجهم وقراءة صحفهم ومجلاتهم. ولقد ساعده في ذلك كونه عراقي الأصل وعلى دراية كاملة باللغة العربية, مما ساهم في فهمه الكامل لما يدور في العالم العربي.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب صدر في طبعته العبرية في يناير 2011 قبل اندلاع الثورات في الدول العربية التي شهدتها, لذلك فلم يتطرق الكاتب إليها جميعا باستثناء تونس وثورة الياسمين, لكن يمكن رؤية رصده لمقدمات هذه الثورات لما رصده من احتجاجات لحركات مثل حركة 6 أبريل في مصر, وأحداث المحلة وغيرها.

من هنا يأتي السؤال: هل نقوم نحن في العالم العربي بمتابعة المجتمع الإسرائيلي وما يدور فيه بنفس القدر؟ فعلى الرغم من تدريس اللغة العبرية في جميع الجامعات المصرية, تقريبا؛ إلا أن العاملين في هذا المجال يواجهون الكثير من الصعوبات, فعادة ما يتهم كل من يعمل في هذا

المجال بالتطبيع, حتى في مجال الترجمة. وعلى المستوى الرسمي مازالت هناك مقاطعة لترجمة الكتب الصادرة بالعبرية بحجة اعتبار الحصول على موافقة الناشر تطبيعا.

أنا أعتقد أن سبيل المعرفة لا يجب أن يعيقه أي شيء ويجب أن تزال كل القيود وتتلاشى جميع الحدود في مجال المعرفة, فعلينا أن نقوم نحن أيضا بدورنا بتقديم مثل هذا الكتاب عن إسرائيل نوضح فيه للقاريء العربي كل ما يدور في المجتمع الإسرائيلي؛ وما هي اهتماماته ومدى تأثيرها على صانع القرار الإسرائيلي.

ولقد واجهت أثناء ترجمتي للكتاب بعض المشكلات كان أبرزها عدم وجود توثيق للاقتباسات التي أخذها الكاتب من الصحف والمجلات العربية سواء المنشورة على صفحات الإنترنت, أو المطبوعات الورقية, فالكاتب لم يشر من بعيد أو قريب إلى تاريخ ومكان نشر المقال الذي اقتبس منه. وكان لزاما عليّ من منطلق أمانة الترجمة أن أقوم بالبحث بنفسي عن هذه الاقتباسات وقد حالفني الحظ في بعض الأحوال ولم يحالفني في البعض الآخر فاجتهدت في ترجمة هذه الاقتباسات, وقد تكون الترجمة ليست النص الحرفي لما هو مقتبس لكنها بالطبع نفس المضمون. كما قمت في بعض المواضع بوضع هوامش أشرت فيها إلى الموقع الذي تم الاقتباس منه للتسهيل على القاريء إذا رغب في قراءة المقال المقتبس.

كما قمت في بعض المواضع بتصحيح بعض المعلومات البسيطة مثل: "قتل عمر بن الخطاب في مكة المكرمة" إلى "المدينة المنورة" لأن هذه حقائق تاريخية.

في الختام أتمنى أن تسهم هذه الترجمة في تحقيق الغرض منها, وهو عرض الموضوعات التي تعرض على المواطن الإسرائيلي عن العالم العربي. وأتمنى أن يشجع هذا العمل الجانب العربي إلى إصدار مثل هذا الكتاب لكن عن المجتمع الإسرائيلي.

المترجم

مدخل

الغرض من هذا الكتاب هو إطلاع القاريء على الحياة اليومية في العالم العربي. فالساحة الفلسطينية تشغل مساحة كبيرة في الحوار الاسرائيلي العام, غير أن هناك توجه دائم في إظهار بعض الفضول تجاه الدول العربية, ونتيجة ذلك نجد أن القليلين على دراية بالأحداث التي تشهدها تلك الدول, خاصة في العصر الحالي, الذي يشهد فيه المجتمع العربي الكثير من التغييرات.

يكشف التمعن في داخل المجتمع العربي الحالي عالما هائجا لا يتكون من كتلة واحدة. فكم عدد المجالات المشتركة بين المواطن الكويتي المتوسط, وبين أخيه الجزائري؟ وكذلك بين الفلسطيني المولود في أمريكا وبين ابن عمه من مخيم اللاجئين في عمان؟ وهل هناك ما يربط بين سائق شاحنة من أربيل, وبين تاجر حلي من الأسكندرية؟ أو بين المسيحي من بغداد, والمسيحي من بيت لحم؟ الجميع لغتهم واحدة وهي العربية, معظمهم مسلمون, ولو بحثنا جيدا لوجدناهم مشغولين –بالطبع- بمشكلاتهم الشخصية, والبحث عن مصدر أفضل للرزق. ربما تشاركوا في بعض العادات المتشابهة, وبعض القيم الأخلاقية, والطموحات, لكن ليس في ذلك شيء عن عروبتهم.

مازالت الطريق طويلة تنتظر شعوب الدول العربية حتى تحصل على الحرية التي يتمتع بها أبناء جيلهم في الغرب. ورغم ذلك فإننا نشهد تبلور رأي عام مستقل لديه القدرة على التأثير في القرارات التي يتخذها زعماؤهم. إن زيادة قوة الشارع –في العقد الأول من حقبة الألفية الجديدة على وجه الخصوص- تجبر الحكومات على الإصغاء لمتطلباتهم بعد سنوات طويلة من فرض السيطرة عليهم والمساس بحقوقهم. فهناك عدد لا حصر له من القنوات التلفزيونية التي

تبث للمشاهد العربي كشف مواقع الإنترنت أمام متصفحيها عالما متنوعا, ومتآمرا في بعض الأحيان, حتى الرقابة تقف عاجزة أمامه.

أطاح الشعب لأول مرة بزعيم عربي وذلك في المظاهرات العنيفة التي اندلعت في تونس – ديسمبر 2010- وانتهت بفرار الرئيس زين العابدين بن علي. وتعاون في هذه الحالة عمل كل من الممثلين المخلصين لمثلث الحرية الجديد: الجماهير الغاضبة, التي رفض أبناؤها استغلال أزمتهم اليومية, حتى وإن عرضهم ذلك للخطر؛ ومتصفحو الإنترنت, الذين نشروا أخبار الاحتجاجات لبقية المدن في الدولة والعالم أجمع؛ والقنوات التلفزيونية التي تبث عبر الأقمار الصناعية, التي وفرت منبرا لمعارضي النظام كي يحكوا حكاية تونس, وشجعت المتظاهرين. كان ذلك صدى لما علمانيا, شعبيا, كان فيه للنخبة القديمة –الضباط, ورجال الدين, والمؤسسة السياسية- دور ثانوي في تلك المرحلة.

ليس ذلك في تونس فقط بل أيضا عند شقيقاتها العربية, فالتقاليد –دينية, وثقافية واجتماعية- تتعرض لتحديات ومعها أيضا النظام السياسي القديم. فلم تعد دمشق أو القاهرة نموذجا زعاميا, "ملهما" بالنسبة لشقيقاتها في الجامعة العربية. فالدول القوية في المنطقة ليست عربية –إيران, تركيا وإسرائيل. وأصبح لإمارات الخليج التي أطلق عليها في الماضي الرئيس أنور السادات "دول مصنوعة من الجيلي" مثل الإمارات العربية المتحدة, وقطر؛ دور ريادي في مجالات التكنولوجيا, والإعلام والاستثمارات الأجنبية.

إن عصر الشعارات القومية من حقبة الخمسينيات والستينيات قد تبدل بتعبيرات متنوعة من الانطواء الذاتي. فالحكومات تهتم أولا باحتياجاتها ثم تتفرغ بعد ذلك للتضامن العربي. وجميع هذه الحكومات تواجه معا الأصولية الإسلامية التي تقدم بشكل صارم بديلا ماديا لآفات المجتمع. ويمقت العرب الإرهاب أكثر من الآخرين, لأنهم أول المتضررين منه. كما أن الاستبداد ليس كما كان من قبل: فالشعوب التي قمعت لعشرات السنين ثارت على حكامها وتطالبهم بالرحيل. وأصبح رجال الدين ونجوم البرامج الترفيهية رمزا للثقافة, وأصبحت لديهم شعبية أكثر من زعمائهم. وفي الديوان – صالون الحديث التقليدي في المنزل- حل التلفزيون محل المدفأة (حيث يجتمع الجميع حولها للتدفأة). واستبدلت النرجيلة وقصص ألف ليلة وليلة بمشاهدة

الدراما الأصيلة والبرامج الواقعية (الرياليتي). ويبدو أن إسرائيل لم تصبح -من فترة- المشكلة الأولى لدى العرب. فقد حلى محلها النقاش حول مشكلات الساعة –وضع حقوق الفرد؛ مكانة المرأة؛ مكانة الدين في الحياة اليومية؛ والسياسة وتأثيرها على الأخلاق والقيم؛ والبدع القادمة من الغرب.

حاولنا في صفحات هذا الكتاب التمعن في الواقع الذي أمامنا. ففصوله العشرة تعرض القضايا التي تشغل الجماهير العربية بشكل خاص, وكذلك الرأي العام العربي من: ديمقراطية وإعلام, إلى إسرائيل والغرب, حتى الدين والعلاقات الزوجية. ومن دواعي السرور أن عملية جمع الحقائق لم تعد صعبة كما كانت في الماضي؛ فوفرة المعلومات في قضايا الثقافة, والشريعة, والاقتصاد, والتكنولوجيا, والسياسة, متوافرة لدى الشعب العربي, وتتجدد يوميا, وأحيانا كل ساعة.

أود أن أتوجه بالشكر للدكتور يوسي أميتاي من جامعة بن جوريون في النقب, ويوسي نيشر من إذاعة صوت إسرائيل باللغة العربية, اللذان قرءا هذه الصفحات قبل طباعتها وسجلا ملاحظاتهما عليها؛ ولداني دور, رئيس تحرير دار معاريف للنشر, وشكر خاص لتامي تشبنيق لإسهامها الكبير في صياغة النص.

جاكي حوجي, يناير 2011

الفصل الأول

الإنترنت

المعارضة الجديدة

أصحاب الأقلام يفرون إليه بحثا عن حرية التعبير, يستخدمه الشباب كساحة للتعارف, حولته العناصر الجهادية إلى قناة اتصال رئيسة, وتشرف عليه الأجهزة الأمنية بشكل مستمر. لقد غير الإنترنت حياة العرب.

امرأة تقود السيارة في شوارع العاصمة السعودية الرياض, وتتحدث إلى الكاميرا. في الظاهر, تبدو مجرد صورة, لكن مجرد إمساكها عجلة قيادة السيارة يعتبر خرقا للقانون. حدث ذلك في يوم المرأة العالمي عام 2008, والمرأة هي وجيهة الحويدر,التي أرادات الاحتجاج ، وذلك بقولها "أنا أقود الآن سيارة في الوقت الذي يحظر فيه على النساء السعوديات القيادة". وناشدت وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز بأن يقوم بإلغاء هذا الحظر ويسمح لنساء المملكة بالحصول على رخصة قيادة.

علمت الحويدر أن أي من القنوات التلفزيونية لن توافق على التعاون معها في هذا الاستفزاز, لذلك استعانت بخدمة موقع مشاركة الملفات: اليوتيوب. وقد أسمعت بذلك صوتها من خلال أكبر مكتبة لملفات الفيديو في العالم. وهكذا بسبب استخدامها الإنترنت قللت الناشطة النسائية السعودية من خطر تنكيل السلطات السعودية بها. فقد عرفت الحويدر من قبل قسوة السلطات؛ حيث صدر أمر خاص من وزير الإعلام السعودي بحظر نشر مقالاتها في صحف المملكة, حيث تدعو إلى مجابهة قوانين التمييز ضد النساء. رغم ذلك لم تستسلم, ونشرت مقالاتها على مواقع الإنترنت خارج المملكة.

ليس فقط النشطاء الحقوقيون هم الذين يستخدمون الشبكة العنكبوتية الدولية, لكن أيضا الساسة, والمدونين, والشباب المثقف حيث يستخدمون الإنترنت كمنبر رئيس للنقاش والحوار حول قضايا الساعة. والأسئلة كثيرة ومتنوعة. هل الإسلام هو الحل؟ هل من حق المرأة تولي حكم الدولة؟ وهل من حق المسيحي ذلك؟ هل من الصحيح ترك البلاد بحثا عن العمل؟ وما هو, بحق الجحيم, العمر المثالي للزواج؟

كذلك ينشر رجال الدين فتواهم, التي،دونت في الماضي في الكتب, على شبكة الإنترنت؛ كما يستعين الجهاديون بها من أجل خلق قناة للتواصل بين عناصرهم, ونشر البيانات التي يتحملون فيها مسئولية أفعالهم –وبالطبع بث مقاطع الفيديو التي توثق أفعالهم. بعد 13 عاما من قيام حركة حماس بإرسال شريط فيديو مصور لوكالة الأنباء "رويترز", الذي ظهر فيه الجندي الأسير نحشون فاكسمان يتوسل من أجل الإبقاء على حياته, قام بذلك أبناء الجيل الثاني لعناصر الحركة, لكن هذه المرة عبر شبكة الإنترنت. فقد سمحوا للجندي جلعاد شاليط بإرسال أول

رسالة لأعزائه تدل على بقائه على قيد الحياة منذ وقوعه في الأسر وذلك عبر التسجيل الذي رفعوه على موقع الجناح العسكري. واستطاع كل متصفح في جميع أنحاء العالم مشاهدة ذلك بحرية.

ليس فقط الجماعات المسلحة, لكن أيضا الصالحين, والنشطاء الحقوقيين, والمتظاهرين والصحفيين؛ فجميعهم يستخدم الإنترنت بشكل مستمر. ففي المغرب هبّ المتصفحون من أجل جمع تبرعات لصالح العائلات الفقيرة في عيد الأضحى. وفي مصر اتحدوا عبر شبكة التواصل الاجتماعي الفيسبوك, من أجل شراء خراف العيد للمحتاجين. وعندما انهارت صخرة كبيرة في القاهرة ودفنت تحتها مئات المواطنين الذين سكنوا أسفلهاشارع المدو ِنون بتزويد الجمهور بالمعلومات البديلة حول ما يحدث في منطقة الكارثة, والتي كانت تختلف عن التصريحات المبهمة التي أعلنتها الصحف الخاضعة للرقابة.

بدأت التظاهرات العنيفة ضد نظام حسني مبارك, التي اندلعت في يناير 2011, بدعوات مستخدمي الفيسبوك من الشباب للجماهير العريضة بالخروج في تظاهرات غاضبة في اليوم الذي تحتفل فيه الشرطة بعيدها السنوي, وذلك للاحتجاج على زيادة البطالة, والسخرية -على مر السنين- من ضائقة المواطن البسيط. ومنذ أن تطورت الأمور إلى سفك للدماء استخدمت شبكات التواصل الاجتماعي بين المتصفحين من أجل التنسيق بينهم في ساحات المعارضة, وتحفيز الآخرين على المشاركة فيها, وتقديم التقارير عن القتلى والجرحى في الأماكن التي لم يصل إليها الصحفيون. وعندما حجبت السلطات خدمات الإنترنت انتقل المتظاهرون إلى استخدام الرسائل القصيرة.

ولا عجب في أن تطلب السلطات السعودية والإماراتية, بتشاور مشترك فيما بينهما, حجب بعض خدمات أجهزة التليفون المحمول "بلاك بيري"؛ فبرامج "الماسنجر", والبريد الإلكتروني لهذا الجهاز المتطور, تستخدم شبكة المزود الكندي للخدمة RIM وهي مشفرة. ومنذ أن بدأت شبكة الإنترنت في استخدام وسائل اتصال عالمية حرة, تزودت أجهزة المخابرات, ليس فقط في الدول العربية, بأجهزة متطورة من أجل اختراق الحواسيب الشخصية عن بعد، وتتبع حركة البريد الإلكتروني ومحتواها. لقد احتل جهاز البلاك بيري المتطور أسواق الخليج بمئات الآلاف من

المستخدمين في كل دولة, لكنه شكل, بالنسبة لأجهزة الأمن, تحديا أمنيا من الدرجة الأولى. جعل استخدام المزود الكندي بالخدمة بدلا من المزودين المحليين, المعلومات المتدفقة عبر هذا الجهاز لا يمكن الولوج إليها من عناصر المخابرات في الامارات العربية المتحدة, وكذلك المملكة العربية السعودية على وجه الخصوص, التي تعاملت مع الإرهاب الأصولي.

لقد فتح الإنترنت ــ مثل القنوات الفضائية ــ السماء أمام الملايين من العرب بين عشية وضحاها. فعلى مدى عشرات السنين علم القليل فقط بما يدور في الدولة المجاورة, بل وفي بلدهم. لقد صعبت الرقابة الحكومية الشديدة من نقل المعلومات بين المواطنين ومنعت إنشاء قنوات إعلامية, من الممكن التعبير فيها عن الرأي. وقد منح الإنترنت الشعب العربي الكثير مما سلب منه على مدى عشرات السنين: حرية التعبير, منصة لتوجيه النقد (أحيانا اللاذع, والمخجل)؛ وحرية التجمع؛ ومنبرا للنقاش حول قضايا اجتماعية كان لا يتطرق إليها في الماضي.

لكن على الرغم من التغير الكبير الذي طرأ على الشبكة العنكبوتية, فإن خمسين بالمائة فقط في المتوسط من إجمالي السكان العرب يستخدمونها في احتياجاتهم. ففي عام 2008 كانت أكبر دول الشرق الأوسط في استخدام الشبكة العنكبوتية غير عربية, وهي: تركيا, وإيران وإسرائيل. ومن بين الدول العربية كانت الإمارات العربية المتحدة, التي يستخدم حوالي نصف سكانها الإنترنت, وبعدها قطر (37%). وفي المقابل سجلت أقل نسبة في اليمن (1,4%) وفي العراق (0,2%), التي عانت من ضرر حقيقي في بنيتها التحتية التكنولوجية بسبب الحرب الأهلية. وفي سوريا ومصر تراوحت النسبة بين 10-11%, وهي نسبة قليلة نسبيا, غير أن الكثيرين من المستخدمين هم من أبناء النخبة المثقفة وطبقة متخذي القرارات – الطلاب, الساسة, الضباط, الصحفيون, المفكرون.

لقد اعترفت المدونة المصرية منى الطحاوي, قائلة : "أنا متفائلة حمقاء" وذلك في حديث لها أمام طلاب ومحاضري جامعة تل أبيب, وأضافت : "لذلك أنا واثقة أن كل الأحداث التي تحدث في العالم الافتراضي, ستخرج يوما ما إلى العالم الحقيقي".

فتاة الفيسبوك

كانت الفرصة ممتازة أمام إسراء عبد الفتاح كي تقتحم الوعي القومي كزعيمة للعمال, لكنها اشتاقت إلى أمها.،ولدت إسراء في القاهرة ونشأت فيها, وسوف تذكر إلى الأبد "كفتاة الفيسبوك" الأولى في مصر.

بدأت قصتها مع إضراب عمال مصنع الغزل في المحلة, والذي حدد له يوم 6 أبريل 2008 بعد نية المساس بأجورهم. أنشأ الشباب الذين سمعوا عن الاحتجاجات المرتقبة مجموعة على الفيسبوك دعوا فيها إلى تحويل ذلك اليوم إلى احتجاج على الوضع العام للاقتصاد المصري. وبهذه الروح أرسلوا بيانا على البريد الإلكتروني لجمهور المتصفحين من أجل التوحد ضد ظلم الحكومة وذلك عبر القيام بعصيان مدني."كفوا عن المكوث في البيت وشاركونا في الساحة العامة,"

،كتب في البيان الذي أرسلوه, "يوم 6 إبريل :" خليك قاعد في البيت. أوعي تنزل. ماتروحش الشغل. ماتروحش الجامعه. ماتروحش المدرسة. ماتفتحش المحل ماتفتحش الصيدليه. ماتروحش القسم. ماتروحش المعسكر. عايزين مرتبات تعيشنا. عايزين نشتغل. عايزين تعليم لأولادنا. عايزين مواصلات أدمية. عايزين مستشفيات تعالجنا. عايزين دواء لأطفالنا. عايزين قضاء منصف. عايزين أمن وأمان. عايزين حرية وكرامه. عايزين شقق للعرسان. مش عايزين رفع أسعار. مش عايزين محسوبيه. مش عايزين ظباط بلطجية. مش عايزين تعذيب في الإقسام. مش عايزين أتاوات. مش عايزين فساد. مش عايزين رشاوي. مش عايزين إعتقالات. مش عايزين تلفيق قضايا. قول لأصاحبك مايروحوش الشغل همه كمان وخليهم يدخلوا الإضراب"[2]

تلقى عشرات الآلاف من مستخدمي الإنترنت الدعوة. ولقد لاقت المبادرة رواجا سريعا وسرعان ما تخطت دائرة مستخدمي الإنترنت. ولقد رأت الأحزاب وحركات المعارضة التي كانت منغمسة في الإعداد للانتخابات المحلية التي جرت قبل يومين من العصيان، فرصة لركوب الموجة.، شرت القصة في صحف القاهرة وتم تناولها كذلك بتوسع في القنوات التلفزيونية. وفي يوم العصيان انتظر رجال الشرطة في مصنع غزل المحلة ليس فقط العاملين بل آلاف

[2] http://montada.arahman.net/t11543-3.html

المواطنين، والنشطاء الحقوقيين، وكذلك أعضاء مجموعة الفيسبوك. وتحولت المسيرة التي كان من المفترض أن تكون مسيرة احتجاجية للعمال ضد إدارتهم، إلى مظاهرة عنيفة قتل خلالها ثلاثة مواطنين، وأصيب العشرات. وألقي القبض على 49 شخصا غالبيتهم من مستخدمي الإنترنت الذين جاءوا للتعبير عن تضامنهم مع المحتجين. وفي اليوم التالي ذكرت التقارير الصحفية أن الشرطة منعت وسائل الإعلام من توثيق الأحداث، وأنه كانت هناك مشاهد قاسية في المكان.

أدركت الأجهزة الأمنية أنه بدون متصفحي الإنترنت لم يكن التوتر قبل التظاهرات ليصل لهذا المستوى. وكشفت التحقيقات العاجلة أسماء من يقفون وراء نواة تأسيس هذه الجماعة. واتضح أن أحد الأسماء البارزة كانت إسراء عبد الفتاح، فتاة غير متزوجة تبلغ من العمر 28 عاما، تعمل في قسم شؤون العاملين في شركة خاصة بالقاهرة. وكانت مسجلة كعضو في حزب الغد الليبرالي المعارض، غير أنها ابتعدت فعليا عن أي نشاط بين صفوفه قبل شهور من الإضراب.

وفي صباح 6 أبريل جلست إسراء في أحد مقاهي القاهرة، بجوار محل عملها، وأضربت عن العمل كبقية أصدقائها. أحاط رجال أمن بلباس مدني المقهى واقتادوها من هناك. اتهمتها الشرطة بتنظيم تجمع من خمسة أفراد وأكثر يهدف إلى تكدير الأمن العام، والإضرار بمبان عامة، وحيازة سلاح والاعتداء على رجال الشرطة. ولأول مرة تمتدح, حيث تعاطفت الصحافة معها بطريقة مبالغ فيها، واعتقدت أن ما وراء هذه الرقة والحجاب زعيمة عمالية صلبة.

وكتبت الكاتبة ديانا مقلد في صحيفة الشرق الأوسط قائلة "نجحت دعوتها في استقطاب 70 ألف متصفح للفيسبوك، أكثر من أي حزب سياسي". غير أنه على عكس زملائها الذين تم تقديمهم للمحاكمة، فقد أطلق سراح إسراء بعد أسبوعين من الاعتقال، بدون أي تهمة. لقد انتظرها في الخارج مجموعة من الصحفيين والمصورين الذين تاقوا إلى تصويرها كبطلة جماهيرية. لكن لخيبة أملهم، وجدوها فتاة خائفة، جل ما أرادته هو خلق عالم أفضل بكثير، ونسيت أن من يقف وراء كل ظلم اجتماعي موظف فاسد، مع صديق جيد في أجهزة الأمن.

ومرت بضعة شهور، وأدانت المحكمة 22 من المعتقلين وحكمت عليهم بعقوبة السجن مدد تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات. ولم تكن إسراء عبد الفتاح من بينهم.

أدرك المحققون معها أنهم يتعاملون مع مقاتلة صغيرة، فعرضوا عليها التخلي عن مكانة الزعامة التي وصلت إليها، ووعدوها في المقابل بألا يتم اتخاذ أي إجراءات ضدها. كان أمام إسراء نموذجا طيبا تفكر فيه، أيمن نور رئيس حزبها، الذي زج به في السجن قبل ذلك بعامين، بعد أن تجرأ على الترشح أمام الرئيس حسني مبارك، وذلك في أول انتخابات تعددية في تاريخ مصر. احتل نور المرتبة الثانية بعد مبارك بفارق كبير، لكنه لم يتوقف عن انتقاده، وانتقاد نواياه توريث الحكم لابنه جمال، وغياب طهارة النظام الحاكم.

ظهر فجأة، بعد شهور من الانتخابات، أن نور قد زور توكيلات المواطنين في حزبه أثناء تسجيلها في وزارة الداخلية. ولم تساعده حقيقة كونه شخصية عامة في شيء. وبناء على طلب النيابة، قضت المحكمة بالحكم عليه بالسجن خمس سنوات، قضى منها حوالي ثلاث سنوات ونصف السنة.

مع خروجها من السجن هوت إسراء عبد الفتاح في أحضان أمها باكية، ولم تتوقف الاثنتان عن التمتمة بكلمات الشكر لله وللسجانات الكريمات في سجن القناطر.

"لم يكن هناك أي تعذيب"، ثم عادت وأكدت "كان ذلك فندق خمسة نجوم، لمن أني أتراجع نهائيا".

انتهت القضية بانتصار مؤقت للحكومة، لكنها أصبحت نقطة فارقة في العلاقات بين ظلم الحاكم وبين الشعب في مصر، في كل ما يتعلق بحرية التجمع والتعبير عن الرأي. لقد كان واضحا للشعب أن "حركة 6 أبريل"، كما أطلق عليها، قد كشفت فجوة في النظام الرقابي للنظام الحاكم يصعب جدا إغلاقها في المستقبل.

في إضراب 6 أبريل، ولد في مصر منبر احتجاجي جديد، لاذع، ومعارض، لا يخضع للقواعد الأخلاقية، أو للوائح السياسية التي توجه الصحافة التقليدية. حدث ذلك في الوقت الذي فقدت فيه جهات المعارضة التقليدية في القاهرة وفي الدول العربية، وعلى رأسها الأحزاب

العلمانيـة، تأثيرهـا على الجمـاهير، بعـد سـنوات مـن الرقابـة الحكوميـة الصـارمة، والصـراعات الداخلية.

ولنفكر أن من يقف وراء هذه القصة مجموعة من الشباب ومن بينهم فتاة أرادت العودة إلى بيتها في سلام.

المدون الذي تمادى للغاية

لا يمكن سرد قصة إسراء عبد الفتاح بدون ذكر الإصدار الذكوري منها. الاسم: عبد الكريم نبيل سليمان، والاسم المستعار: "كريم عامر" طالب قانون من الإسكندرية، وأول مدون في تاريخ مصر يلقى به في السجن لآرائه.

في فبراير 2007 قررت إحدى محاكم القاهرة أن الزائر الذي يبلغ من العمر 23 عاما صاحب القلم اللاذع متهم بنشر معلومات تهدد الأمن العام وتحرض على ازدراء الإسلام. لقد حكم عليه القضاة بالسجن لأربع سنوات، وهي عقوبة ثقيلة، خاصة لشخص أراد التعبير عن أفكاره حول مكانة جامعة الأزهر في الحياة السياسية في مصر والعالم العربي.

يمكن اعتبار هذه القضية, من زاوية ما, بادرة إيجابية؛ فقد كانت هناك عصور مظلمة في مصر وخارجها فكان مجرد كتابة مقال أو اثنين في صحيفة يلقى فيه الكاتب مصيرا أقسى من ذلك. فقبل أربع سنوات فقط من سجن كريم عامر، اختفى الصحفي الليبرالي رضا هلال، صاحب عامود في جريدة الأهرام، من منزله. ولم يترك أي أثر ورائه، ولم يتم العثور عليه، مما أثار شكوك أصدقائه بأنه اختطف وقتل على أيدي أجهزة الأمن. ولم يحدث هذا الاختفاء الغامض مصادفة حيث كان ذلك بعد أسابيع من نشره لمقال هاجم فيه الأسلوب الديكتاتوري لرئيس العراق آنذاك صدام حسين؛ حيث زعم أن أنظمة الحكم العربية تذكره بالفاشية النازية.

ويبدو أن عبد الكريم عامر قد تجاوز على ما يبدو هو أيضا؛ ففي الوقت الذي درس فيه في فرع جامعة الأزهر في دمنهور، مقت إدارة هذه المؤسسة وعرض مواقفه كتابة في مدونته الخاصة على شبكة الإنترنت. وكان قد تأثر من أجل أقباط الأسكندرية، بعد تعرض بعض أفرادهم للطعن على يد البعض في أبريل 2006 في سلسلة هجمات استهدفت كنائس المدينة. واتهم

مشايخ الأزهر بالتحريض على مهاجمة جيرانهم المسيحيين، مثلما اعتادوا على مدار عشرات السنين. وكما ذكر فإن أحد الشباب الذين قاموا بالعملية الانتحارية في سيناء كان خريج كلية الشريعة من نفس الجامعة. ولقد جعلته هذه الحقيقة يقول بأن جامعة الأزهر هي "من أبرز حاضنات الإرهاب في مصر، بسبب مناهجها التعليمية، التي تقوم بغسل عقول الطلاب وتحولهم إلى مسوخ"

تقدمت إدارة الجامعة ببلاغ للشرطة، ونتيجة ذلك هاجمت قوات الأمن منزله، واعتقلته لمدة 18 يوما. غير أنه استمر في نشر مقالاته على الشبكة. وكتب عن ما يدور بين أسوار المؤسسة التي درس فيها ولم يبخل بأي نقد لعناصر نظام الحكم بمختلف أطيافه.

هكذا، بلغة واثقة، رد على أجهزة الأمن على عملية اعتقاله:

"لكل مبتهج ولكل كاره, يعتقد أن هذه الإجراءات البدائية سوف تغير موقفي وستؤثر علي من أجل تغيير الطريق الذي قررت الاستمرار فيه, أقول: موتوا بغيظكم واختبئوا في جحوركم لأنني لن أتراجع أبدا, ولو لطرفة عين, عن أي كلمة كتبتها, وأن القضبان لن تفصل بيني وبين حلمي في الحصول على حريتي, لأن هذا هو مطلبي منذ الطفولة, وأنني سأستمر في أفكاري إلى آخر الأيام."

وعن إدارة الجامعة التي أدت إلى اعتقاله كتب:

"لمؤسسة الأزهر, جامعتي, ومحاضريها المحترمين, الذين وقفوا ومايزالون يقفون ضد من يفكر في سبل الحرية وبعيدا عن كذبكم وافتراءاتكم, أقول: نهايتكم في مزبلة التاريخ, ووقتها لن تجدوا من يبكي عليكم."

على مدار عام كامل سمحت الأجهزة الأمنية للمدون أن يتراجع عن هذا الطريق، لكن بدون فائدة. ولم تساعد الإشارات بأن ذلك سوف يعرضه للمحاكمة. وفي نهاية 2006 اعتقل، وبعد عدة شهور تم الحكم عليه في المحكمة. قال قبل أن يبدأ في تنفيذ العقوبة "لا أعتقد أني مفكر ... أنا مجرد باحث عن الحقيقة".

نظم أنصار كريم عامر في جميع أنحاء المعمورة اعتصامات في الشبكة من أجله، وأقاموا المظاهرات الاحتجاجية أمام السفارات المصرية في العالم وطالبوا بإطلاق سراحه. غير أن هذا

النضال كان بدون جدوى منذ البداية. ودفع عامر ثمن رفضه لعب اللعبة وفقا للقواعد التي حددها السيد. فكل كاتب وصاحب عامود في الصحف العربية يعرف جيدا أين يجتاز الحدود التي رسمتها السلطات. وجميعهم يعلمون أن الانتقاد مسموح به، شريطة أن يكون الأسلوب منطقيا، وغير حماسي، ولا يسخر بشكل مباشر من النخبة. كما يعلمون أيضا أنه من الأفضل أن يتم الإصلاح الليبرالي بشكل بطيء وتدريجي كي ينجح، وكذلك أيضا اللغة التي يتم استخدامها من أجل دفعها. فأمامهم عملية إصلاح فاشلة، وهم يشاهدونها بغضب ودهشة. كان ذلك الغزو الأمريكي للعراق، الذي أطاح بنظام حكم البعث لصدام حسين، وتباهت بتحويل بلاده إلى الديمقراطية بين عشية وضحاها.

غير أن كريم عامر تصرف بشكل مختلف، فقد عمل بقوة، وبسرعة وبطريقة غير حكيمة. شبه نفسه بدونكيشوت، لكنه نسي أن الذي كان مسموحا للبطل الأسباني أن يقوله بصوت مرتفع، مسموح لنظيره المصري قوله في الغرف المغلقة.

حكى كريم في مدونته للقراء أن حلمه أن يفتح مكتبا للمحاماة ليقدم الاستشارات للسيدات في قضايا العنف والتمييز. وأن حلمه، سيضطر المناضل السكندري، إلى تأجيله بضع سنوات، ليس فقط بسبب دخوله السجن. فبعد أن عرض أقواله اللاذعة على الملأ، صار من الصعب التصديق أن تكون هناك مؤسسة أكاديمية ستسمح له باستكمال دراسته بين أسوارها.

صوت غامض على الجانب الآخر

فوجيء المحررون والقائمون على المواقع الإلكترونية في سوريا ذات المضامين السياسية، بتلقي مكالمة هاتفية من النوع الذي من المستحيل رفضهلم يعر ِف المتصل نفسه، بل لم يذكر حتى من أرسله، واكتفى بقول عبارة واحدة قصيرة "ما تقومون به ليس جيدا".

في سوريا بداية القرن الواحد والعشرين لم يحتج متلقي المكالمات إلى تفسيرات، فهو يدرك على الفور أن من وراء هذا الصوت النظام الحاكم, بجلالة قدره, وأن رأيه المؤدب حول نشاطه الإنترنتي لم يكن سوى تهديد صريح للتوقف عن اتخاذ النهج الذي اتبعه. أو بمعنى آخر – التوقف عن توجيه الانتقاد للنظام الحاكم. ذكرت منظمات حقوق الانسان في سوريا وخارجها أن ضغوط الرقابة تزيد كلما زادت نسبة مستخدمي الإنترنت. ولقد كانت وسائل الرقابة

متنوعة، ومنها حجب مواقع معينة. ومعظم هذه المواقع إخبارية أنشأتها مجموعات معارضة في سوريا وخارجها، مثل الأخوان المسلمين والأقلية الكردية. كما كان من الصعب في بعض الأحيان على المتصفح السوري الدخول إلى موقع اليوتيوب والفيسبوك. وفي الماضي تم حجب خدمات البريد الإلكتروني لياهو والهوتميل، لكن من حينها تغير التوجه وأصبحت الرقابة على البريد الإلكتروني انتقائية. وعندما يكون في كل الدولة شركتان تقدم خدمات التصفح، وكلتاهما حكوميتان، يكون من السهل تعقب الحركة فيهما.

من الوسائل الأخرى لمراقبة مستخدمي الشبكة، الاعتقالات. ففي تلك السنوات لمتقل بعض المدونين السوريين الذين تجرأوا على الانتقاد الشديد للنظام الحاكم. وكان أبرزهم فراس سعد، كاتب وشاعر من مدينة اللاذقية، حيث حكم عليه بالسجن أربع سنوات. دين سعد بمخالفة المادة 286 من القانون الجنائي، التي تحظر نشر معلومات "كاذبة أو مبالغ فيها، من شأنها أن تكدر الأمن القومي". بذلك دافع بسجنه عن سلسلة من المقالات عن الجيش السوري، التي نشرها أثناء حرب لبنان الثانية.

"نفس ضباط الجيش الذين لقبهم حافظ الأسد "البشر"، اعتادوا شرب الويسكي والعرق"، وكتب سعيد أيضا "لقد سجل هذا الجيش أعمالا بطولية منذ حرب 1948 وحتى 1973، وكذلك في مناسبات مختلفة في حرب 1982، وخاصة في معركة السلطان يعقوب – لقد توقف هذا الجيش عن القتال وعاد إلى ثكناته ليشرب ويتدرب في النوم، وانتظار يوم القيامة".

وفي المركز السوري للإعلام وحرية التعبير قالوا إنه منذ أن بدأت الحكومة في استخدام المعتقلات ضد المدونين، ومحرري المواقع الإلكترونية، توقفت السلطات عن توجيه التعليمات كتابة وقاموا بذلك شفاهة. والغرض من ذلك، كما قال درويش، رئيس المركز، هو التصعيب على محامي المعتقلين من الحصول على دلائل للمحكمة.

رغم ذلك، فمنذ أن دخل الإنترنت إلى سوريا، مع تعيين الرئيس بشار الأسد في منصبه في صيف عام 2000، قفزت نسبة استخدامه. ففي السنوات الثمانية الأولى لحكمه ارتفع حجم المستخدمين بـ 4,9 في المائة، أي أكبر بكثير من الزيادة العالمية التي وصلت إلى 249% في المتوسط.

1500 ريال، للجادين فقط

"مثل العروس التي تنتظر عريسها في ليلة الزفاف"، بذلك سخرت صحيفة الرياض السعودية من عاهرة مذكرة الجنس، الذي اعتاد استقبال زبائنه في أحد فنادق العاصمة. حتى السعودية، بلاد الحرمين الشريفين، لا تستعجب سماع أخبار دعارة شاذة في المملكة. لكن الذي حول القصة إلى حدث خاص هو الطريقة التي نشر بها هذا الشاب بضاعته – عبر غرف الدردشة في شبكة الإنترنت.

لقد وصف نفسه بأنه "باقة من التوت النسائي" ، وذكر أنه يقدم خدماته للجادين فقط مقابل 1.500 ريال سعودي. ولسوء حظه وصل خبره إلى مسامع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقام رجال وحدة التكنولوجيا بالهيئة بالتصفح في المواقع الصحيحة وكشفوا أمر وجوده. تنكر أحد المحققين في صورة زبون، وحدد لقاء مع الشاب في الفندق، وفاجئه بأمر القبض عليه. لم يكتف رجال الهيئة بذلك بل سارعوا بتسريب الخبر للصحافة بأنهم ألقوا القبض عليه في وضع مخل، مرتديا ملابس امرأة، واضعا أحمر شفاه.

قال الفتي للمحققين "لا أخجل من ذلك". وكشف لهم أنه نشر في المواقع الأخرى صورته وأرقام هواتفه المحمولة، حيث كان يمتلك اثنين.

بعدها بأيام كشفت شرطة الأمر بالمعروف عن شابين آخرين، عرضا جسديهما في غرف الدردشة في شبكة الإنترنت. ولقد أوضح الدكتور صقر بن محمد المقيد، باحث في جامعة نايف لقراء الصحيفة أن الدعارة الرجالية مشكلة طبية. لقد أوصى الباحث المحترم قائلا "الرجال من هذا الصنف مرضى، ويجب علاجهم وفقا للشريعة". وحاول ملطفا الحديث بالفعل عن ظاهرة تثير الاشمئزاز لدى المستمع، لكن المملكة السعودية لا تعاني من ذلك.

وفي غرف الدردشة على الانترت واصل الشباب عرض الخدمات الجنسية، لكن باحث الاجتماع المقيد أصر على موقفه. فقد ربط بين الشذوذ الجنسي والمشكلة الأمنية التي أقلقت حكومته بدرجة كبيرة.

ثم قال "إن شاء الله ستواصل بلدنا مطاردة الإرهابيين، والشواذ، والضالين بأنواعهم".

الضرب السياسي

وجد الدواء للمواطن المحبط اختر أكثر زعيم تكرهه، حوِّله إلى جوال افتراضي للتمرين، واضربه حتى تنهك قواك. هذه هي الفكرة من وراء لعبة الإنترنت التي تم اختراعها في بيروت، والتي تسمح للمستخدم بمواجهة شخصيات معروفة. لكمات، معارك بالسيف، ضربات بالفأس، طلقات نارية، صواريخ كاتيوشا. ومن يتلقى الضربات يبكي، ومن يضرب يحصل على النقاط.

لم تكن هناك طريقة في الواقع السياسي اللبناني أفضل من ذلك للتعبير عن الغضب من المؤسسة السياسية التي يحتكرها معظم المواطنين. عرف مخترعو اللعبة ذلك الواقع جيدا، لذلك وضعوا أمام الشعب الشخصيات المناسبة من بين الزعماء اللبنانيين لضربها. من الممكن أن تجد هناك كل من الدرزي وليد جنبلاط، الذي يمتاز بالتغيير المنتظم لولائه؛ وسمير جعجع رجل الكتائب اللبنانية، و طبيبا أصبح قاتلا ثم برلمانيا رصينا؛ وميشيل عون الجنرال الذي تمرد على السوريين، ثم أصبح من المقربين لهم مع مر السنين؛ ونبيه بري، الزعيم الأبدي لحركة "أمل" الشيعية؛ وسليمان فرنجية، من ممثلي الجيل الشاب للزعامة المسيحية. واختتم القائمة بالسني سعد الحريري، وريث مليارات والده المرحوم رفيق الحريري، الذي أصبح فيما بعد رئيسا للحكومة.

"تعبير شائع أن العالم مسرح كبير" وتوجه أصحاب الفكرة للمستخدمين، "نحن نسأل – كم مرة في الماضي تم تحديد مستقبل لبنان بأيديها منذ الأزل كنا ومازلنا دمى يتحكم فيها الآخرون، سواء على أساس طائفي أو لأسباب دينية. والآن نحن نحول الدفة لأول مرة. سنصبح المتحكمين وهم الدمى."

ولدت الفكرة في رأس زياد فغالي، مبرمج شاب من بيروت، في ذروة اضطرابات ديسمبر 2006؛ حيث انسحبت الأحزاب الشيعية من الحكومة احتجاجا على التوجه الغربي للحكومة بعد حرب لبنان الثانية. حيث زعموا أن الحكومة تعاونت مع أعداء الشعب للقضاء على المقاومة المسلحة، لذلك لم تعد حكومة شرعية. وتحكمت في احتجاجها، الذي طالب رئيس

الحكومة فؤاد السنيورة بالاستقالة وحل المجلس الوزاري، المظاهرات والإضرابات والمواجهات في الشارع، وسعت لشل الاقتصاد.

قال فغالي "خرجت من بيتي إلى المكتب وعلمت أني محاط بأنصار الحكومة من جانب، ورجال المعارضة من جانب آخر، حيث وقع صدام بينهم بالحجارة والعصي" ، وأضاف "ولقد لفتت أعامرهم انتباهي؛ فمعظمهم لم يتخط السابعة عشر. لقد كانوا،مى يتم تشغيلها بأوامر الأكبر منهم وفقا للمعايير الطائفية، وليس لأيديولجية ما."

لقد وجد كل لبناني نفسه في هذه اللعبة. فقد فرح الشيعة بضرب الحريري، وأنصار عون أرادوا رأس جنبلاط، وأنصار الحريري أرادوا الفرنجية وبري، وكلهم تقريبا أرادوا إطلاق الرصاص على جعجع. معارضو حزب الله فقط هم الذين وجدوا أنفسهم مظلومين. فقد تخلى فغالي وأصدقاؤه عن شخصية حسن نصر الله ومنعوا المتصفحين من متعة إرسال الكاتيوشا إلى وجهه مباشرة. ولم يكن قرارهم مصادفة. ففي دولة مثل لبنان، يدير فيها حزب الله الحياة اليومية، لا يمكن اتهام صانعي اللعبة بالارتباك.

وبرروا ذلك قائلين: "قررنا عدم المساس بالشخصيات والرموز الدينية" غير أن هذا المبرر لم يقنع أحدا. فالجميع يعلم أن أنصار حسن نصر الله حساسين جدا لكرامته، وعلمتهم تجربة الماضي أن إشراك زعيم حزب الله في شخصيات اللعبة لم يكن ليمر بسلام. ففي لبنان، بين العالم الافتراضي وبين الشارع ، تدور الحياة وفقا لقانونين، الأول للدولة والآخر لحزب الله.

الشيعة ضد السنة، نسخة شبكة الإنترنت

فوجيء متصفحو الموقع الإخباري لقناة العربية التلفزيونية باكتشاف أن الهاكرز قد سبقوهم إليه.ومن أراد الدخول للموقع وجد صورة علم إسرائيل يحترق ومكتوب أسفله باللون الأحمر: "لو استمر اختراق المواقع الشيعية، فإن أي من مواقعكم وشبكاتكم لن تكون في مأمن."

أسس القناة، التي مركزها دبي، رجال أعمال سعوديين مقربين من القصر الملكي في الرياض، وتعتبر من المحطات الإخبارية البارزة بين القنوات الفضائية. امتازت هذه القناة بالرؤية الليبرالية، والمنفتحة وهي تواجه قناة الجزيرة التي تميل إلى تبني الخط العربي القومي، أو أنها تتعاطف مع التيار الديني. ولقد دفع محررو قناة العربية وصحفيوها الثمن على إدارتهم

المتجددة. ففي أثناء الحرب العراقية أمرت السلطات بغلق مكاتب القناة في بغداد لفترة طويلة. بعدها أصبحت القناة هدفا للتآمر من قبل التيارات السنية المنحازة إلى أفكار القاعدة. وفي فبراير 2006، قتلت مراسلة القناة في مدينة السمراء، أطوار بهجت، ومعها المصور الذي رافقها. وبعد أربع سنوات من ذلك تم إدخال سيارة مفخخة إلى الاستوديو الخاص بها في بغداد وانفجرت وقتلت أربعة عاملين.

المحطة لديها موقع إخباري نشط، يعمل كهيئة تحرير منفصلة يتم تحديثه كل بضع ساعات بأخبار من العواصم العربية والإعلام العربي. ولقد قام محرروه بتحويله إلى ساحة لتناول القضايا الاجتماعية الملحة، مثل: مكانة المرأة، تطور الفتاوى، التصادم الثقافي مع الغرب والتوتر بين السنة والشيعة. كما امتاز الموقع بنظام الردود الذي حوله إلى ساحة للمناقشات العامة.

يبدو أن الموقع قد تمادى في بعض الأحوال. كان ذلك في خريف 2008، عندما قرر محرروه إجراء استطلاع حول قضية كان أحد أبطالها أحد كبار رجال الدين في العالم السني – الدكتور يوسف القرضاوي. فمن الموقع الرفيع بدأ رجل الدين المصري بحملة ضد جهود إيران الجلية بتوسيع تأثيرها في داخل العالم العربي. وفي سلسلة من الهجمات اتهم القرضاوي الشيعة بأنهم يحاولون التغلغل في الدول السنية، مثل: مصر والجزائر، وتونس، وسوريا.

أعلن القرضاوي أن إيران بلد الأحلام والأطماع. هذا هو الغزو الشيعي المنظم، ولا مفر من مواجهته. وإن لم نفعل ذلك فإننا نخون عقديتنا". أثارت هذه الكلمات غضب الشيعة وألهبت التوتر الطائفي [حول هذه القضية انظر الفصل الخاص عن الشيعة].

هب المتصفحون الشيعة للرد. وفي أحد الأيام، استيقظ الواحد تلو الآخر من كبار رجال الدين السنة، واكتشفوا أن مواقعهم قد تم اختراقها. هذا ما حدث، على سبيل المثال، للمفتي السعودي، الشيخ عبد العزيز آل الشيخ. وكذلك موقع الشيخ السعودي المعروف، عائض القرني، فقد تم اقتحامه وتفريغه من محتواه. وفي رد فعل على ذلك قام الهاكرز السني بتدمير موقع آية الله علي السيستاني، عراقي من النجف، ومن كبار رجال الدين في التيار الشيعي. وفي المجمل تم اختراق حوالي 300 موقعا، محسوبين على تيار كل منهما.

اختير موقع العربية كهدف لمهاجمة الهاكرز نظرا لشعبيته بين المتصفحين. وكمحطة أم قام محررو الموقع بعرض قضية القرضاوي، وسمحوا للمتصفحين بالتعبير عن آرائهم بحرية. ولم يمر مديرو المحطة بهدوء على أفعال الهاكرز. وفي إعلان نشروه أطلقوا على هذا الاختراق "الإرهاب الإلكتروني، الذي لا تقل أضراره عن الإرهاب العادي" – في إشارة إلى سياسة إيران في الشرق الأوسط. لكن ما علاقة ذلك بعلم إسرائيل؟ لا علاقة بين الاثنين، لكن من الأفضل دائما إضافة إلى الحملة السياسية ضد الخصوم الاتهامات بالتعاون مع الصهيونية. بعد كل السنوات التي تحول فيها التطرف إلى أكبر تهديد على شعوب المنطقة، فلا يوجد مثل إحراق العلم الإسرائيلي لتذكرة الجميع من هو الشرير الحقيقي هنا.

التهديد الإنترنتي

ترفع أيام المواجهات القاسية والمصادمات بين إسرائيل وجيرانها مستوى التوتر في مواقع الإنترنت والمنتديات باللغة العربية إلى مستويات قياسية لا تشهدها في الأوقات العادية.

ففي أثناء عملية "الرصاص المصبوب" في قطاع غزة، التي بدأها الجيش الإسرائيلي في ديسمبر 2008، توجه متصفح إسرائيلي إلى وزارة الداخلية في القدس محذرا. فقد حكى عن مدوِن عربي وضع على شبكة الإنترنت عناوين وزارة الداخلية، ومكتب رئيس الدولة، والكنيست، وطلب من المتصفحين إزعاجهم عبر الرسائل الإلكترونية انتقاما منهم على العملية التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي.أطلق المدوِن على نفسه "فارس – المشرف العام". ودعا إلى زرع "الخوف والرعب بين هؤلاء الخنازير، عبر إرسال رسائل إلكترونية إليهم وترهيبهم".

في وزارة الداخلية قاموا بعملية فحص أولية ورفضوا الفزع. لقد كانت المبادرة الشخصية لفارس جزءا صغيرا من جهود المتصفحين العرب للاتحاد من أجل الجهاد الإلكتروني ضد إسرائيل أثناء سير المعركة في غزة. فالصور التي بثتها القنوات التلفزيونية العربية من مستشفيات القطاع، ومن الأحياء التي تم قصفها كانت قاسية للغاية وأدت إلى إحباط وغضب شديدين لدى المشاهدين العرب. و غطت صور الأطفال القتلى والمنازل التي محيت من على الأرض التقارير الإخبارية.

لم يكن فارس المجهول منفردا. فقد احتفلت مجموعة من الهاكرز من الدول الإسلامية، الذين هم أعضاء في المنتدى، يتصفحون الإنترنت، بالهجوم المنسق على المواقع الإسرائيلية. وكان من بين المجموعة التي سميت "قناصة المغرب"، متصفحون من لبنان، وتركيا وإيران. وقاموا حسب زعمهم بمهاجمة 80 موقعا وأضروا السيرفير الرئيس في شبكة نظام الإنترنت الخاص بإسرائيل. ولقد حكى أحدهم بفخر أنه اقتحم بنفسه 2.485 موقعا. ورفض الكشف عن اسمه ليس خوفا من الانتقام الإسرائيلي بل من تنكيل حكومته به.

قال باحث الإعلام المغربي يحيى اليحياوي "هذه حرب من نوع جديد، هدفها الإضرار بطرق المعلومات والأهداف التجارية لدى العدو الإسرائيلي، من أجل شل وسائل الاتصالات والتعامل الداخلي لديه". ووصف الهجوم كتعبير عن الحرب النفسية، وتفاخر بقدرة الشباب المسلم من مختلف الدول على تدمير مئات المواقع الإسرائيلية. وأردف قائلا "لقد تحدوا النظام الدفاعي القائم حول هذه المواقع" .

بناء على المعلومات التي جمعتها إسرائيل, هاجم "قناصة المغرب" الخادم الإلكتروني (السيرفر) لحامل العناوين الإسرائيلي Domain The Net. وبعد أن اقتحموه، قاموا بتنفيذ عملية مماثلة لحوار "اتبعني" – وقاموا بتغيير الشفرة المؤدية إلى العنوان، بالشكل الذي نقل الحركة من الموقع المراد إلى الصفحة الاستفزازية التي أنشؤوها من أجله. وكل من أراد الدخول إلى الموقع الإسرائيلي، فإنه يجد نفسه أمام صفحة الرسائل العدائية، سوداء، في الجزء العلوي منها إعلان عن اختراق الصفحة. وتسمى هذه العملية بعملية "خطف الدومين". وفي هذه الحالة لم يضار الخادم نفسه.

بشكل مماثل تم "السطو" على مواقع بنك ديسكونت، وموقع صحيفة معاريف، وموقع إذاعة الجيش الإسرائيلي، وموقع Ynet الإخباري باللغة الإنجليزية، وكذلك مواقع الوزارات الحكومية والأحزاب. ولقد دهش المتصفحون الإسرائيليون بوجود صفحة سوداء وصور القتلى الفلسطينيين من قطاع غزة، إلى جانب صور التعذيب المعروفة في سجن أبو غريب في العراق، وفي الخلفية أغاني انتصار باللغة العربية، وكتب إلى جانب الصور بلغة إنجليزية غير سليمة: "كل

الضحايا الذين قيل عنهم "إرهابيين", والسبب الحقيقي لموتهم هو أن المعتدين والقتلة أقوى منهم. إن المعتدين سيخلدون في نار جهنم ولن يستطيعوا الفرار من عقاب الله".

أما الرأي العام المغربي الذي ثار غضبا مثله مثل جميع الدول العربية أثناء معارك "الرصاص المصبوب"، فقد أعرب عن خوفه من أن تقوم حكومته بتصفية الحساب مع الهاكرز. فالمادة 124 من القانون الجنائي تحدد عقوبة السجن لمدة تتروح بين خمس وعشر سنوات لمن يقوم بمثل هذه الجرائم. لكن في هذه الحالة لم يكن هناك داعٍ للخوف. فالقصر الملكي المغربي علم جيدا أن ملاحقة الشباب لن تلقى تأييد الشعب, خاصة في ظل تضامن الشارع العربي مع سكان غزة. لقد كانت السلطات المغربية سعيدة بالسماح لأشقياء الإنترنت بضرب الاقتصاد الإسرائيلي عن بعد، طالما كان ذلك ضررا محدودا. كما كان ذلك, من ناحيتهم, مساندة رخيصة جدا للقضية الفلسطينية التي تقلق القيادة المغربية بشكل محدود.

وساعد رجال الدين القصر في هذا الأمر عندما طب رأيهم في نشاط الهاكرز، فسارعوا إلى منحه الطابع الشرعي. وليس فقط ذلك، بل ساهمت الحملة ضد إسرائيل على شبكة الإنترنت في إيجاد مفهوم جديد في الحوار العربي – "الجهاد الإلكتروني".

قال الشيخ المغربي بن سالم باهشر أن "الجهاد في سبيل الله يشمل اثنا عشر نوعا مختلفا من العمل ، أحدها حرب الإنترنت. وأصحاب هذه المبادرة يستحقون حسن الجزاء (من الله), لأن نشاطهم مشروع شرعا."

أوضح إدريسي أبوزيد، رجل دين مغربي متخصص في تعليم القرآن, أنه من الجريمة مهاجمة المواقع الإلكترونية إن كان ذلك الهجوم سوف يضر أصحابها. "لكن في ظل الحرب ضد إسرائيل, فإن للمسلمين الحق في استخدام كل وسيلة مشروعة، وغير مشروعة من الناحية الشرعية، من أجل رد العدوان عنهم."

قال رجل دين ثالث، عبد الباريء زمزمي، إن الجهاد الإلكتروني ليس حق فقط بل فرض على المؤمن، على غرار المقاومة المسلحة. وحذر من المساس بالمواقع الإسرائيلية خارج إسرائيل, إن كان الهدف هو دولة إسرائيل.

على الرغم من أن عمل "قناصة المغرب" لم يسبب أضرارا كبيرة للاقتصاد الإسرائيلي، كما حاول أن يصوره المسئولون عنه، لكنه يمكن أن يكون نموذجا لحرب مستقبيلة بين المنظمات المتطرفة والحكومات. إن تحالف الهاكرز, أو المجاهدين الإلكترونيين الذين سيعملون بدقة كبيرة، من الممكن أن يسبب أضرارا كبيرة للبنية التحتية المدنية لأي دولة.

المهنة توكباك (الردود)

يوجد في المغرب أيضا من ليس مشغولا بالجهاد الإلكتروني، لكنه ما زال يقضي ساعات طويلة أمام الحاسب الآلي. فمحمد راجي، متصفح إنترنت يبلغ من العمر 29 عاما من منطقة أغادير، لم يكن من السهل عليه إيجاد مكان عمل. وفي محنته هذه أوجد لنفسه شيء يشغله بدون مقابل مادي – قائم على الردود؛ حيث اعتاد معظم الوقت المكوث في البيت، عاطلا لظروفه الصحية، ويمضي وقته أمام شاشة الحاسوب؛ وتبنى نظام الردود في المواقع الإخبارية المغربية، التي أكثر من خلالها التعبير عن مواقفه. وفي أحد الأيام قرر مهاجمة موقف وزارة المواصلات التي قدمت تصاريح لتشغيل سيارات الأجرة لمجموعة مختارة فقط. فكتب أن ذلك تصرف فاسد "جعل الآخرين يتسولون، وجعل الشعب المغربي يعيش على التبرعات والهبات، وبدون كرامة."

في الظاهر كان يبدو أن هذا تعبير مشروع عن الرأي، لكن السلطات لم تفهم الأمر على هذه الصورة. فقد اعتبرت السلطات أن رأى هذا الشاب الصغير اتهاما للحكومة بأنها أفقرت مواطني المملكة، وهو أمر بعيد كل البعد عن الواقع. وفي غضون بضعة أيام فوجيء راجي بزيارة رجال الشرطة لبيته. وبعد يومين آخرين وجد نفسه في محكمة أغادير، وبعد جلسة قصيرة للغاية حكم عليه بالسجن لمدة عامين وغرامة بمبلغ 5.000 درهم.

لقد "تم إصدار القرار في غضون عشر دقائق," واشتكى أحد أقرباء المتصفح الشاب، الذي طلب من الصحفيين عدم نشر اسمه، قائلا: "لقد تلى القاضي الحكم بسرعة تصعب على المستمع فهم ما قال، ولم تتح له –الشاب- أي فرصة لقول شيء".

نشرت هذه الحالة في وسائل الإعلام العالمية. وطالبت منظمة "محامون بلا حدود" الدولية بالإطلاق الفوري لسراح الشاب بزعم أن العقوبة لا تتماشى مع الدول الديمقراطية.

قال نشطاء منظمة حقوق الإنسان في المغرب "إن ما كتبه محمد ليس سخرية من الملك", "لكن رأي سياسي حول الطريقة التي تدار بها المغرب."

لم تكن تلك المرة الأولى التي ردت فيها سلطات الرباط بشكل قاس على انتقاد موجه لها في شبكة الإنترنت. فقبل حالة راجي ببضع شهور قرر شاب يبلغ من العمر 26 عاما، يدعى فؤاد مرتضى، المزاح على حساب شقيق الملك – مولاي رشيد. وأطلق على ما يبدو صفحة على شبكة التواصل الاجتماعي الفيسبوك، على اسم الأمير. ومع اكتشاف المزحة هاجم رجال الشرطة منزله واصطحبوه للتحقيق. لم يستوعب مرتضى إلى أي درجة المزحة واهية, وقد وجد نفسه في غرفة التحقيق, مضروبا ومهانا, أمام المحققين الذين أرادوا استيضاح ، إن كان على علاقة بأي عناصر إرهابية لكن دون جدوى.

حكمت المحكمة عليه بعقوبة رادعة وأرسلته لقضاء ثلاث سنوات في السجن, وغرامة بمبلغ 1.304 درهم. بعد ذلك بشهر فقط قرر الملك, محمد السادس, أن الردع قد تحقق, ولا داعي لبقاء الشاب الصغير الذي لا يملك أي حس للدعابة وراء القضبان. وحصل مرتضى على العفو وأطلق سراحه. وسيعرف جيدا في المرة القادمة اختيار موضوعات نكاته.

همس العصفور الصغير

يحكى عن السلاطنة العثمانيين أنه كان لديهم طريقة لإعطاء المواطن الشعور بأن الباب إليهم مفتوح. ففي الوقت الذي تواجد فيه السلطان بجلالة قدره في إحدى الولايات البعيدة، علم المواطنون بأن في مقدورهم التوجه إليه ولقائه مباشرة. وكانوا يعرضون عليه مشكلاتهم مكتوبة، من قبلها، ويقتربون من جلالته ويضعون الرسالة في يديه مباشرة، أو في يد أحد مستشاريه.

قبل أقل من مائة عام من انهيار الدولة العثمانية يبقى لدى مواطنيها طرق سريعة للإعراب عن رأيهم أو شكاواهم أمام الحاكم. والإجابة ليست دائما مؤكدة، لكن على الأقل يبقى الباب مفتوحا أمامهم دائما لإرسال رسالة أو رسالة إلكترونية لمكتب الملك أو الرئيس. ولقد طور سمير الرفاعي، رئيس حكومة الأردن، الأسلوب أكثر. فقد أنشأ الرفاعي لنفسه صفحة على شبكة التواصل الاجتماعي "تويتر".

كانت تغريدات رفاعي مفيدة للغاية أكثر من الرحلات السابقة لحكام اسطنبول للولايات البعيدة. فقد جعلته هو والمواطن على اتصال دائم، على مدى 24 ساعة يوميا، دون أن يطلب من أحدهم الخروج من بيته أو مكتبه. كان ذلك هو أسلوب رئيس الحكومة في الاستماع إلى مطالب الشعب، وأن يشرح لهم إنجازات الحكومة ويشاركهم انطباعاته اليومية. وفي عمان حكوا أنه اعتاد الرد بسرعة على أسئلة المتصفحين، وفي بعض الأحوال في غضون دقائق قليلة.

ذات مرة "تناولت على الغداء مقلوبة (أرز مع اللحم) في مطعم القدس," كتب رفاعي وقال: "إن شاء الله, سوف يتم تنفيذ مشروع تطوير ميدان فيصل في أقرب وقت." وعبر تويتر أنكر ادعاء رنا صباغ, الصحفية الكبيرة في جريدة العرب اليوم, أنه قام بتهديدها تليفونيا بتقديمها للمحاكمة بعد انتقادها سياسة الحكومة على صفحات جريدتها. وقال "هذه افتراءات محزنة للغاية." بعدها اعتذر للمتصفحين عن غيابه المرتقب عن المملكة من أجل مرافقة ابنه زيد لمراسم بداية دراسته في الولايات المتحدة.

لقد لقب المدون الأردني أبو شريك رئيس الحكومة "الرئيس التويتري", غير أن سمير الرفاعي لم يكن بمفرده. فأربعة آخرين من وزراء حكومته قد وضعوا تويتر في خدمة الشعب, ومعهم رئيس بلدية العاصمة عمان. كما أن وزيرة السياحة الأردنية سوزان عفانة - سابقا كانت مقدمة نشرة الأخبار في القناة الأردنية باللغة الإنجليزية- قد تلقت مجاملات من متصفح لجمالها. ربما استطاعت شاشة الحاسب الآلي رؤية وجهها يحمر من الخجل, لكنها لم ترد على المجاملة. أما المتصفح أسامة الرمح فقد عرض على وزير الإعلام, نبيل شريف, أن يجمع وزراء الحكومة في ورشة عمل لتعلم مهارات استخدام الشبكة العنكبوتية. وقال متذمرا "ليس من المنطقي أن خمسة فقط من الكبار لديهم صفحة على تويتر."

مجلس تغريدات رفاعي لم يعمل في فضاء فارغ. ففي الوقت الذي قدم فيه وزراؤه للجمهور قناة للتواصل معهم, فقد عمل نفس الوزراء على تقليص مساحة عمل المواقع الأخبارية الأردنية على شبكة الإنترنت. فقد طلب رفاعي ورجاله تطبيق قانون الطبع والنشر على هذه المواقع, التي تضاعف عددها عدة مرات عن الصحف ولاقت انتشارا كبيرا. والغرض من هذا القانون الرقابة كي لا يصبح الإعلام أداة لتحريض الشعب الأردني في القضايا التي يعتبرها القصر ذات أهمية

قومية. ومن ذلك على سبيل المثال : التوتر بين المواطنين الفلسطينيين وبين المواطنين البدو, ومكافحة الإرهاب, والعلاقات المخابراتية بين إسرائيل والدول الغربية, والتآمر الإيراني على أراضي المملكة. وتحظر أحد بنود هذا القانون نشر أي تفاصيل عن الملك أو العائلة المالكة، إلا إذا كانت قد نشرت عبر القنوات الرسمية.

لقد استخدمت الحكومة الأردنية الشبكة العنكبوتية استخدامًا متقدمًا لصالح التواصل مع المواطن, غير أنه في ذات الوقت أرادت تقييد الشعب في استخدامها.

كتب الصحفي عصام العابد في جريدة الرأي "نحن نتحدث عن صحافة عالم شاسع وحرية مطلقة". وفي المقال الذي خصصه عن العالم الإلكتروني, حذر من السخرية من المكانة القيادية التي ستحتلها في المستقبل ، بقوله "إن الصحافة الإلكترونية الأردنية هي هيئة جديدة, الخامسة بعد أربع هيئات؛ وتقترب من كونها –أو ستكون في يوم ما- الهيئة المراقبة والمشرفة."

متوفى دوت كوم

كان لدى حسين شماسي من السعودية هواية غير تقليدية, والبعض يقول إنها غريبة؛ حيث تخصص الشاب في جمع معلومات عن إعلانات الوفاة بشكل مرضي.

في البداية اعتاد جمع التفاصيل من الصحف ووثقها في سجله. ويوم ما تعجب أحد أصدقائه لماذا يحتفظ بذلك الأرشيف لنفسه ولا يشاركه مع الآخرين. أخذ شماسي الملحوظة بجدية, وفي خلال فترة وجيزة رفع على الشبكة أول أرشيف عربي لإعلانات الوفاة.

احتوى موقع, "رياح الشرق", على بيانات عن سيدات ورجال ماتوا في مكان إقامته في القطيف وما حولها. وكلما بدا الأمر غريبا كان مشغولا أكثر. أقام شماسي شبكة من المصادر التي وافته بكل حالة وفاة. موظفون بالمستشفيات, عاملون في المقابر, حافرو المقابر, ومغسلو الموتى, وأصدقاء ومعارف في مختلف القرى. ولقد مرت المعلومات بنوع من التدقيق الشديد قبل رفعها على الموقع. ففي بعض الأحوال كان مصدر المعلومات عن وفاة شخص ما شائعة ليس لها أساس, لذلك يجب توخي الحذر من تقديم معلومات خاطئة عن ذلك.

كما أعرب شماسي عن حساسية شديدية، وحرص على عدم الإعلان للمتصفحين عن وفاة مدمن أو تاجر مخدرات، ولا عن طفل أقل من خمس سنوات, لعدم إحراج أسرته. لقد علم جيدا أن البعض يعتبر وفاة شخص قبل الآوان عقاب شديد من السماء.

ولقد قال للمتسائلين أنه لا ينوي أن يحول موقع "رياح الشرق" إلى مشروع تجاري. لكن كان واضحا للجميع الطاقة المجسدة فيه. ومع مرور السنوات استطاع التوسع في كل المحافظات الأخرى في المملكة السعودية, ونشر مواد تجارية وأن يعرض على الناس إعلانات وفاة مدفوعة. وهذا مشروع مادي كانت بدايته هواية وربما نهايته خروج.

هو ليس بسيدة, هذا ابتزاز

في السعودية, هناك من يستعين بالإنترنت لأغراض أخرى غير تلك المرتبطة بالموت. فعلى سبيل المثال, الحب. شاب في العشرينيات من عمرة تعرف على فتاة عبر الدردشة في إحدى غرف الدردشة. الاثنان كانا يقيمان في محافظات بعيدة وكان يصعب عليهما اللقاء. لذلك وعلى مدى ثلاث سنوات كاملة كانت بينهما قصة حب عبر الماسنجر. وعندما شعرا أنه قد حان وقت اللقاء، كشفا لوالديهما عن حبهما وعن رغبتهما في ترسيخه.

توجهت العائلتان إلى القاضي الشرعي وسألوه إن كان اختبار الزوج المرتقب ممكن عبر كاميرا الإنترنت، مسموح به شرعا. وكان الرد إيجابيا.

فقد قال الشيخ عبد المحسن العبيكان, المستشار الخاص للقصر الملكي وعضو مجلس الشورى (البرلمان السعودي)"إذا أراد الاثنان مشاهدة بعضهما عبر شاشة الحاسب واتخاذ قرار عبر ذلك فيما يخص الزواج – فإن ذلك مباح". وطلب منهم الحرص على ألا يشاهد الشاشة شخص آخر غيرهما، كي لا تنتهك خصوصيتهما.

يتضح أن الشبكة العنكبوتية هي شأن رئيسي في حياة النساء السعوديات خاصة الشباب. ولقد أوضح استطلاع حول مستخدمي الإنترنت أن 69.5% تتصفحن بمفردهن، وليس تحت رقابة أفراد العائلة. ووجد الاستطلاع الذي قامت به جامعة الملك سعود ونشرت نتائجه في مارس 2009 أن 39.3% من السعوديات لديهن حاسب آلي في غرفهن, و12.6% فقط تتصفحن عبر الحاسب الألي الموجود في صالون المنزل. وأن نوعية المواقع المفضلة لديهن هي غرف الدردشة

والمنتديات (18.8%), والمواقع الصحية والجمال (16.5%) وبرامج الرسائل الفورية (13%) وفي المؤخرة المواقع التي تهتم بالعلوم. وذكر الدكتور عزت عبد العزيز عثمان القائم بالاستطلاع, أن كثيرا من الفتيات يتصفحن الإنترنت أوقات الليل المتأخرة وحتى طلوع الفجر. وأضاف "إن طبيعة حياة الأسرة السعودية تعطيها حرية القيام بكل ما تريده, في المنزل ".

لقد تسبب الإنترنت في إحدى الحالات في حرج بين عائلة سعودية شابة؛ حيث تقدم رجل يبلغ من العمر 28 سنة بشكوى للشرطة بأن شخص مجهول تعرفت عليه زوجته على شبكة الإنترنت يقوم بابتزازها. ووفقا لروايته, فإن زوجته كانت تتصفح على إحدى مواقع غرف الدردشة، وتعرفت على سيدة وانتقلت للحديث معها على قناة شخصية. واستمر الزوج راويا أنه في خلال فترة قصيرة اتضح أن السيدة ليست سيدة بل رجلا.

وقال للشرطة "لقد اخترق بريدها الإلكتروني" , "كما اخترق الحاسب وأنزل منه صورا لها وهي عارية". وبعد أن أصبحت الصور في حوزته، بدأ في ابتزازها. وطلب منها أن تقوم بإيداع مبالغ من المال في حسابه الشخصي، وإلا نشر صورها على شبكة الإنترنت."

لم تكن عملية كشف هوية ذلك الرجل بالصعبة. ففي السنوات التي سبقت هذه الحادثة بذلت السلطات السعودية الكثير من المال والفكر في مكافحة جرائم الحاسب الآلى. ولم يكن الرجال الغاضبين هم الدافع من وراء ذلك، بل الإرهاب الداخلي الذي اجتاح المملكة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة؛ ففي أنحاء السعودية بدأت في العمل الجماعات الإرهابية المحلية التي خططت لهجمات إرهابية ضد رموز الحكومة أو ضد المواطنين الأجانب. ولقد كان الاتصال الأساسي بينهم عبر البريد الإلكتروني، أو المنتديات على شبكة الإنترنت.

وقعت مسؤولية تحديد موقع الشخص المجهول على عاتق قسم التحقيقات المحكمة لدى شرطة محافظة إحساء. ولم يصعب على خبراء الحاسب الآلي في القسم تتبعه عبر حاسب الزوجة. وتم تحديد موقع المبتز، وألقي القبض عليه وقدم للمحاكمة الجنائية.

سامحني يا أبي لأنني تصفحت

القائل بأن الإنترنت ديانة, يبدو أنه جاء من زيارة للكنيسة. كان البابا القبطي المصري, البابا شنودة الثالث[3], قلقا من عادة المؤمنين باستبدال غرفة الاعتراف في الكنيسة بوسيلة أكثر بساطة, لن يكون فيها إلى حاجة للخروج من المنزل –البريد الإلكتروني أو التليفون.

الاعتراف هو أحد أسس الديانة المسيحية. يستطيع المؤمن, في محنته, أن يدخل الكنيسة ويعترف أمام القس بذنوبه، وإن كانت كبيرة جدا. وبهذه الطريقة يمكنه التعبير عن الندم على أفعاله، والتطهر، ولو قليلا، وكذلك الحصول على النصيحة ممن يعتبر السلطة عقلانية. تتغير طريقة الاعتراف بما يتوافق مع الطائفة المسيحية. فمن المتبع لدى الكاثوليك الجلوس في غرفة خاصة في الكنيسة مقسمة لقسمين، ويكون وجه المعترف خفي على القس. أما الأقباط في المقابل, فيعتادون الاعتراف بهوية كاملة, وجها لوجه. والمبدأ المهم لدى الجميع هو ضرورة السرية التامة لمن يستمع. فالقانون يحدد أنه يحظر على رجل الدين أن يكشف ما كشفه له المؤمن, حتى وإن تعرض للتهديد أو الضغوط الشديدة.

بدأ المؤمنون المسيحيون في السنوات الأخيرة التصرف مثل جيرانهم المسلمين في الشئون الدينية والتشريعية اليومية. فهم يتوجهون إلى القساوسة أصحاب المواقع على الإنترنت, أو يعترفون بأخطائهم في غرف الحوار في الشبكة. ويقوم البعض ببساطة بالاتصال بالكنيسة أو بالقساوسة, ويفضفضون معهم ويطلبون النصيحة. ولا يفضل القساوسة أو محررو المواقع عدم الإجابة عليهم، ومن هنا ظهرت ظاهرة جديدة.

وعن هذه الظاهرة قال البابا شنودة الثالث "إن الاعتراف جزء من أسرار الكنيسة, لكن الإنترنت لا يسمح بوجود أسرار." ، "لو رأى الآخرون الاعتراف, فإن السرية قد انعدمت."

يعتبر البابا المسن أحد كبار الزعماء الدينيين في مصر. فهو شخصية رفيعة, وهو الأب الروحي والسياسي للمسيحيين الأقباط في العالم كله, ليس فقط في بلاد النيل. فالكنيسة القبطية, في قلب القاهرة, تعتبر أكبر الكنائس الشرقية. ويبلغ عدد أقباط مصر حوالي ثمانية ملايين نسمة على الأقل, يمثلون حوالي عشرة بالمائة من السكان. وحياتهم كأقلية ليست سهلة حيث تعرضوا

---

[3] توفي في 17 مارس 2012 (المترجم)

في بعض الأوقات للاضطهاد من جيرانهم المسلمين؛ من عمليات اغتيالات وخطف للنساء واغتصابهن وتغيير ديانتهن وذلك جزء من واقع حياتهم المر. وفي أول يوم من عام 2011 شهدوا أصعب كارثة ، هي كارثة تفجير كنيسة القدسين في الإسكندرية ما خلف 23 قتيلا من أبناء الطائفة أثناء خروجهم من الصلاة في الكنيسة.

اضطر البابا شنودة الثالث للمناورة عبر طرق السياسة الشائكة للقاهرة وبين الأجهزة الأمنية, حيث حكومة غير مكترثة ومؤسسة إسلامية لاذعة, من أجل إنقاذ طائفته من حكم آخر أو تآمر. وقد ساندە اللوبي القبطي الصلب في واشنطن, الذي نجح في بعض الأحوال في التأثير على أعضاء الكونجرس لإجبار الحكومة المصرية على حسن معاملة الأقلية المسيحية؛ لكن حتى أفضل وسيط قبطي في أمريكا لم ينجح في الدفاع عن أخيه المصري, الذي حرم من المنافسة على الوظائف الحكومية فقط بسبب دينه.

رغم كل ذلك, لم يفقد شنودة ثقته في نفسه عندما جاء لوعظ جمهور المؤمنين حول عادة الاعتراف. ففي الوقت الذي نصحهم بالامتناع عن استخدام شبكة الإنترنت لهذا الغرض, استفز الأخ الأكبر قليلا. وقد قال "محظور الاعتراف عبر الهاتف" "هناك احتمال أن تكون مراقبا, وتصل الاعترافات للأجهزة الأمنية."

الفصل الثاني

الإعلام و الديمقراطية

خطوتان للأمام، وخطوة للخلف

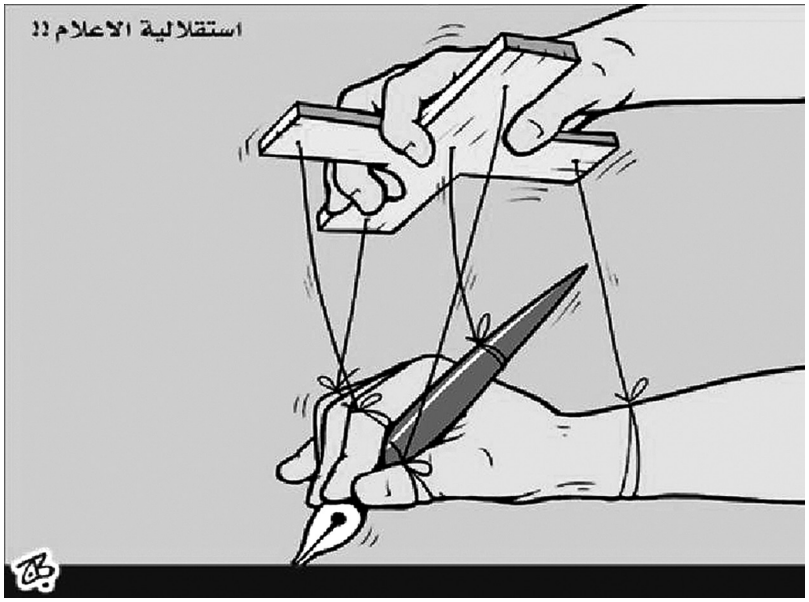

لقد ولت أيام القنوات والصحف الحكومية وعيون رجال المخابرات مفتوحة, وأصبحت مهمتهم أصعب من ذي قبل, لكنهم لا يستسلمون بسهولة، حيث تقرق الصحف الخاصة, والمدونات الجريئة, ومواقع الإنترنت الناس بالمعلومات.

في الوقت الذي استبد فيه النظام المصري بالمواطنين وقمعهم، تعتبر إسرائيل النموذج والقدوة، فهي تحترم حقوق الإنسان. ففي إسرائيل تعمل أجهزة النظام لصالح الدولة، وليس لصالح شخص آخر. علاوة على أنهم اعتادوا في مصر الاختلاس، والرشوة، والفساد، والبلطجة، دائما وكل يوم، أما في إسرائيل فنادرا ما تسمع عن ذلك.

المتصفح ميدو (محمد)

رد في موقع جريدة المصري اليوم 2009/03/10

من استمع في الماضي إلى صرخة مواطن ينتقد النظام الحاكم بمفرده؟ من سمح له في الأصل بأن يسمع صوته؟ كانت حرية التعبير دائما جزءا من اهتمامات رجال المخابرات. قالوا عن الرئيس المصري جمال عبد الناصر أنه رأس "دولة الأشرطة". كان ذلك لقب أجهزة التصنت المتطورة، على الطراز الروسي، التي أقامها عبد الناصر في الفترة التى اعتبرت فيها مصر زعيمة العالم العربي؛ حيث قام من خلالها بالتجسس على كبار رجال النظام، والسياسة، والمواطنين المشتبه بهم. أما اليوم فلا حاجة إلى وسائل متطورة لكشف طرق تفكير الشخص. فمن يرغب في ذلك يقوم بالاتصال بأحد استوديوهات محطة تلفزيونية ويعرب عن آرائه - التي ألقي والده وعمه في السجن بسببها.

قناة الجزيرة إحدى القنوات التلفزيونية صاحبة أعلى نسبة مشاهدة بين متحدثي اللغة العربية، غير أنها ليست الوحيدة, فهناك أكثر من ألف محطة تلفزيونية باللغة العربية تبث يوميا لمئات الملايين من المشاهدين. هناك محطات متخصصة في الأخبار, وقنوات للأفلام، وقنوات للأطفال، ومجموعة متنوعة من القنوات الرياضية، وقنوات للكليبات الغنائية، وقنوات دينية كثيرة؛ وهناك قنوات تبث على مدى 24 ساعة يوميا إعلانات عقارات. كما أننا لم نذكر الصحف؛ فهناك مئات الصحف تصدر يوميا –حكومية وخاصة، ومعارضة؛ مثل التي تصدر من داخل الدول العربية، وغيرها, لغتها عربية لكنها تصدر في الغرب. وهناك من العائلات المالكة، وأصحاب الثروات، والحركات السياسية من يصدرون صحفا، أو يطلقون محطة تلفزيونية خاصة بهم؛ ولا توجد صحيفة ليس لها موقع إلكتروني على شبكة الإنترنت، يتم تحديثه يوميا.

كانت ثورة الأقمار الصناعية أحد أبرز صور الديمقراطية في المجتمع العربي في نهاية القرن العشرين. فقد أظهرت للجميع إلى أي مدى المواطن غير محاط بضباب معلوماتي. فعندما ثار ذلك المواطن على ظلم النظام الحاكم في القاهرة، كان هناك من علم بذلك في دمشق، وبغداد، وعمان، والرباط، وأعربوا عن التضامن معه.

قبل أن ينفتح العرب على الديمقراطية على غرار النموذج الغربي، وتبنوا بعضها، كان للإسلام النموذج الخاص به للتعددية الاجتماعية ألا وهو مبدأ "الشورى".

ففي سورة "الشورى" الآية 38، نجد أن الله تبارك وتعالى يعد الخير كله لهؤلاء: "إن تعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور". وكذلك في سورة "آل عمران" آية 159, يطالب الله سبحانه وتعالى النبي بإظهار العفو تجاه المؤمنين ويأمره: "فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين".

إن الشورى هو النموذج الإسلامي للجنة أو مجلس الوزراء المصغر. وهذا المبدأ يأمر القائد بالتعاون مع وزرائه ومستشاريه في القرارات التي يصدرها، لكنه لا يدعو إلى إشراك الشعب كله ولا يمنحه الحق في اختيار زعيمه. إن فكرة البرلمان وحق الاختيار التي مصدرها الديمقراطية الغربية، قد ورثتها الدول العربية في القرن العشرين. ورغم ذلك، فإن السعودية على سبيل المثال ليس لمواطنيها الحق في اختيار ممثليهم عبر صناديق الاقتراع؛ فالملك يعين مجلس شورى عائلي ، وبالطبع يضم المجلس بين أعضائه عشرات الأمراء من أبناء وأحفاد مؤسس المملكة وهم يقومون باختياره من بينهم.

بعد تفجيرات 11 سبتمبر هبت الولايات المتحدة لفرض الديمقراطية على شعوب الشرق الأوسط. ولقد كان مخططا متبجحا قوبل من البداية بالمعارضة العربية القوية. لكن مع التسليم بفشل مبادرة تغيير الآخر، فقد نجح الأمريكيون في إثارة تساؤلات حقيقية وفي تحريك عملية التفكير لدى العرب. وبدأ الكثيرون يتساءلون إن كان الوقت لم يحن بعد للمواطن (وزوجته,

وأخته, وابنته) للاستمتاع بالقيم الأساسية التي سلبت منه مثل: حرية اختيار زعمائه. ولقد دار هذا الحوار على شاشات التلفزيون وعلى صفحات الجرائد.

إن كانت الرقابة قد فرضت في الماضي على برامج المحطات التلفزيونية، أو على الصحف، فقد أصبح الأمر اليوم أصعب بكثير. ومن يكمم فيه، من من حقه أن يؤسس صحيفة أو محطة تلفزيونية في الغرب ويتوجه عبرها إلى أخوانه في الوطن. هكذا ظهر الرأي العام الفعال، وأصبح الشعب جزءا يجب الاهتمام به. لقد كانت المعرفة هي القوة، وأصبحت القوة أداة ضغط. ولاعتبارهم أن ذلك أمر جيد، بدأ مشكلو الرأي العام في تخفيف القيود وتناول قضايا كان محظور تناولها مثل: العنف في الأسرة، فساد نظام الحكم، حرية التعبير، مكانة الدين في الحياة السياسية، الشذوذ الجنسي؛ حيث أصبح كل ذلك محل نقاش.

وآخر من لحق بركب التغييرات هم ممثلو النظام الحاكم، الذين اعتادوا, على مدى عشرات السنين, توجيه المعلومات التي يتلقاها المواطن حسب أهوائهم. وعلى الرغم من رياح الليبرالية التي تهب على الشرق الأوسط، فمازال هدوء الصحفيين والمدونين يخترق بتوجه لطيف من قبل ضباط الأمن الذين يقومون باستدعائهم لاستيضاح ما كتبوه.

لقد كشف الاستطلاع الذي قام به مركز الدفاع عن حرية الصحفيين في عام عام 2009 أن 95.5% منهم يقومون برقابة ذاتية من نوع ما على مضمون الرسالة التي يوجهونها للشعب. وقال 550 صحفيا ممن شاركوا في الاستطلاع إن الرقابة في نظرهم هي الامتناع عن كتابة أو إذاعة معلومات تمس المشاعر الدينية، وتخالف القانون والتقاليد, أو تتناول الأمور الجنسية.

العضو الثالث والعشرون في الجامعة العربية

يزعم في وزارة الخارجية الإسرائيلية أن إسرائيل لها شأن ليس مع محطة تلفزيونية لكن مع كتيبة مدرعة. حاولوا مرات عدة التضييق على خطواتها عبر تجميد التصاريح الصحفية الحكومية لمراسليها، ومنعهم من حضور المناسبات الرسمية، غير أن هذه المبادرات لم تؤثر على نسبة مشاهديها المرتفعة.

لم تعد الجزيرة قناة إخبارية فقط، فهي نقابة إعلامية يصل إرسالها إلى كل ركن في العالم به جهاز استقبال الأقمار الصناعية. وبأسلوبها الديناميكي, الأصفر في بعض الأحوال, تقوم القناة،

التي يمتلك معظمها الأمير القطري حمد بن جاسم آل ثاني, بتوجيه نظام الحياة اليومي لعشرات الملايين من المشاهدين وكذلك حكامهم، فهي مثل الدولة العضو الثالث والعشرون في جامعة الدول العربية, وربما كانت الأكثر صوتا وتأثيرا من الجميع. وفي الاستطلاع الذي أجراه مركز الدراسات الاستراتيجية التابع للجامعة الأردنية في ديسمبر 2010، ذكر أن 59% من الأردنيين يرون أن قناة الجزيرة بالنسبة لهم أكثر مصدر موثوق للأخبار في المجال السياسي العربي. ولقد سبقت هذه القناة التلفزيون الأردني بفارق كبير (11%), ومنافستها قناة العربية.

إن الإسهام التاريخي لقناة الجزيرة من أجل دفع الحوار السياسي المنفتح بين العرب وبين أنفسهم أمر لا شك فيه. وإن محرريها قد ورثوا الشعب الشعار الشائك "الرأي والرأي الآخر", الذي يعني تطبيقه العملي إعطاء الفرصة للأصوات التي لا تمثل النظام الحاكم. ولقد كانت تلك فكرة جديدة في الطابع السياسي العام في فترة التسعينيات، في الوقت الذي كان فيه الإعلام العربي كله موال للدولة أو يعمل من قبلها. علاوة على ذلك قدمت القناة أسلوبا متميزا في تقديم الأخبار -تقارير بقدر معين- مليء بالأدرنالين, اعتبر النبأ الإخباري المهم والمثير أنه الحدث الأهم, بدلا من البيانات الصحفية لمكتب الرئيس أو الملك. كما طورت الجزيرة الأسلوب الذي قدمته للإعلام قناة MBC السعودية حول إعطاء حق الكلام للمشاهدين الذين يقومون بالاتصال بالاستوديو.

أظهر مراسلو القناة شجاعة مهنية في أماكن فشلت فيها حتى الحكومات. ذلك عندما فرضت القوات الأمريكية الحصار على مدينة الفلوجة، وأمطرتها بالقذائف الصاروخية بدون رحمة أو هوادة، ونشرت أنباء عن إصابة أوكار الإرهاب, في الوقت الذي كان فيه مراسلو الجزيرة هم الصحفيين الوحيدين الذين تسللوا إلى الداخل وسربوا صورا وقت القتلى من العائلات مع أطفالها. استمر الاتجاه الانتقادي لواشنطن حتى بعد أن أطلق الجيش الأمريكي في العراق صاروخا تجاه مكتب القناة وقتل صحفيا.

ساهمت المحطة كثيرا, إلى جانب التقارير الإخبارية, في توثيق التاريخ السياسي للعرب في النصف الثاني من القرن العشرين؛ فقد وفرت برامجها التي كانت تذاع أسبوعيا على القناة المنبر لرجال كانوا مشاركين في الأحداث الكبرى التي شهدتها المنطقة في حقبة الخمسينيات, والستينيات, والسبعينيات الحافلة بالأحداث. وأبرز نموذج على ذلك الصحفي محمد حسنين

هيكل, أمين سر الرئيس المصري جمال عبد الناصر. كان هيكل في الماضي رئيس تحرير صحيفة الأهرام قد حصل على برنامج أسبوعي خاص به، حكى فيه أمام العدسات ذكرياته بالتفصيل حول الفترة التي قضاها بجوار الرئيس عبد الناصر. ولقد وضع كشفه، الفاضح أحيانا، أمام المشاهدين الصورة المثيرة حول علاقات القوى في العالم العربي في فترة الحرب الباردة.

ورغم كل ذلك فقد تلقت القناة انتقادا لنواقص في أدائها واعتبارات أجنبية في سياسة استطلاعها للأحداث. فمحرروها الذين رفعوا راية تقديم التقارير المعتدلة، وحرية التعبير، قد قللوا من توفير المساحة للشؤون الداخلية لدولة قطر, بذريعة أن ذلك لا يهم مشاهديها. وبعد تفجيرات 11 سبتمبر خدمت المحطة, بولاء كبير, زعيم القاعدة أسامة بن لادن من خلال عرض الشرائط التي سجلها سرا ووعد فيها بمواصلة طريقه العنيف، كما أكثرت قطر من إذاعة الشرائط التي مصدرها الدوائر الإرهابية في الحرب العراقية, التي وثقت العمليات الانتحارية أو مشاهد الاغتيالات الصعبة للرهائن. وفي حرب لبنان الثانية ساندت الجزيرة حزب الله بشكل تام، بل إنها أذاعت بيانات مسجلة للحزب اتضح فيما بعد أنها ليست ذات مصداقية. وفي الانتفاضة الثانية وفرت المنبر للفصائل الفلسطينية، بعد تنفيذ عملية انتحارية ضد الاسرائيليين. ولقد امتدح متحدثون من قبلهم "القنابل البشرية" ، اللقب الذي أطلق على الانتحاريين. وبعد كل ذلك ,اتهمت الجزيرة بتشجيعها لثقافة الاستشهاد.

لم يكن التأييد الذي أظهرته القناة للأصوليين سوى أداة في أيدي ملاكها من أجل حماية أنفسهم من الجماعات المسلحة. ربما لذلك السبب، وعلى الرغم من وجود قوات الجيش الأمريكي على أراضيها، لا تعتبر قطر من الدول العربية المتضررة من الجهاد.

إلى جانب الخط الأصولي - الأصفر الذي ميز إرسال الجزيرة، خاصة في العقد الأول لنشاطها، من الضروري أن نشير إلى أن رجالها عملوا في ظل قيود صعبة. ففي السعودية والعراق والبحرين تم حظر عملهم؛ وفي الأردن وتونس تم حظرهم لعدة سنوات؛ وفي مصر كانوا تحت الرقابة اليومية؛ وفي دمشق، في المقابل، سمح لهم بالعمل، شريطة ألا يقتربوا أكثر من اللازم من الساحة السياسية أو الأمنية، أو ينتقدوا النظام. رغم كل ذلك فلا توجد هيئة إعلامية

نجحت في أن تحدد للعرب جدول أعمالهم مثل قناة الجزيرة. وهو ما لم يتماشى دائما مع مصالح متخذي القرار.

بمناسبة مرور عشر سنوات على إنشاء المحطة اجتمع وزراء إعلام الجامعة العربية وحاولوا إيجاد طريقة للتضييق على الجزيرة. فوضعت لجنة خبراء تابعة لهم "القواعد الأخلاقية للبث عبر القنوات الفضائية", دون الإشارة صراحة إلى قناة الجزيرة. وأوصت الوثيقة هيئات تحرير القنوات التلفزيونية بتبني أسلوب لا يضر بالوحدة الوطنية, ويحترم القيادات والرموز الوطنية والدينية ولا يحرض على العنف – إلا إذا كان ذلك بالطبع ضد الاحتلال. لقد كان واضحا للجميع أنه, تحت غطاء ميثاق الشرف الذي وضعه الوزراء, يوجد تحالف ضد ما تمثله الجزيرة. ورغم أن الحديث لم يكن عن مشروع قانون, إلا أن القطريين أدركوا أن هناك فخا ينصب لهم، وحاولوا إفشال المبادرة ومنع تحويلها إلى موقف رسمي للجامعة العربية. فمن وراء الصياغة, الجافة, التي تدعو إلى احترام القيم الأساسية يمكن أن تكمن سلسلة من القوانين واللوائح، يعاقب من خلالها أي صحفي ينتقد حكامه. وبعد التصديق عليه، تستطيع بعض الحكومات العربية أن تستقي من هذه الوثيقة الشرعية وتحو ِل بعض بنودها إلى قوانين, أو التمسك بها من أجل مطاردة الصحفيين.

من الممكن اتهام وزراء الإعلام برؤية غير ديمقراطية. ما العجب في ذلك؟ فهم تم تعيينهم من أجل الحفاظ على الإعلام من فرط الحماس. لكن يجب أن نتذكر في أي واقع من التحديات يعملون. فبعد أيام من اجتماعهم في القاهرة عقد خالد مشعل, من كبار قيادات حماس, مؤتمرا صحفيا في دمشق. ومن فوق رؤوس الحكومات والرؤساء، دعا الجماهير في الدول العربية إلى الخروج إلى الشوارع. ففي تلك الأيام عمل الجيش الإسرائيلي في غزة, في إحدى العمليات العسكرية, وأمطر المناطق التي اختبأ فيها مطلقو صواريخ القسام بالصواريخ. وعلى الأرض كانت هناك مناظر قاسية.

قال مشعل في بث مباشر "لقد حان الوقت, في هذه اللحظة التاريخية التي يرانا فيها الله ونحن محل ابتلاء بأن نتحد من جديد.... أنا أدعو الشعوب إلى الخروج إلى الشوارع، لخرجوا إلى

الشارع العربي والإسلامي في المشرق, والمغرب، وفي الشتات. قولوا للعالم – لن نسكت على النكبة الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني."

لم يحظ هذا النداء, في حقيقة الأمر, بالتأييد حيث خرج بضع المئات للتظاهر، لكن, وضع أيضا مقترح وزراء الإعلام في الأدراج ولم يرق إلى مستوى وثيقة رسمية.

واقع أم خيال

سيذكر عام 2003 بأنه العام الذي انتصر فيه التلفزيون في العالم العربي على السياسة؛ وذلك ليس بفضل تحقيق لا ينسى أو سلسلة تقارير أحدثت تغييرا في الرأي العام لكن بسبب برامج الواقع .

فقبل أقل من عقد كانت الشاشة الصغيرة لا تزال تزود مشاهديها ببرامج يتحكم فيها الصحفيون بإيعاز من الحكام. ومنذ منتصف التسعينيات ظهرت لأول مرة القنوات الإخبارية على غرار النموذج الغربي، مثل قناة الجزيرة وMBC, وقدمت للمشاهدين معلومات حديثة ومثيرة وأحيانا فاضحة, من النوع الذي لم يعمل فيها الرقيب مقصه. ولقد دفع عام 2003 الجميع إلى المرحلة الثالثة: العالم الذي فيه الملك هو شاب صغير ووسيم يستطيع الغناء.

من السعودية وحتى الجزائر, ومن الكويت وحتى المغرب, جلس ملايين المشاهدين أمام الشاشة الصغيرة يتابعون الأسئلة التي ارتبط بها مصيرهم, مثل: من سيفوز في المنافسة بين المرشح الفلسطيني والليبي؟ ولماذا فشل ملحم زين, محبوب الجماهير اللبنانية؟ وكيف جرؤت عائشة التونسية على قول لا للوساطة في بث مباشر أمام ملايين المشاهدين.

كان الشكل معروف لمشاهدي التلفزيون في جميع أنحاء العالم, لكن التواصل المحلي صنع الفرق. ففي "ستار أكاديمي" أغلق على 16 فتى وفتاة في فيلا بجوار بيروت. ووضعت عشرات الكاميرات في جميع أركان البيت, وأذيع في بث مباشر ما يحدث 24 ساعة في اليوم، على قناة فضائية خاصة أنشأت خصيصا لهذا الغرض. وعلى مدى أيام الأسبوع قدم لهم أفضل الفنانين اللبنانيين ورش عمل في فروع مختلفة من فنون خشبة المسرح. وفي مساء يوم الجمعة قدم المتنافسون العرض الأسبوعي, إنتاج ضخم مليء بالنجوم, وفي ذروته يتم استبعاد أحد

المتنافسين في تصويت للجنة الحكام والجمهور معا. وفي إحدى الليالي قام المشاركون بغناء "ذات الرداء الأحمر", مع المغني الأصلي للأغنية كريس دي برج.

تخطى برنامج ستار أكاديمي كل توقعات نسب المشاهدة، وفي أحد مواسمه الأولى ذكرت شركات المحمول أن 65 مليون رسالة قصيرة أرسلت للبرنامج أثناء إذاعته. 23 مليون رسالة من مصر, 18.5 مليون رسالة من لبنان, و17 مليون رسالة من سوريا.

قالت مها من السعودية "نحن نشاهد البرنامج طوال اليوم... وقامت إحدى صديقاتي بضبط أوقات استيقاظها على الوقت الذي يستيقظ فيه طلاب الأكاديمية. كما تحاول القيام بما يطلب منهم من فروض من أجل تحسين صوتها وقدراتها البدنية."

"سوبر ستار", الإصدار العربي لبرنامج "مولد نجم" الإسرائيلي، الذي أصبح مصنع إنتاج النجوم, لكن أيضا ساحة للتعبير عن المشاعر الوطنية, فقد استعد ملايين المشاهدين لإفشال عامر حسن, المغني من قرية سلفيت بجوار مستوطنة أريئيل, عندما وصل إلى قبل النهائي أمام الليبي أيمن العطار. ولم تساعد حسن تمنيات ياسر عرفات, المحاصر في ذلك الوقت في المقاطعة في رام الله, فالشارع اللبناني والسوري لم يرغبا في فوز فلسطين.

"الرئيس", هو النسخة العربية من البرنامج الإسرائيلي "الأخ الأكبر", الذي جمع 12 شابا وفتاة في داخل فيلا على شاطيء في البحرين,, تم فيها 36 كاميرا. لكن كان صعبا على الدوائر المحافظة في المملكة مشاهدة الشباب والفتيات معا في نفس الفيلا بتشجيع من المشاهدين, كما ارتعدوا لسماع أن أحد الشباب قام بتقبيل فتاة على وجنتها. لم تكفهم وعود طاقم إعداد البرنامج بأن أماكن مبيت الفتيات بعيدة عن الرجال, وأنه أقيمت في داخل الفيلا غرفة للصلاة. اندلعت بعض التظاهرات الاحتجاجية بالقرب من الفيلا, وكان هناك هياج في البرلمان بسبب الموضوع.

وقالت نساء محجبات غاضبات تجمعن خارج الفيلا "إن أبنائنا ليسوا بضاعة رخيصة". ولم تساعد أقوال الدوائر الاقتصادية والليبراليين بأن البرنامج يعول 216 عاملا وأسرة, ويدر حوالي ستة ملايين دولار للخزانة العامة. لم يحتمل القصر الملكي الضغوط، وبعد يومين من إذاعة البرنامج سحبت الحكومة الترخيص الممنوح للإنتاج, وألغت البرنامج بدون عودة.

"ع الهوا سوا", برنامج مماثل للبرنامج الاسرائيلي "الأعزب" – الذي حظي بنجاح كبير جدا في إسرائيل. ثماني فتيات نحيلات في بنطلونات جينز ضيقة تتنافس على رجل واحد. وبعد ثلاثة شهور وصلت اثنتان إلى خط النهاية. نالت عائشة تشجيع الجماهير, لكنها بعد أن اختبرت حسام قليلا, الشاب المصري الذي أحضره الإعداد لها, قررت إنها لا تريد الزواج. وانتقل التاج إلى وصيفتها مرفت التي تزوجت على حساب الإنتاج وسافرت مع زوجها لقضاء شهر العسل في ماليزيا.

كل دولة تقريبا أرسلت ممثلين لها في مثل هذه البرامج, واستضافت المشاركين فيها, مما أثار حفيظة رجال الدين. وتكررت مرارا وتكرارا نظرية المؤامرة حول تزاوج المال السعودي والعقل اللبناني من أجل إفساد الأجيال الجديدة. بل إن وليد طبطبائي, عضو البرلمان الكويتي عن التكتل الإسلامي, قد ناشد شباب الإمارة عدم البحث عن حظه في برنامج "ستار أكاديمي". وقال "إن تجنيد المتنافسين للبرنامج يدمر القيم والأخلاق بصورة لا تختلف عن تجنيدهم للإرهاب أو توزيع المخدرات".

أما البرنامج الذي نجا من الانتقاد هو برنامج "ع الهوا سوا" رغم أنه دخل إلى داخل العائلة, قدس أقداس المجتمع العربي، وذلك على عكس البرامج الأخرى التي حرص منتجوها على منع التقارب بين الزوجين قبل إتمام عملية الزواج. رغم كل ذلك، فإنه قبل أن تخبو بعد موسمين أو ثلاثة مواسم شيقة بشكل خاص, وأن تفسح المجال للتالي نوفيلا, فقد منحت البرامج الواقعية مشاهديها الشعور بالديمقراطية الحقيقية. حيث منحت المواطن البسيط, بعد عشرات السنين قامت فيها الدولة بتحديد من سيكونون زعماؤها وممثليه بل وآرائه, الحق في اختيار أبطاله بنفسه. حقيقي أن هؤلاء لا يزالون أبطال الثقافة والتسلية, لكن الشعور بالحرية له حق الوجود خارج النطاق السياسي ومن يستنشق الهواء النظيف، سيستمتع به حتى لو بيدين مكبلتين.

لقد كتبت الصحفية السعودية الدكتورة بدرية البشر " لدينا دائما ما نقوله عن شيء كبير يحدث في ثقافتنا", "لكن برنامج مثل "ستار أكاديمي" هو تعبير عن التعددية التلفزيونية. إن حرية التعبير بشكلها العادل أفضل من غلق كل السبل من أي نوع كانت."

وأظهرت البرامج الواقعية مدى نجاح القنوات الفضائية في القضاء على "الديوان" الذي اعتاد العرب التجمع فيه مساء, وتدخين النرجيلة والحديث عن شؤون الحياة اليومية. فالجلوس على أرض الديوان عادة أصلها من عصر ما قبل الاسلام, أوجدها الرجال من أجلهم. وفي مقابلها نجد التلفزيون، النيران الجديدة للقبيلة, قد فتح الصالون أمام الجميع.

كلمة محاضر

أصبحت أيضا مسلسلات التيلي نوفيلا في العقد الأخير من الألفينيات, وليس فقط برامج الواقعية, من الأشياء التي تلتف الأسرة حولها. فأكثر من أي توك شو سياسي آخر، أو مباراة كرة قدم مهمة أو خطاب زعيم, يتحدث الجميع عن النجوم التي خلقتها هذه المسلسلات. لذلك لا عجب في فرض عملية مؤلمة على المشاهد العربي, للتخلص هذا الإدمان في الأول من سبتمبر 2008. لكن اضطرت الملايين إلى الاعتياد على واقعهم الجديد: عصر ما بعد مسلسل "نور".

، أذيع مسلسل "نور" التركي, المدبلج إلى العربية, يوميا منذ بداية شهر أبريل من نفس العام وتابعته الأسر العربية بمختلف أعمارها. تدور قصة المسلسل حول عائلة ثرية من اسطنبول, الشخصية الرئيسية فيها هي مهند وزوجته الشابة نور. ظهر مهند على أنه الرجل الكامل الذي يدلل زوجته بطرق رومانسية حالمة؛ فاشترى لها سيارة, وأعد لها وجبة على شاطيء البحيرة, وفاجئها برحلات في خارج البلاد. وسرعان ما أصبح مهند الرجال المثالي بالنسبة لملايين المشاهدات في الدول العربية، مما جعلهن يعدن التفكير في علاقاتهن بأزواجهن.

كان مسلسل "نور" موجها في الأساس للمشاهد التركي، غير أنه لم يحظ بنفس نسب الإعجاب المرتفعة مثل التي حظي بها عند العرب. ومن اللحظة الأولى لإذاعته على قناة MBC الفضائية, التي يشاهدها العرب في جميع أنحاء العالم, تم تسجيل عدة حالات طلاق بسبب المسلسل. ومن هذه الحالات رجل سعودي طلق زوجته بعد أن قالت له "يكفيني ليلة واحدة مع مهند وأموت بعدها."

من الممكن تفهم لماذا خلق هذا المسلسل ردود أفعال مقيتة لدى كثير من الرجال, أدت بالبعض بأن يسخر من الشخصية الرومانسية للبطل. ليس فقط الرجال بل أيضا رجال الدين الذين قلقوا من مسلسل "نور" وإعجاب الجماهير بهذا المنتج التافه, ومن التقارب الجسدي بين

مهند ونور. أحدهم الشيخ حمدي المخزومي من مدينة حلب السورية, الذي حرم طباعة صور أبطال المسلسل على الملابس, بعد أن رأى الأطفال في المسجد يرتدون هذه الملابس.

كما اقترح زميله الشيخ أبو خالد, محاضر في الكلية الإسلامية بجوار دمشق, تمويل مقاطعة الجماهير. وقال أبو خالد لتلاميذه أن من يعلن أنه لا يشاهد المسلسل, سيحصل على مكافأة مالية من أموال الصدقات التي يتبرع بها الحجاج. وحكى عمر, تلميذ الشيخ, أن من استجاب لهذا المقترح طلب منه أن يقسم بالقرآن. لكن عمر اكتشف سرا آخر. "استجاب البعض بحماس", ثم قال, "لكن في رأيي لا يوجد أحد لا يشاهد المسلسل. حتى معلمنا نفسه."

برلمان لايت

تنافست 21 سيدة في عام 2008 في الانتخابات التشريعية لسلطنة عمان. وكان في البرلمان السابق له, الذي أجريت انتخاباته قبل ثلاث سنوات, سيدتان (من إجمالي 82 مقعدا). وكانت معظم التكهنات بأن هذا العدد سيتضاعف, وتحدث البعض عن عدد أكبر من ذلك؛ حيث كانت نسبة التصويت مرتفعة نسبيا – 62.7%, لكن بعد إحصاء الأصوات, وظهور النتائج كانت المفاجئة كبيرة: لم تنجح أي سيدة في دخول البرلمان. ذلك في ظل حقيقة أن عمان كانت أول إمارة خليجية تمنح السيدات, في عام 1994, حق التمثيل الانتخابي.

وبنظرة ثانية نجد أن المفاجئة لم تكن بهذا الحجم؛ ففشل السيدات في شغل مناصب تنفيذية في بداية العصر الديمقراطي قد ترسخ في تلك السنوات في الواقع البرلماني للدول العربية. وهذا ما حدث في الانتخابات البرلمانية المغربية, والانتخابات التشريعية البحرينية, والكويتية, وكذلك في التجربة الديمقراطية المحدودة التي سمح فيها للسيدات السعوديات – لأول مرة في تاريخ المملكة – باختيار من تمثلهن في المكتب التجاري لمدينة جدة.

ورغم الحديث النسائي المتنامي, لم تسرع النساء العربيات في ترشيح أنفسهن في الانتخابات, أو الذهاب إلى مراكز الاقتراع والتصويت, رغم منحهن هذا الحق وفقا للقانون. فمن المحتمل أنهن فضلن الرجال في المناصب الإدارية والتمثيلية، أو أن الرجال منعوهن من الانتخاب أو الترشح والتمتع بالحق الذي منحه إياهن رجال آخرون, خاصة أولئك الذين يسيطرون على مؤسسات الدولة. سبب آخر في هذا النظام؛ ففي مصر كبرى الدول العربية, فإن للمرأة الحق في الانتخاب

والترشح, مع ذلك يعاني الجنس النسائي من ضعف التمثيل في مجلس الشعب؛ فالنظام الانتخابي الإقليمي يجعل فرص المرأة التي تترشح أمام الرجل ضعيفة. وسيكون تغيير تركيب البرلمان المصري فقط عبر إقامة نظام انتخابي وفقا للقائمة الحزبية.

بدأ الحكام, في بعض الدول, خاصة دول الخليج, في تعيين النساء في المناصب الرفيعة في الدولة؛ ففي عمان نفسها, على سبيل المثال, قام السلطان بتعيين سيدتين في منصب وزير، كما أرسلت سيدتان إلى خارج البلاد في مناصب دبلوماسية رفيعة. كذلك الأمر في قطر والكويت، فقد تم تعيين السيدات في مناصب إدارية رفيعة في الوزارات الحكومية. وفي مصر اعتاد الرئيس تعيين عشرة أعضاء في البرلمان, من بينهم نساء وأقباط الذين عانوا هم أيضا بسبب النظام الانتخابي.

لمشاهدة نساء أكثر في البرلمانات, من الممكن التعزي بالنظام الذي نشأ في بغداد برعاية الأمريكيين. فوفقا لقانون الانتخابات فإن ثلث البرلمان العراقي مخصص للسيدات.

صدام يتقلب في علمه

22 يناير 2007 يوم تاريخي بالنسبة للعراقيين؛ ففي ذلك اليوم اتخذ البرلمان العراقي قرارا بإعادة تصميم العلم الوطني, الذي محا رموز نظام صدام حسين, فالنجوم الخضراء الثلاثة التي مثلت شعار حزب البعث "الوحدة, الحرية, الاشتراكية", تم محوها من العلم. وتغير شعار "الله أكبر" في المنتصف, الذي كتبه صدام بخط يده, بعد غزو الكويت, وتقرر أن يكتب بحروف مطبوعة. أما الألوان الثلاثة –الأسود, الأبيض, الأحمر- التي تمثل تيارات وأفكار التراث الإسلامي, فقد بقيت كما هي دون تغيير. ومن إجمالي 165 عضوا في الجلسة صوت 110 عضوا على هذا القرار الدرامي.

لم يتم التغيير بين عشية وضحاها, فمنذ سقوط نظام حكم البعث عام 2003 تخبط الساسة العراقيون حول مسألة العلم. وكان الأكراد هم من دفعوا إلى إجراء هذا التغيير؛ حيث زعموا، عن حق, أن هذا العلم رفعته القوات العراقية عندما قاموا بطرد أهلهم وذبحهم في مذابح جماعية. ومنذ أن حصل الأكراد على الحكم الذاتي في شمال العراق عام 1991 رفضوا

رفع علم صدام في المناسبات الرسمية أو في المؤسسات العامة لديهم, رغم كونه العلم الرسمي لدولتهم. وفضلوا علمهم –أزرق, أبيض, برتقالي-، الذي يشبه العلم الإسرائيلي بعض الشيء.

كان التصويت على تغيير العلم حدثا تاريخيا ليس فقط بسبب محو شعارات النظام السابق، فقد كان تعبيرا نادرا عن الإجماع الديمقراطي بين كل المعسكرات السياسية، وذلك في حد ذاته حدثا تاريخيا في بغداد ما بعد صدام.

ثمن الصوت

تحمس القليل من المواطنين الأردنيين يوم انتخابات مجلس النواب – البرلمان؛ ففي الدولة التي الملك فيها هو صاحب الكلمة الأخيرة، ويقوم بنفسه بتعيين وزراء الحكومة, وتبقي القليل من الصلاحيات في يد المجلس التشريعي, تكمن القوة الرئيسية للبرلمان, مثل معظم الدول العربية, ليس في القوة التشريعية التي لديه, وقدرته على الكون ساحة للتعبير عن المزاج العام لدى الشعب، وكذلك وسيلة لرجال السياسة لإظهار قدر من الاستقلالية التي بقيت لديهم، وفيه يعبرون عن آرائهم وينتقدون الحكومة بشكل لطيف (بدلا من انتقاد الحاكم بشكل مباشر). رغم ذلك يعلم الجميع أن القرار في المسائل المهمة هو في حقيقة الأمر في يد المواطن الأول (الملك)؛ الذي يستطيع إذا رغب حل البرلمان.

امتدحت عناوين الصحف في اليوم التالي للانتخابات العملية الديمقراطية؛ فعرضت الملك عبد الله الثاني وهو يزور باهتمام كبير إحدى المراكز الإلكترونية لإحصاء الأصوات، وشرحوا له كيف وصلت المرأة للبرلمان لأول مرة ، حيث فازت طبيبة أسنان من مدينة مادبا الأردنية بمقعد ، وليس بالتعيين ضمن المقاعد الستة المخصصة للسيدات من إجمالي 110 مقعدا.

وبما أن الأردن في الأصل عبارة عن مجموعة من القبائل, لذلك يكون ولاء المواطنين للعائلة أولا وليس للدولة. وهذا الواقع معروف جيدا في كثير من الدول العربية, ويعتبر تربة خصبة لعملية شراء الأصوات. فالمرشحون الميسورون يدفعون للناخبين, الذين يعرفون معظمهم, أو تربطهم بهم صلة دم, وبهذه الطريقة يحصلون على تأييدهم. ويتعامل الشعب بلا مبالاة مع النظام الحاكم, ويتشكك في نواياه البريئة, ويقلل من المشاركة في الانتخابات. ولقد كان من السهل إقناع الناخبين بالمتاجرة في أصواتهم بفضل الديمقراطية وبيعها لمن يدفع أكثر.

وغداة الانتخابات, كشفت صحيفة العرب اليوم أن المتنافسين دفعوا 15 دينارا للناخب الواحد كي يصوت من أجلهم. ولقد قفز هذا السعر, الذي عرض في ساعات الصباح, إلى 50 دينارا في المساء. لقد زارت مراسلة الصحيفة صناديق الاقتراع في عمان وسمعت من أصحاب حق التصويت أنهم جاءوا إلى المكان بحثا عن مرشحين مستعدين للدفع لهم لينتخبوهم. ولقد كانت السيدات المحجبات نجم هذا الحدث الكبير؛ حيث قمن بتقديم بطاقات الهوية الخاصة بهن للعناصر التابعة للمرشحين. وكان يصعب على أعضاء اللجان الانتخابية التمييز بين الصورة في بطاقة الهوية وبين الناخبة المتخفية.

وقد ذكرت الصحيفة "جاءت ربات البيوت إلى صناديق الاقتراع", و"قالت واحدة منهن وقفت خارج اللجنة الانتخابية, إنها تنتظر المرشح كي يعيد لها بطاقة الهوية."

على هذا الأساس ضعف تصريح وزير الداخلية عيد الفايز, الذي قال بعد إغلاق صناديق الاقتراع إن التصويت تم في شفافية تامة. وهدأ الجمهور قليلا "ضبطت حالتان فقط لشراء أصوات."

رغم ذلك لم يقف النظام القانوني مكتوف الأيدي. فقد قام هذا البرلمان بالتصديق على قانون يحظر دفع أو تلقي الرشاوى الانتخابية. كما أعطى المفتي عبد الكريم الخصواني ، أحد كبار رجال الدين في المؤسسة الأردنية, القانون الجديد صبغة دينية.

كما قال المفتي "يحرم على المسلم تلقي رشوة أو هدية في مقابل صوته أو لتأييد مرشح,", "كما يحرم على المرشح الدفع لأشخاص من أجل جمع أصوات لصالحه. فماذا ينتظر منه, إن كان يرى في المال أساس كل شيء, ويشتري الأصوات من الآخرين؟ ماذا ينتظر من مثله, لو أصبح يوما من متخذي القرارات؟"

لكل إوزة اسم

نشر موقع إخباري تونسي أن "سها" أرملة رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات، قد تزوجت بشاب محلي وسيم, ونشر اسم العريس الجديد, واتضح أنه صهر الرئيس التونسي زين العابدين بن علي -شقيق زوجته. لم تمر بضعة أسابيع إلا وتكتب صحيفة كويتية لقرائها أن الرئيس السوري بشار الأسد مر بوعكة صحية بعد محاولة اغتياله وتم إدخاله المستشفى. وفي موقع

إخباري عراقي كتب أن زعيم حزب الله، حسن نصر الله, قد سممه مجهولون ونجى بأعجوبة بفضل مهارة الأطباء الإيرانيين الذين تم إرسالهم إلى بيروت على وجه السرعة. سارع نصر الله, كعادته, إلى الحصول على التأييد له بفضل هذه الكذبة. فظهر في التلفزيون, وأنكر الشائعات وفي نفس الوقت اتهم إسرائيل بهذا التسريب. غير أن الأخبار الكاذبة استمرت في الانتشار في كل مكان.

كما ذكر موقع لبناني أن مجهولين نجحوا في قتل رئيس الموساد مائير دجان، عبر سيارة مفخخة ، وذلك أثناء زيارته للأردن. وأشار الخبر إلى أن ذلك يأتي انتقاما لقتل عماد مغنية المسؤول الكبير في حزب الله. كما ذكرت صحيفة كويتية أخرى أن السفير الإسرائيلي في القاهرة, إسحق لفانون, طرد من مطعم في حي المعادي الراقي بالقاهرة, أثناء تناوله وجبة الغداء في أحد أيام السبت. غير أن لفانون كان في ذلك السبت في إجازة في منزله بإسرائيل.

القصص الكاذبة تميز الصحافة العربية غير أن انتشارها أصبح أكثر سهولة في عصر الإنترنت والمواقع الإخبارية. كما أن الصحفيين الجيدين يفشلون أحيانا في الحصول على سبق صحفي, لكن إذا أخطأت الوسيلة الإعلامية فالمسؤلية يتحملها المحررون والمراسلون. هذه القصص يمكن رفض بعضها على الفور بالمنطق السليم أو تحقق بسيط من خلال مكالمة هاتفية بسيطة. فيصعب التصديق, على سبيل المثال, أن شخصية في مكانة رئيس الموساد يتم اغتيالها, ويتم إخفاء هذا الخبر ويكشف فقط في موقع إخباري لبناني يعلم القليلون بوجوده. ذلك أيضا فيما يتعلق بقصة سها عرفات، فاستيضاح بسيط في تونس أو لدى أفراد العائلة في رام الله, كان ليوضح كذب زواجها.

ليس مصادفة أن هذه القصص لا ينشرها الإعلام المؤسسي الجاد, الذي يحظى بثقة الجماهير العربية. فأعتقد أن صحيفة مثل "الحياة" لن تنشر خبرا كاذبا, وكذلك ليس منافستها "الشرق الأوسط"، والمحطات التلفزيونية الرائدة, مثل: العربية والجزيرة. كما أن الصحف القومية مثل "الأهرام" في مصر، أو "تشرين" في سوريا, من الممكن أن تكون منبرا لنشر أخبار عن آخرين من أجل الضجة الإعلامية أو للدعايا العامة للأنشطة الحكومية, لكن من النادر أن تنشر متعمدة معلومات كاذبة.

مع ذلك فكيف وصلت هذه القصص إلى النشر؟ إن التنافس الذي يكتنف الصحفيين, هو دافع رئيس في نشر قصص لا أساس لها من الصحة مثل التي أوردناها. وفي بعض الأحيان يكون وراء هذه التقارير الكاذبة اعتبارات غريبة. فسها عرفات يكرهها الكثيرون في تونس, خاصة بين دوائر منظمة التحرير الفلسطينية, ذلك منذ أن سكنت هناك مع ياسر عرفات قبل عودته إلى غزة. ولقد شنت الصحافة الكويتية حملة مستمرة ضد الأسد لتأييده صدام حسين وأنصاره في العراق. والموقع الذي يتوق إلى موت حسن نصر الله مقرب من السنة في العراق, كارهو الشيعة. والقصة عن السفير الاسرائيلي في القاهرة فهي واحدة من سلسلة التقارير الكاذبة عن إسحق لفانون التي نشرت في نفس الصحيفة بعد توليه مهام منصبه في بداية 2010. من الصعب العثور على تفسير مناسب لهذه التقارير, باستثناء الحاجة إلى الضجة الإعلامية, التي لن يحاسبه أحد عليها بعد نشرها.

إن من يقف وراء الموقع الذي قتل رئيس الموساد مائير دجان, قبل آوانه, هم اللبنانيون أنصار سوريا وحسن حزب الله. ولم يكن الهدف من وراء هذا النشر إسرائيل نهائيا بل إهانة الأردن. فمن قراءة القصة, التي لم تحدث أبدا, كان من المفترض أن يستنتج منها القاريء أن هناك علاقات وطيدة بين المملكة الهاشمية والموساد الاسرائيلي. فالموساد في نظر معظم العرب منظمة استغلالية, والذراع الطولى للكيان الصهيوني. لكن ماذا إذا لم يكن لهذه القصة أي أساس من الصحة؟ ، فقد أراد المسؤول عنها إحراج الملك الأردني والإشاعة بين الناس أن له علاقات متشعبة مع الأعداء المرفوضين.

التساهل غير المحتمل للهراء

إليكم قصة أخرى عن تصفية حسابات كويتية سورية. المدير السابق للجمارك السورية, حسن مخلوف, ساعد الموساد في اغتيال المسؤول البارز في الجناح العسكري لحزب الله، عماد،مغنية. هذا الخبر الذي نشرته صحيفة الرأي الكويتية خبر كاذب، لكنه أثار نوعا من الاهتمام في الاعلام الإسرائيلي. فمن لا يحب قصص الموساد الناجحة.

كان مصدر الخبر, مثلما زعمت الصحيفة, دبلوماسي غربي موجود في دمشق. فعلى حد قوله, فإنه فور عملية اغتيال،مغنية الغامضة, التى وقعت على الأراضي السورية في 12 من فبراير

2008, بدأت المخابرات السورية التحقيق فيه. وكشفت الأدلة أن مخلوف أمر رجاله في أحد المعابر الحدودية, الذي استخدمه رجال الموساد على ما يبدو, في عدم تشديد الرقابة عليه في هذا اليوم. وحسب تعليماته، فقد بقي في المعبر رجل واحد فقط لم يستطع تحمل ضغط الحركة في المعبر. بذلك نجح المغتالون في الهرب بسهولة كبيرة خارج أرض الوطن. ولقد قال ذلك الدبلوماسي عن مساعدته السخية, أن مخلوف حصل على ثلاثة ملايين دولار. كما ذكر أن المغتالين كانوا إسرائيليين من أصول عراقية, يتحدثون العربية منذ طفولتهم ويحملون جوازات سفر عراقية.

بالعودة إلى أرض الواقع, نجد أن مخلوف قد أُقيل من وظيفته بعد أن تم كشف تلقيه رشوة كبيرة من المهربين في المعابر الحدودية. وجمع على مدى سنوات ثروة طائلة غير شرعية, اشترى من خلالها 137 عقارا, قام بتسجيلها باسم زوجته وأبنائه الخمسة ووالديه وأخوته الخمسة.

لم تكن هذه المرة الأولى التي "تكشف" فيها الصحف الكويتية -في أخبار مكذوبة- عورة الحكومة السورية أو حلفائها في لبنان. وهذه الحملة الرئيسة أدارتها صحيفة السياسة التي تمثل الفرع المعادي لسوريا في الكويت، ذلك على عكس الصحف الأخرى في الإمارة التي أيدت النظام السوري.

فعلى سبيل المثال, بعد تفجير مستودعات السلاح في جنوب لبنان, التي كانت تخص حزب الله, زعمت جريدة السياسة أن خبراء اليونيفيل, وجدوا في مكان الحادث علامات على وجود مادة كيميائة مشتبه بها. وفي اليونيفيل سخروا من ذلك وأنكروا الخبر تماما. قبل ذلك زعمت الصحيفة أن خالد مشعل قد أطاح بموسى أبو مرزوق, نائبه القديم في قيادة المكتب السياسي لحركة حماس في دمشق, وعين شخصا آخر. واتضح فيما بعد أنه خبر لا أساس له من الصحة. فقد استمر موسى أبو مرزوق في تمثيل سيده، بل إنه قام ببعض المهام المهمة من أجل دفع المفاوضات لإطلاق سلاح أسرى فلسطينيين في مقابل الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط.

واصلت جريدة السياسة بيع الوهم للجماهير،وهم لم يكن ليخزي جون لاكارا[4]. وبعد فتح تحقيق دولي في اغتيال الزعيم اللبناني رفيق الحريري, زعمت الصحيفة أن فرنسا, وبريطانيا, والولايات المتحدة قد خططوا لإبعاد الرئيس السوري عن منصبه وتعيين شخصا آخر مكانه. كما زعمت الصحيفة أن زوجته أسماء, قد وصلت إلى بيت أختها في لندن, استعدادا لترك العائلة لدمشق. بعد ذلك تباهى المحررون بنشر تفاصيل حول حجم التوغل الشيعي في سوريا, التى أظهرت ضعف النظام السوري في مواجهة هذا التآمر الإيراني. وأضافت جريدة السياسة فيما بعد أن حـزب الله قد شكل في سوريا خلايا سرية, استعدادا لليوم الذي سيجرؤ فيه الرئيس الأسد على التوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل؛ ففي هذه الحالة, قالت الجريدة, سيتم الاطاحة بالرئيس.

تقف وراء الحملة المعادية لسوريا سياسة ضيقة الأفق. فالكويتيون المذعورون من احتلال العراق لهم عام 1990, لديهم حساب كبير مع نظام البعث التابع لصدام حسين. فقد فرحوا بسقوطه, لكنهم اضطروا إلى مشاهدة كيف واصل أتباعه شن حرب على محرري بغداد الأمريكيين، وحلفائهم العراقيين الجدد. لقد تم حل الجيش العراقي بعد عصر صدام حسين, ووجد ضباطه أنفسهم بدون مصدر للرزق. وفي أزمتهم وجهوا كل معرفتهم ومستودعات السلاح ضد المحتل الأجنبي. وارتدى كثير منهم عباءة الجهاد. وعلى الرغم من عدم كونهم متدينين, إلا أنهم شكلوا منظمات متطرفة, قاموا بتنفيذ أقسى العمليات الانتحارية.

ما علاقة سوريا بذلك؟ منحت سوريا المأوى للموالين لصدام بعد سقوط نظام البعث. كما أن نظام مخابرات الأسد أمدهم بالسلاح والمال والتدريبات العسكرية, مما ساعد المتمردين في مقاومتهم لبناة البلاد الجدد. بذلك أصبحت سوريا ركيزة أساسية في زعزعة الوضع الأمني في العراق وشكلت تهديدا على مختلف جيرانها بما فيهم الكويت.

لم توضع مصلحة القاريء في الحسبان في معركة تشويه وجه الرئيس السوري. فماذا في قراءة بعض الهراء على وجبة الافطار.

---

[4] كاتب روايات جاسوسية (المترجم)

مسيرة فخرية لرجل واحد

نبيل فياض باحث سوري متخصص في شؤون الأقليات, استيقظ ذات صباح واكتشف أنه عدو الشعب. فقد دعت مجلة ذات طابع إسلامي قرائها إلى التبول عليه، بهذه الكلمات بالضبط. كان خطؤه أنه كتب مقالا ضد رجال الدين, وامتدح في نفس الوقت حب النساء. أعطى فياض المقال عنوان "نهاية الغوغاء المسمون العرب". وبلغته الساخرة بكى التشدد الديني للمجتمع السوري, والطاعة المتزايدة للمفتي,وتعجب لماذا تحول العالم الاسلامي إلى مركز مشكلات وحروب العالم. بل إنه دعا إلى الفصل بين الدين والدولة, وقال إن سوريا الدولة ذات الطابع العلماني تتجه نحو التأسلم, وأطلق على المؤسسة الدينية "مستنقع الإرهاب".

لفتت هذه الكلمات انتباه الصحفي محمد أنور وردة, محلل مجلة اجتماعات. قرر وردة - صحفي لا يتمتع بشعبية كبيرة- أن يحظى بالشهرة على حساب فياض الذي امتدح النساء المثليات. وحكى فياض كيف شارك في أحد الأيام في حدث سنوي لرابطة النساء الدانماركيات المثليات في ميدان تيفولي بكوبنهاجن.

كتب الباحث السوري "طبيعي أن نكون هناك"، وقد "ملأت فرقة موسيقية مكونة من أمريكيين ودانماركيين الجو بضجيج أغاني الروك والمطاليقا مع بعض الأغاني الجميلة: فندق كاليفورنيا, وشيء ما من أغاني فرقة البيتلز, وفرقة الصخور المتدحرجة. وتمايل الفتيان والفتيات بين ثمالة البيرة الدانماركية وثمالة جمال الفتيات المثليات, المتعانقات أمام الناظرين."

وأمام هذا المشهد الفريد, كما وصفه الباحث السوري, شاهد كيف أن بلاده تخطو إلى الوراء. "انتهى عصر الجمال, النقاء والحرية. نحن نعيش, والموت أفضل لنا ألف مرة من صباح يوم في دمشق التلوث والأصولية, وأشكال أعضاء البرلمان من النساء من قائمة "الجبهة المتقدمة" {الائتلاف الحاكم} المحجبات... نحن نعيش في عصر الولاء لكفتارو (مفتي سوريا الراحل), والكبيسية.

الكبيسية هي جمعية سرية من النساء الإسلاميات, أسستها منيرة الكبيسية. ولقد حاولت أجهزة الأمن السورية التضييق عليهن؛ لكن سرعان ما أدركت أنها إذا سمحت لهن بالعمل سوف يمكنها ذلك من السيطرة عليهن بشكل أفضل. منيرة الكبيسي داعية فصيحة اللسان,

جمعت النساء في المساجد والبيوت الخاصة وعلمتهن الشريعة بغرض تطبيق الأخلاق التي تساعدهن في عملهن وحياتهن الزوجية. ولقد حرصت على تركيز رسالتها على السيدات المثقفات, أصحاب الإمكانيات, أو من عائلات ثرية. ولقد جلسن وأصغين لكلامها، ثم طبقن نصائحها, بروح الدين, على حياتهن الخاصة. عملت الجمعية في شكل منظم وتسلسلي. فالعضوة الجديدة ترتدي حجابا باللون الأبيض, والمتقدمة باللون الأزرق. ومن أظهرت تفوقا ألبستها منيرة الكبيسي بنفسها الحجاب باللون الأسود.

استاء الصحفي الديني كثيرا من أقوال فياض وأطلق العنان لقلمه فجلس وكتب مقالا غاضبا, دعا في عنوانه إلى الرد على هذه الكلمات كالرد على البهائم.

"إن ما دفعني إلى دعوة القراء إلى التبول على فياض هو الضرر المستمر الذي يسببه للمسلمين وطوائفهم," وقال وردة مبررا " لقد أثار عنوان المقال غضبا واستنكارا شعبيا, لكن بعد أن قرأوا مقالي, قال لي البعض أنهم يرغبون في تلبية الدعوة. وطلب البعض مني التراجع عن ذلك لأني متدين."

أعلن ورده استعداده التقدم للمحاكمة لما كتبه. وقال غاضبا "لكل فعل رد فعل. وليس من الكرامة أن أكون متهما بالضعف وأسمع أن السيدات المثليات أجمل من الكبيسيات,".

وماذا عن نبيل فياض؟ لن يهدأ للحظة حتى يكمل المقال التالي الذي سيغضب فيه ثانية شخصا ما, رافضا أن يكمم فاه.

وسخر الباحث السوري بقوله "إن ردود أفعالهم سطحية للغاية" , "إنهم باحثون عن الشهرة. هذا رأيي, وأنا رجل حر لذلك سأقوله. كلماتهم أفضل من موتي. وإنه إذا كان في هذه البلاد أجهزة أمن قوية لقتلوني منذ زمن بعيد."

الرجل الذي تجرأ أكثر من اللازم

حكمت محكمة أمن الدولة في دمشق بالسجن ثلاث سنوات على الناشط الحقوقي حبيب يونس. ، ذين يونس الذي يبلغ من العمر 64 عاما بعدة جرائم من النوع الذي تحب الحكومات المستبدة إلصاقها بأشخاص من هذا النوع: إضعاف الشعور القومي, إثارة الفتنة الطائفية, والإساءة إلى رئيس الجمهورية. يسمح القانون السوري للمحكمة بإرسال من يسيء إلى الرئيس إلى حبل

المشنقة، غير أن القاضي علم أن ثلاث سنوات وراء القضبان بالنسبة لسن يونس وحالته سوف تنقل إليه الرسالة جيدا.

كانت هذه ثالث مرة يسجن فيها الصحفي السوري خلال تسع سنوات. فمنذ أن ورث الرئيس بشار الأسد الحكم, في يونية 2000, قضى يونس خمس سنوات في السجن على فترتين منفصلتين -عن حق؛ فمن مكتبه الصغير في مدينة طرطوس نشر سلسلة من المقالات سخرت من حزب البعث الحاكم. ولقد منعت السلطات الصحف السورية من نشر كتاباته, لذلك توجه إلى المواقع الإخبارية العربية الليبرالية, مثل: "إيلاف"، ومدونة "ريزكار", "شفاف الشرق الأوسط" التي عملت كلها من خارج سوريا وتخصصت في إسماع أصوات يونس وأمثاله.

اشتكى يونس في مقالاته من أن المجتمع السوري في بداية القرن الواحد والعشرين لايزال مجتمع عسكري, يتصرف كما لو كان محاصرا. ولو أنهم يتبعون هذه الأساليب العسكرية والمخابراتية, على حد زعمه, فليخرجوا للحرب؛ وإن كانوا غير قادرين على ذلك, فلا يفكروا كالعسكريين.

وكتب في أحد مقالاته "إن أعضاء حزب البعث يفوقون المليون ونصف المليون شخص,", " لم نعد نتذكر متى آخر مرة استخدم هؤلاء لإطلاق طلقة واحدة نحو المحتل, أو من أجل تقوية الأسس الاجتماعية وبناء مجتمع عادل أو دولة رفاهية."

أطلق يونس على حزب البعث أقسى تعبير "ميليشيا", وتعجب أين اختفت روح الثورة لدى الحزب التي كانت لديه في الخمسينيات والستينيات. وقد كتب "إن الميليشيات لا تقود شعبنا," "إنها لا تحارب من أجل الأوطان {الدول العربية الأخرى}, ولا تستقيل عندما تهزم وتنسحب. وبدلا من ذلك تقوم بمهاجمة شعبنا بسلاح القمع, والطرد والخراب. هذا هو الفرق بين الحزب الذي يخلص الوطن والأرض ويتبنى برامج من أجل الصحوة القومية, وبين الميليشيا التي تحول الوطن والأرض إلى نموذج حكم للفساد والحرمان."

استعرضت مكافحة السلطات السورية للنشطاء الحقوقيين باستفاضة في الصحافة وتقارير المنظمات الدولية. ففي عام 2001 قدمت السلطات في دمشق عشرات النشطاء الحقوقيين للمحاكمة, الذين التقوا في الصالونات السياسية وطلبوا من الأسد الصغير القيام

بتغييرات ديمقراطية. كان يونس عضوا في نفس الحركة المسماة "ربيع دمشق". وفي 2008 تكررت موجة الاعتقالات, عندما اعتقل 12 ناشط من بينهم أعضاء في "ربيع دمشق", وحكم عليهم بعامين أو ثلاثة أعوام في السجن.

كان عام 2008 هو العام الذي حدث فيه التقارب المذهل بين الرئيس بشار الأسد والغرب بعد عدة سنوات من العزلة الدولية بعد فوز رئيس الولايات المتحدة جورج بوش. وحاولت واشنطن معاقبة الأسد لعدم خضوعه, وعدم مساعدته في القضاء على التمرد في العراق. وفي النهاية أدرك بوش, وخلفه باراك أوباما, وكذلك الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، أنه في الوقت الذي تزداد فيه القوة الإيرانية, من الأفضل تقريب الأسد بدلا من إبعاده. ويبدو ذلك تطورا إيجابيا, لكنهم عرفوا جيدا في المنظمات الدولية تأثير هذه الخطوة على وضع حقوق الإنسان في الدولة.

فقد أثبتت التجربة أنه إذا تقارب أي حاكم مع الغرب, لسبب ما, فإن الغرب مستعد للتخلي عن المباديء الإنسانية السامية أيا كانت, لصالح رعاية هذا التقارب. فثمن العلاقات الطيبة بين مصر, والسعودية والأردن وبين الولايات المتحدة والدول الأوربية قد دفعه, ليس فقط خصومهم, لكن أيضا مواطنوهم الباحثون عن الحريات لهذه الدول.

الصحفي الذي زأر

بعد أربعة وثلاثين عاما من إعدام رجل الموساد إيلي كوهين في دمشق أنتجت قناة العربية فيلما وثائقيا عن القضية. وسافر الصحفي المصري أحمد عبد الله إلى دمشق, وزار إسرائيل ومنها إلى أوروبا. ووثق بكاميرته شهادات إسرائيليين وسوريين. وكان من بين الذين أجرى لقاءات معهم: نادية أرملة إيلي كوهين, وابنته الكبرى, وصوفي بن دافيد, ورئيس الموساد الأسبق داني ياتوم والصحفي شموئيل سيجيف الذي قام بالتحقيق في القضية. أما الجانب السوري فقد مثله قاضي المحكمة العسكرية, اللواء صلاح الدين الضلي, ومدير مكتب الرئيس السوري في ذلك الوقت منذر موصلي. عمل كوهين في دمشق كرجل أعمال سوري بهوية مستعارة. ونجح على مدار ثلاث سنوات في جمع ملعومات متنوعة لصالح من يقومون بتشغيله, حتى كشفته المخابرات السورية بعد شكوك أثيرت لدى بعض أصدقائه المقربين.

لم تكن نتائج جهود الصحفي عبد الله مبهرة. فالفيلم الوثائقي "جاسوس في دمشق" ينقصه التركيز ولم ينجح في كشف تفاصيل جديدة في القضية. وكان من الصعب عدم ملاحظة جهود المتحدثين من الجانبين من أجل رسم صورة مختلفة لإنجازات كوهين المهنية. قال موصلي: "لقد كان جاسوس فاشلا."

كانت ذروة الفيلم تستحق المشاهدة. ففي تلك اللحظات حكى عبد الله عن توجهه إلى وزارة الإعلام السورية, بطلب إجراء مقابلة مع القاضي المتقاعد الضلي. وقال إنه ودا على طلبه طلبوا منه الانتظار بصبر حتى الحصول على رد الجهات الأمنية الذي لم يأت, فقرر الصحفي المصري العمل على غير عادة زملائة في المهنة. وذهب بمبادرة منه إلى بيت القاضي مصطحبا معدات التصوير.

لم يعترض القاضي الذي حكم على كوهين بالإعدام في مايو 1965 على إجراء المقابلة, غير أنه بعد بضع دقائق من بدء التصوير انطفأت الأنوار في المنزل. ونجح سكان المنزل في إعادة التيار مرة ثانية لكنه انقطع مرة أخرى. كان من الواضح أن رجال الأمن قد تتبعوا طاقم العمل وحاولوا إفشال هذا اللقاء. لكن أحمد أصر على إجراءه على أضواء الشموع. وذكر للمشاهدين أنه اضطر إلى وقف اللقاء قبل انتهائه, لكنه لم يذكر السبب. وتم تصوير المشهد كله في الظلام.

كان تصرف الصحفي المصري غريبا على طبيعة عمل الإعلام العربي, الذي يخضع بدون أي اختيار لتوجيهات النظام الحاكم، وأغرب أنه حدث في سوريا, التي تفرض قيودا صعبة للغاية على استطلاع الموضوعات الملتهبة المرتبطة بها, خاصة في المجال الأمني. وفي نهاية عام 2002, عشية الحرب على العراق, ألقى السوريون القبض على إبراهيم حميدي, مراسل صحيفة الحياة. وكان خطؤه أنه تجرأ على الكتابة عن وجود معسكرات لاستيعاب اللاجئين العراقيين, تم تشييدها على الحدود السورية. فقد أحرج حميدي، الذي كان معروفا خارج حدود بلاده وفي داخلها بأن له مصادر مطلعة لدى القيادة السورية -نظام بشارة الأسد. فقد كشف بالتأكيد أن رئيسه يؤمن بحتمية سقوط نظام صدام حسين وإنه يستعد لاستقبال اللاجئين. ومنذ أن أطلق سراح حميدي توقف عن نشر قصصه الحصرية وخسر مكانته كأهم صحفي في دمشق.

وفي الدقائق التي تم تسجيل القاضي فيها تذكر الكلمات التي تبادلها مع المتهم. ويعتبر ذلك بالنسبة للإسرائيليين صوت يدوي من الماضي؛ حيث زعم كوهين -من عائلة من أصل سوري ولدت في الأسكندرية- أنه لم يخن أبدا.

لقد تذكر أنه "قال لي لم أتجسس, خدمت وطني," "أجبته, أين وطنك؟ إسرائيل؟ أي إسرائيل؟ وطنك هو مصر. أنت نشأت في مصر."

الشائعات عن وفاته كانت مفيدة

عندما سيتم تدوين تاريخ الصحافة المصرية, لن يكون هناك مفر من تخصيص مكان محترم لصحيفة الدستور. كانت الصحيفة, على ما يبدو, ليست أكثر من آداة إعلامية أخرى أغضبت السلطات وتلقت عقابا قاسيا. فعليا, كانت الصحيفة, آداة في يد السلطات من أجل توسيع حدود حرية التعبير.

ففي شهر يناير 2009 حكمت محكمة استئناف القاهرة على إبراهيم عيسى رئيس تحرير الصحيفة بالحبس شهرين. ففي سلسلة من المقالات التي كتبها ونشرت قبل ذلك بعام ونصف, كتب عيسى لقرائه أن الرئيس حسني مبارك لم يظهر علانية منذ عشرة أيام, وأشار إلى احتمال أن يكون حدث له شيء غير عادي. فقد زعم "الرئيس يعاني من مشاكل في ضغط الدم, مما يؤثر على تدفق الدم إلى خلايا المخ ومن الممكن أن يسبب ذلك إغماءات أحيانا".

من يقرأ ما بين السطور سيستنتج أن مبارك قد دخل في غيبوبة, وربما كان في فراش المرض. ولو أن ذلك حدث بالفعل, ومكتب الرئيس يتكتم الأمر, فذلك يعني أن رجال الرئيس يحاولون إخفاء هذا السر عن الشعب.

نشر صحفيون آخرون غير عيسى تساؤلات حول الاختفاء القسري للرئيس, الخطوة التي جعلت هناك اهتماما دولية بحالته الصحية. اختار مستشارو الرئيس عدم التطرق لما هو منشور في هذا الشأن. ربما هناك رغبة بالفعل في إخفاء شيء ما, وربما قرروا ذلك لأنه ليس من اللائق الرد على كل حماقة. غير أن هذه الخطوة أكدت, أكثر وأكثر, الشائعات حول صحة الرئيس مبارك. وفقط, وبعد مرور عشرة أيام, بث التلفزيون صورا للرئيس في جولة في الإسكندرية, وأرسلت حرمه إلى التلفزيون لتعلن أن حالته الصحية "زي الفل". هدأ الجميع, ثم تفرغوا

للانتقام من اللئيم، لهم عيسى بنشر أخبار كاذبة عن الحالة الصحية للرئيس, رغم علمه أنها غير سليمة.

قالت المحكمة "سحب المستثمرون استثماراتهم من البلاد, وهبطت البورصة 88 نقطة, وخسر المستثمرون حوالي 225 مليون جنيها", وحكمت على عيسى بالسجن لمدة ستة شهور. لكن قبل بداية تنفيذ العقوبة, وليس مصادفة, أنقذته يد خفية من هذا القدر المرتقب. فقد وقع الرئيس مبارك, وليس شخص آخر, على قرار بالعفو عنه وألغى حكم المحكمة.

كانت عملية معاقبة الصحفي الجريء والإفراج عنه بعفو رئاسي, مخططة منذ البداية تقريبا. فكان اهتمام مبارك ورجاله بالإدانة وليس العقوبة. وكانت لديهم الصلاحية الكاملة بفعل ما يريدون في عيسى, لكنهم لم يرغبوا في سلب حريته, بل أملوا في أن يتعلم الدرس ويحكيه لأصدقائه. لم يضغط أحد في هذه القضية على النظام في قضايا الديمقراطية وحرية التعبير – ليس أصدقاء عيسى الصامتون أو المعارضة الغاضبة. كما أن الإدارة الامريكية في عهد الرئيس جورج بوش, التي اعتادت وعظ أصدقائها في الشرق الأوسط حول الحرمان من حقوق الانسان, لم تزعج القاهرة.

سيتذكر التاريخ لحسني مبارك الفقر, والفساد, والضعف, وتباطوء التنمية, التي لم ينجح في التغلب عليها على مدى سنواته الطويلة كرئيس. لن تنسى مجهوداته على مدى السنين لتوريث الحكم لابنه "الموهوب" جمال, كما لو كان كرسي الرئاسة إرث عائلي. كما سيتذكرون له حالة الطواريء التي استخدمها بشكل موسع منذ اغتيال سلفه أنور السادات عام 1981, وسنوات طويلة بعدها. حالة الطواريء التي منحته بشكل موسع حرية مطلقة للتعامل مع المشتبه بهم ومعارضي النظام الحاكم باختلافهم. فقد سمحت للدولة, بمصادرة ممتلكات أي شخص يهدد الأمن القومي, والتحفظ على أموال التبرعات التي لم يتم الموافقة عليها. نجح نظام مبارك في مواجهة الضغوظ الداخلية والخارجية, التي طالبته بإلغاء حالة الطواريء, لأن هذه ليست الطريقة القانونية لمحاربة معارضيه الأصوليين.

غير أن أحدا لا يستطيع أن يأخذ منه عملية تحويل مصر إلى مجتمع مدني؛ حيث لم ينجح من سبقوه, وكذلك نظراؤه العرب, في القيام بذلك. ففي السنوات التي سبقت حادثة إبراهيم

عيسى حدثت في القاهرة تغييرات مبهرة في كل ما يتعلق بحرية التعبير. ولم يعد يدور الحديث عن الفساد والمحسوبية في الغرف المغلقة بل على صفحات الجرائد. ولقد توالت القضايا, وعلم الشعب من الإعلام التفاصيل الدقيقة عن: غرق العبارة التي لم يسرع أحد في مساعدة ضحاياها؛ وعن مبنى مجلس الشورى الذي احترق بسبب إهمال شخص ما في تنفيذ التعليمات؛ وعن القطار الذي احترق بركابه؛ وعن ظاهرة "القلم الأجير" – صحفيون يبيعون ضمائرهم المهنية في مقابل رواتب مرتفعة أو امتيازات من النظام الحاكم, في الغالب. وها هو مجدي الجلاد رئيس تحرير جريدة المصري اليوم يهاجم هذه الظاهرة قائلا:

"يا ليت نفسي ترتاح من القلق والمشاكل, وتبيع القاريء وتشتري رضا النظام... يا ليتني تعلمت في أفضل جامعة, وتعلمت كتابة التقارير الأمنية عن أصدقائي. لكنت ترقيت وتحولت من شخص يعمل مع (النظام) "أمن الدولة إلى صاحب وظيفة في أمن الدولة, إلى رجل مباحث في أمن الدولة...

"يا ليت نفسي لم تشعر بوخزات ألم الضمير, في الوقت الذي أبيع فيه 76 مليون مصري لإرضاء شخص واحد, أو لمنصب والقليل من المال. يا ليت نفسي عرفت ركوب المرسيدس من أموال الحكومة, لأن أفضل شيء في مصر هو السفر بأموال الحكومة, وملأ حسابك البنكي من أموال الحكومة, والسباحة في بحر من الشكر من الرئاسة. يا ليت نفسي كانت تعتبر الفساد شيئا نقيا ومحترما. ويا ليتني استطعت تحطيم كل من يتحدث بالمنطق. باختصار: يا ليت نفسي كانت تعرف خدمة النظام الحالي, وأن أصب جام غضبي عليه عندما يترك مكانه, وفتح صفحة جديدة مع النظام الجديد."

أما الكاتب المصري علاء الأسواني, مؤلف الرواية الأكثر مبيعا "بيت يعقوبيان", فقد قال عن أجهزة بلاده الأمنية: "هم يتركونا نقول ما نريد, ويصنعون ما يريدون." تخفي أقوال الأسواني, المنتقد اللاذع لنظام مبارك, إحباطا من تردي حالة الحريات في بلاده. غير أن الأسواني نسي أنه قبل سنوات قليلة من ذلك لم يكن في مقدور المثقفين على ضفاف النيل سوى الحلم باليوم الذي يسمح لهم فيه بالصراخ بأن الرئيس ديكتاتور, ويبقوا بعدها أحياء.

ولسخرية القدر كان أحد الأشخاص الذي ساعد الرئيس مبارك على إعطاء الشعب إحساس بالحرية النسبية في التعبير عن الرأي هو رئيس تحرير جريدة الدستور، الذي كان الغرض من حبسه في بداية الأمر رد فعل طبيعي لنظام قمعي, لكن نهايته كانت محطة في رحلة تدريجية لتكوين مستقبل ليبرالي لمصر. وبالامتناع عن عقابه بعثت السلطات للشعب, وخاصة الصحفيين, رسالة لطيفة مع غمزة عين. أجل, أصبح من الممكن التشكيك أيضا في صحة الرئيس والبقاء على قيد الحياة.

متدين لطيف

إذن ماذا قال بالضبط نجم التلفزيون الشاب أحمد الشقيري؟ انشغل السعوديون على مدى عدة أيام بما نسب له حول المستوى الأخلاقي للنساء في المملكة. الشقيري, شخص متدين ومعتدل, ومجتهد ووسيم, قدم برنامجه "قلاقل" في قناة MBC الفضائية. وبأسلوب سهل وجنوني ومن خلال اتصال مع الجمهور العريض, اعتاد كل أسبوع تناول قضايا اجتماعية وأخلاقية مختلفة.

في أحد برامجه أراد معرفة تكلفة حفل زواج. تنقل أحمد بين قاعات الأفراح ومراكز التجميل, وبين بائعي المجوهرات, كما التقى بالفرق الموسيقية, كما زار الفنادق التي تستضيف المتزوجين حديثا لقضاء شهر العسل. ووجد في النهاية أن حفل زفاف معقول ومتوسط يتكلف 200 ألف ريال سعودي, وهو مبلغ كبير بالنسبة لشاب سعودي يصل راتبه الشهرى إلى حوالي 4000 ريال سعودي.

حول تناول أحمد الشقيري الباسم في نظر الشعب إلى رجل متدين لطيف. ولم تهتز هذه الصورة حتى بعد أن كانت لديه مشكلة بعد كلمته التي أثارت الجدل حول الفتيات السعوديات. بدأ الأمر بعد أن اقتبست إحدى المواقع الإخبارية ما قاله بأن 70 بالمائة من النساء السعوديات لهن علاقة حميمية غير أخلاقية مع رجل آخر.

وقال إن "نسبة الشباب الذين ليس لديهم علاقات مع نساء ضئيلة للغاية. ومن يريد أن يجادل حول حقيقة أقوالي, ليقم بزيارة مدارس البنات وسيكتشف الحقيقة,".

طالب متصفحو الإنترنت الشقيري بتوضيح كلامه. وأراد آخرون مقاضاته بتهمة الازدراء. وطلبت منه سيدة الاعتذار على الهواء. وقد طلب آخر في أحد المواقع "إما أن يبرهن ادعائه بالمعطيات, أو ستتم مقاضاته". وامتلأ صندوق مراسلات البرنامج بطلبات من المتصفحين, واحتوى بعضها على إهانات.

قال الشقيري دفاعا عن نفسه إنه نسب السلوك الذي قصده إلى "معظم السيدات" ولم يحدد نسبة معينة.

وقال " زرفت عيناي دمعا من الإهانات التي وجهت إليّ," "فأنا لم أذكر اسم السعودية, بل قصدت العالم الإسلامي كله. وليس لدي أي استطلاعات تبرهن كلامي. ولقد عرفت ذلك من الرسائل الإلكترونية التي تلقيتها من شباب وفتيات,ومن زياراتي للدول الأخرى."

ما علاقة كل ذلك بالدين؟ في دراسة عن تكلفة الزواج أراد الشقيري أن يثبت أن النفقات المرتفعة هي العائق أمام الشباب, وذلك عند عرضهم الزواج على الزوجات. وحتى تحصل على العرض المأمول تبقي العروس في وحدتها, ومن الممكن أن تجد نفسها في علاقات زوجية خارج إطار الزواج وهو الأمر الذي يحرمه الدين ويمقته. كما يعتقد أن معظم السيدات لديهن مثل هذه العلاقات.

وبمفاهيم المجتمع والاعلام في السعودية, فإن الكلمات المنسوبة للشقيري كانت بمثابة انفراجة. فشخصية معروفة للجميع تظهر من قلب المؤسسة وتلقي حجرا في داخل البئر. وعن هذه الحجر كتب أنه على الرغم من قداسته ومحافظته في نظر الكثير من أبنائه فإن المجتمع السعودي لا يختلف عن غيره, حيث تموج فيه الغرائز وتصطدم بالأخلاق.

قال الشقيري مدافعا "هناك من لا يحب انتقاد المجتمع", "من يزعم أن المجتمع يعيش بشكل سليم, فأنا أقول له أنه لا ينظر إلى النساء والرجال. فليدخل إلى شبكة الإنترنت, أو ينزل الى الشارع ثم يجادل"

فتح الشاشة

بعد أربعة عقود تقريبا من توقف دور السينما في السعودية عن العمل, وذلك بفتوى دينية, عادت الشاشة الكبيرة للتلألأ. كان ذلك في عيد الأضحى وبمباركة من القصر الملكي. "مناحي"

كوميديا ساخرة طويلة, بطولة السعودي فايز المالكي, تم عرضها في قاعات خاصة مجهزة في مدينتي جدة والطائف.

بالنسبة للمشاهد السعودي الذي عرف السينما فقط من خلال القنوات التلفزيونية أو أشرطة الفيديو, كان ذلك تجربة ثقافية مثيرة. وملأ القاعة في جدة 1200 مشاهد, وفي الطائف 250 مشاهد, وعرض الفيلم عدة مرات في اليوم. جلس الرجال والنساء كل على حدة لمشاهدة المالكي الذي يجسد قصة شاب أعزب في الثلاثينات من عمره يسكن مع أمه ويربي الماعز والدواجن في القرية. وفي أحد الأيام خرج يبحث عن حظه فقرر السفر إلى دبي, ربما ينجح هناك في تحقيق حلمه – لكنه أحبط مرارا وتكرارا عندما اكتشف أنه لا يعرف حياة المدينة وعاداتها.

ورغم كونه إنتاجا سعوديا, إلا أن هذا الفيلم الكوميدي عرض أولا في: البحرين, والكويت, والقاهرة, وقطر, بل وفي سويسرا وفرنسا, وأحبه الجمهور في كل هذه الأماكن. وقال المالكي بعد العرض الافتتاحي في جدة "كسرنا الحاجز الكبير," "أعطينا السينما السعودية إشارة الانطلاق."

لايزال شيوخ السعودية يتذكرون قاعات السينما الممتلئة والتعبيرات الاعتيادية "شباك التذاكر" و"قاعة العرض". اشتهرت بذلك مدينة جدة الساحلية, التي عملت فيها ثلاث دور سينما على الكورنيش. كان ذلك في بداية السبعينيات – في الأيام الأولى للتلفزيون, ولم يكن هناك إنترنت. غير أن المؤسسة الدينية بدأت تخشى من أن تدخل المملكة عبر السينما رسائل ليبرالية جدا. بعدها تقرر عام 1970 منع أي بث عام في جميع أنحاء المملكة.

, أنتج, منذ ذلك الوقت, فيلم رسوم متحركة للأطفال، بل واستضافت مهرجان دولي للأفلام القصيرة, لكن المشاهد الفضولي لم يستمتع بالسينما بمفهومها الشامل – من القاعات والأفلام الطويلة, والفيشار ومختارات من الإنتاج العالمي. ومن يرغب في ذلك, فيضطر إلى السفر إلى البحرين المجاورة, والإمارات العربية, والكويت أو قطر. ورغم الإنتاج الضعيف لصناعة السينما السعودية إلا أنها تعرض في خارج الوطن.

قد خلق عرض فيلم "مناحي" حولا مجتمعيا حول عودة دور السينما من جديد. ورغم ذلك فإنه بعد أسبوع من العرض الناجح, قررت يد خفية سحب الفيلم من شاشات العرض. وكان العذر الرسمي الزحام الشديد في قاعات العرض غير المجهزة لعرض الأفلام. ولقد صدق

عدد قليل هذا التفسير, خاصة بعد سماعهم الشيخ الدكتور إبراهيم الريس, رئيس شرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي استنكر عرض الفيلم.

لقد قال الشيخ المبجل أنهم "لم يسألوه عن الأمر" ،"إن موقفنا واضح وسلبي. إن السينما إثم, ونحن لسنا في حاجة إليه. فتكفينا الآثام المتفشية بيننا."

يبدو أن هذه قصة أخرى عن الاضطهاد باسم الدين. وفعليا كان هذا بالون اختبار استخدمته السلطات من أجل كسر الوضع الراهن. لقد كان المعدل بطيء ومتعمد, كما هو معتاد في المجتمع المحافظ, غير أن هذه التجربة مرت بدون احتجاج حقيقي وقوبلت بشغف كبير لدى الجماهير العريضة. فكان من الصعب, قبل سنوات قليلة من ذلك, إجبار المؤسسة الدينية في القضايا المرتبطة بحرية التعبير والإبداع, أما الآن فلا يشاورونها. هذا ما اختاره القادة من أجل إحداث تغيير.

كلام الليل مدهون بزبدة

انتظر رواد المهرجان السينمائي الدولي في عام 2009 في حي قرطاج الراقي بالعاصمة تونس؛ مفاجئة؛ حيث تم إلغاء عرض الفيلم الوثائقي الذي أخرجته المنتجة السورية ريم علي, وذلك دون أي إنذار مسبق. يحكي الفيلم على مدى 42 دقيقة قصة فتاة من الأقلية الكردية في سوريا, يطلق سراحها من السجن. ثم تخرج مدججة بالأفكار الشيوعية عن المساواة بين الأقليات, وتعود إلى النشاط السياسي, غير أنها سرعان ما تكتشف أن النضال العادل أيضا لا يستطيع الاستمرار على معدة خاوية. وفي بحثها عن عمل قررت البطلة التخلي عن النشاط العام وتخرج للبحث عن مستقبلها الشخصي خارج حدود بلدها. ورغم أن إطار القصة سياسي, إلا أن فيلم المخرجة السورية هو في الأساس إبداع شخصي. فهو يتناول كثيرا علاقات البطلة بأخيها المريض نفسيا, وحنينها إلى الوطن.

لقد تم تصنيف الفيلم "زبد"كفيلم وثائقي قصير نافس عشرة أعمال أخرى. وتم تحديد موعدين لعرضه, غير أن الخبر البائس الذي علق في خارج قاعة العرض ذكر أن فيلما آخر سيعرض بدلا منه.

كان وراء هذا الإلغاء قصة مأساوية؛ حيث اتضح أنه مورست على المنظمين ضغوط من قبل وزارة الثقافة التونسية, من أجل استبعاد فيلم "زبد" من جدول عروض الأفلام. وكان مصدر هذه الضغوط السفارة السورية في تونس التي اعتبرت هذا العمل لائحة اتهام موجهة ضد دمشق. ففي تلك الأيام وقعت صدامات بين الشرطة السورية والمتظاهرين الأكراد، سببها القرار رقم 49 لنفس العام, الذي أصدره الرئيس بشار الأسد. لقد طالب القرار سكان محافظات المناطق الحدودية التقدم من الآن فصاعدا بطلب الحصول على تصريح من وزارة الداخلية أو وزارة الزراعة فيما يخص كل عملية شراء أراض أو بناء منزل. وبشكل غير مفاجيء نجد أن معظم سكان الحدود من أصل كردي.

فضلت الحكومة التونسية التضحية بريم على, وبحرية الإبداع بدلا من رفض الطلب السوري. فقد عقد مهرجان قرطاج بتأييد من الحكومة التونسية التي اعتبرته أول وسيلة سامية لتشجيع السياحة. غير أنه هذه المرة كانت هذه العلاقة الحكومية وبالا، حيث جعلت من اللجنة المنظمة آداة لتكميم الأفواه لخدمة الحكومتين السورية والتونسية.

اضطرت ريم إلى الصمت,لكن القضية لم تنته بعد؛ حيث لم تصمت لجنة التحكيم المكونة من سينمائيين من الدول العربية وأوربا, وأعلن القضاة أنه نظرا لرفض الفيلم, فإن المنافسة فقدت نزاهتها, وألغوا جائزة الفيلم الوثائقي القصير.

هل هي ضربة قاسية لحرية التعبير؟ نعم ولا. فالجميع ربح في هذه المناورة؛ حيث نجحت دمشق في إحباط محاولة فنية للمساس بصورتها على الساحة الثقافية. وأثبتت الحكومة التونسية تضامنها مع صديقتها المهمة. وأظهرت لجنة التحكيم أن لها الكلمة الأخيرة, حتى الفيلم نفسه قد حظي باهتمام كبير حتى قبل عرضه. ربما كانت الديمقراطية فكرة طيبة, لكنها عندما تغيب فليس ذلك بالأمر السيء طوال الوقت.

متعلق بالوضع

حاول نشطاء منظمة حقوق الإنسان الدولية Human Rights Watch دفع مشروع قانون في لبنان يؤدي إلى إلغاء عقوبة الإعدام ، غير أن ذلك ذهب هباء. هذه المحاولات مكتوب عليها بالفشل من البداية, فهي ضحية لديبلوماسية العناوين الصفراء. فقد شهدت لبنان في تلك

الفترة موجة من الاعتقالات لعشرات المشتبه بهم بالتجسس لصالح إسرائيل. ولقد تمسك الزعيمان الرئيس ميشيل سليمان, وأمين عام حزب الله حسن نصر الله, بحكم الإعدام لإظهار الحزم في مواجهة أعداء الشعب والدولة.

لقد وعد الرئيس سليمان بأنه "سيوقع على أي حكم بالإعدام تصدره المحكمة العسكرية,". أما نصر الله فقد دعا السلطات إلى القيام بمحاكمات عاجلة تنتهي بتقديم الجواسيس لحبل المشنقة.

منذ عام 2004 لم يتم تقديم المجرمين إلى حبل المشنقة في لبنان, وكان هناك في بيروت من دعا إلى تثبيت فترة الامتناع في التشريع. وقدم وزير العدل إبراهيم النجار مشروع قانون, في أكتوبر 2008, من أجل تبديل حكم الاعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة. لكن وقتها تم كشف متهمين بالتعاون مع إسرائيل. وعندما تدوي المدافع, فكما هو معلوم, فإن مشاريع القرارات تصمت.

وزعم نديم خوري, رئيس فرع Human Rights Watch في لبنان "أن القلق على أمن لبنان مشروع, غير أن استئناف عمليات الإعدام لن تحول الدولة إلى دولة أكثر تحصينا من الناحية الأمنية,". وأضاف لقد أثبتت الأبحاث أن هذه العقوبة ليست أكثر ردعا من العقوبات الأخرى.

رأى خوري وأمثاله في عقوبة الإعدام خرقا للحقوق الأساسية للإنسان وعلى رأسها الحق في الحياة, والحق في عدم التعرض للإهانة أو لعقوبة شديدة. وزعمت المنظمات الدولية أن المحاكم العسكرية تعمل بعيدا عن الأضواء, وأحيانا يكون محظورا فيها على أهل المتهم حضور المحاكمة. بهذه الطريقة, هناك مخاوف من إرسال أبرياء إلى حبل المشنقة, ولن يكون هناك من يشرف, كما ينبغي, على إجراءات التقاضي.

قال الله تعالى في سورة الإسراء: "ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا". تعتبر عقوبة الموت في الدين الإسلامي؛ أداة ردع للجرائم التي تؤثر على وجود المجتمع, وعلى رأسها القتل بدون سبق إصرار, والزنى, والردة. يقول الأمر الإلهي بأن القاضي فقط هو المخول بإرسال الجاني إلى

الموت. وفي حالات القتل, من المتبع أحيانا منح عائلة الضحية الحق في العفو عن القاتل, وتبديل العقوبة بدفع الدية.

في الوقت الذي حاول فيه نديم خوري ورجاله التأثير على الحكومة اللبنانية لإلغاء عقوبة الاعدام, عمل زملاؤهم في منظمة "إمنستي إنترناشيونال" من أجل دفع نفس الغرض في تونس. وكانت الحكومة مستعدة لتبني هذا التغيير, لكن المؤسسة الدينية عارضت ذلك بشدة. والحل الذي تم إيجاده, على غرار لبنان, هو الامتناع الهادىء. ففي الفترة من 1991-2010 لم يتم تنفيذ حكم الإعدام في المجرمين في تونس.

لم يكن الوضع كذلك في ليبيا التي أعدم فيها, سرا في يونية 2010, ثمانية عشر رجل أدينوا بالقتل. كما انتظر مائتان آخرون في سجونهم لتنفيذ العقوبة. وفي المقابل فشلت محاولة في البرلمان الأردني لإلغاء عقوبة الإعدام على جرائم اغتصاب الفتيات أقل من 15 عاما. واكتشفت مئات من هذه الحالات سنويا.

وفي العراق حاول الرئيس جلال طالباني هباء إلغاء بند في القانون يسمح بالإعدام واستبداله بالمؤبد. ولقد أصر خلفاء صدام حسين, الذين حاربوا إرهابا وحشيا, على الإبقاء على هذا الحكم. وأخفى رفضهم المتعنت رغبة قوية في تصفية حسابات مع بقايا النظام القديم وأنصاره بين المتمردين.

كانت العراق البرهان على أقوال نديم خوري بأن عقوبة الإعدام لا تعتبر وسيلة ردع للجرائم الكبيرة. فمنذ تغيير النظام الحاكم في بغداد وحتى صيف 2010, أعدم 1.245 شخصا, أدين معظمهم بالإرهاب. وطوال تلك الفترة لم تتوقف الجماعات المتناحرة في الدولة عن القيام بعمليات إرهابية قاسية وزرع القتل والثكل بين السكان الأبرياء.

الفصل الثالث

النساء

لماذا ترتدي الحجاب؟ لماذا يتأخر سن زواجها بشكل مستمر؟ في أي دولة يمكنها حمل جواز سفر خاص بها؟ يعتقد الكثيرون أن المرأة العربية تعاني من القمع, غير أن هناك شواهد كثيرة تدل على حدوث تغيير في صالحها.

سيذكر المؤرخون يوما ما أن أول من ساند حقوق المرأة هو النبى محمد الذي شجع نسائه على العمل في التجارة والمشاركة في الحروب, وساعدهن في الأعمال المنزلية. فمحمد هو نبي الإسلام الذي ظهر في القرن السابع الميلادي وهو القرن الذي مات فيه أيضا. ومر منذ ذلك التاريخ أكثر من ألف وأربعمائة عاما, ولا توجد دولة عربية تقريبا لا تشغل فيها المرأة منصبا رياديا.

لقد ولت الأيام التي جلست فيها المرأة في البيت فقط, من أجل تربية أطفالها؛ فالنموذج النسائي تسيطر عليه الآن قيم تحقيق الذات, ومراعاة الجمال, بل وحتى ارتداء بنطلونات الجينز الضيقة. كما أن الفتيات غير متعجلات في البحث عن الزوج؛ فهي تريد إنهاء تعليمها الأكاديمي والعثور على وظيفة أولا, وتؤجل مسألة الزواج إلى مرحلة متأخرة. يمكن أن تجد المرأة في مجالات: الأعمال, والإعلام, والتعليم الأكاديمي, وفي أي مكان لا يمنعها القانون أو العائلة من المشاركة فيه.

في السعودية, أصبح من المسموح للمرأة أن تستأجر غرفة في فندق بمفردها, بدون الحاجة إلى محرم. وفي الكويت والبحرين, يسمح للمرأة باستخراج جواز سفر خاص بها دون أن تكون مضافة على جواز سفر الزوج أو الأب. وفي المغرب تم تغليظ عقوبة العنف ضد النساء. وفي مصر المرأة في الواقع هي الرجل في البيت فالقرار يكون لها في الأمور المهمة. وفي دبي يزدهر سوق خفي من جراحات ترقيع غشاء البكارة قبل الزواج, بدون علم الزوج الجديد.

رغم كل ذلك إلا أن الطريق لاتزال طويلة من أجل التحرير الكامل للمرأة؛ ففي السعودية, التي تتحسن فيها مكانة المرأة بشكل تدريجي, محظور عليها قيادة السيارات, وتضطر إلى استئجار سائق شخصي. وفي الأردن من المسموح قتل المرأة أو الفتاة إذا شك زوجها أنها لوثت شرف العائلة. وفي القطاع الكردي من العراق تعتبر كلمة الرجل بمثابة أمر بالنسبة للمرأة. ولا يزال الرجال يحرمون زوجاتهم من حرية التنزه في الحدائق بمفردهن, أو الخروج للعمل, أو المشاركة في الانتخابات.

ويعتقد الباحث والمفكر السعودي حسن بن سالم "إن الرجل هو المعضلة الحقيقية التي تعوق المرأة في مواضع مختلفة من حياتها," , ويضيف "لا دليل في الكتابات الإسلامية على أن الرجل مسؤول عن مهام المرأة وخياراتها."

إن ثورة المرأة ناعمة, ربما كانت بطيئة نوعا ما في نظر البعض. لكن بالمفهوم التاريخي للوقت تعتبر هذه العملية سريعة. وليس فقط أن مستقبل المرأة مهدد. فمسألة وضع المرأة هي رأس الحربة في المعركة الضارية بين الليبراليين وبين المحافظين حول هوية المجتمع العربي في العالم الحديث. فالمعسكران يعلمان جيدا أن حسم الصراع حول طبيعة المجتمع العربي سيكون بشكل كبير في المعركة بين الجنسين. لذلك فليست هناك قضية تثير الغرائز, وتلفت الانتباه وتثير الطرفين أكثر من القضايا المرتبطة بوضع المرأة ومكانتها.

ترتدي السروال

تم إزعاج وجبة الإفطار التي يتناولها المئات من رواد مقهى مسعدة في وسط العاصمة السودانية الخرطوم؛ حيث داهمت قوة من الشرطة المكان وانتقلت بحرص شديد بين المناضد. وبعد نصف ساعة عاد رجال القانون إلى قسم الشرطة ومعهم 13 شخصا مقبوضا عليهم وجميعهم من النساء. والذنب الذي اقترفنه هو أنهن ارتدين السراويل.

سجلت بيانات المعتقلات لدى المحققين ثم أرسلن إلى بيوتهن. وكان من بينهن أجنبيات ومحليات من جنوب السودان. إحداهن لبنى أحمد حسين, أرملة تبلغ من العمر 33 عاما, من الخرطوم, والمتحدثة باسم بعثة الأمم المتحدة في الخرطوم, وصاحبة عامود نقدي في إحدى الصحف. كانت قد ارتدت في نفس اليوم سروالا فضفاضا, وغطت رأسها بإيشارب ملون تدلى على كتفيها. أوصى المحققون بتقديمها للمحاكمة. وكان قد تم إطلاق سراح اثنتين من أصدقائها, أما العشرة الباقية فقد عوقبن بالجلد عشر جلدات, يمكن استبدالها بالغرامة. واخترن جميعهن الغرامة, ودفعن 250 جنيها سودانيا بما يقدر بحوالي المائة دولار أمريكي, وذهبن إلى حال سبيلهن. أما لبنى حسين فقررت خوض المعركة.

استند رجال الشرطة في تقديمها إلى المحاكمة إلى المادة 152 من القانون الجنائي السوداني, الذي أثار جدلا شعبيا شديدا. فهذه المادة تحظر "العمل الفاضح في المكان العام, وتفرض على الجميع الالتزام بالآداب العامة", أو "ارتداء ملابس محتشمة". ويعتبر السروال من الملابس الممنوعة لدى دوائر المتشددين, ليس فقط في الاسلام, لأنه يظهر ملامح جسد المرأة.

وبعد ثلاثة أسابيع حضرت لبنى محاكمتها ولم تصدق أن ذلك يحدث لها. وانتظرها في القاعة ممثل النيابة يملؤه الحماس وطلب من القاضي توقيع أقصى عقوبة عليها – أربعون جلدة وغرامة 250 جنيها. قال نبيل أديب, محامي لبنى, أن السروال الذي لبسته لبنى لم يظهر في الحقيقة ملامح جسدها وحافظ على الحشمة المطلوبة. كما ذكر أن لبنى حسين تعمل في الأمم المتحدة, وهي الوظيفة التي تمنحها حصانة دبلوماسية من بعض العقوبات الجنائية. أما ممثل النيابة فذكر أنها أخفت هذه المعلومة في التحقيق معها, حينها انتفضت لبنى وقالت إنها تتنازل عن حصانتها وأنها مستقيلة من عملها, ورفضت عرض الرئيس الفرنسي نيكولاي ساركوزي منحها اللجوء في باريس وإدارة معركتها من هناك.

وقالت "أنا أريد أن أحاكم كمواطنة, أنا لست فوق القانون," . تأجلت المحاكمة لمدة أسبوع, ومن تلك اللحظة تطاير الخبر عن تلك الواقعة. فباستقالتها سمحت لبنى للمحكمة بمواصلة الإجراءات وكشفت عورة القانون المحلي وعادة السلطات جلد النساء كعقوبة لهن على ارتداء الموضة.

كما قال "أنا أريد أن يعرفوا الحقيقة", " أن يسمع صوت النساء. قصتي ليست مؤامرة شخصية ضد كاتبة, وليست بمبادرة بعض رجال الشرطة. تلك قصة عشر نساء حكم عليهن بالجلد."

وصلت لبنى حسين العنيدة إلى قاعة المحكمة برفقة ساسة وممثلين من وسائل الإعلام وعشرات المتظاهرين الهاتفين, معظمهن من النساء اللائي يرتدين السراويل, داعين إلى إلغاء المادة رقم 152. اضطرت قوات الأمن إلى استخدام الغاز المسيل للدموع والهراوات لتفريق المتظاهرين, وهذه الخطوة ساعدت على إبقاء القضية محل اهتمام عالمي.

لم تردع, الاضطرابات التي اندلعت, القاضي وحكم عليها بأقصى عقوبة حددها القانون. منذ تلك اللحظة بدأت لبنى حسين حملة شعبية هدفها التصعيب على قضاة الاستئناف في المحكمة الدستورية العليا. كما لم تخجل ونشرت بين 500 من أصدقائها على الفيسبوك دعوة شخصية لمشاهدة تنفيذ الحكم.

وقالت بعد ذلك "لو قررت المحكمة الدستورية العليا أن المادة 152 تتماشى مع الدستور، فأنا مستعدة لتلقي ليس فقط أربعين جلدة لكن أربعين ألف جلدة." . "إن هدفي الأساسي هو إلغاء هذه المادة، لأنها تخالف الدستور والشريعة الإسلامية. ولو وجد أحد في الشريعة مبررا لضرب النساء بسبب ملبسهن، فليرنا أين مكتوب ذلك في القرآن والسنة. أنا بحثت ولم أجد."

كشفت لبنى للعالم كله في معركتها مجموعة التشوهات في القانون السوداني؛ حيث أظهرت أن الشرطة ليس لديها فقط سلطة التحقيق والاعتقال بل أيضا المحاكمة والعقاب. وبفضلها علم الجميع أن المعتقلين في السودان يصعب عليهم تعيين محامٍ عنهم، وأن معظم العقوبات تنفذ خلال فترة وجيزة بعد إصدارها في المحكمة، دون أن يسمح للمدان استئناف الحكم. كما كشفت القضية تناقضا بين مواد القانون التي تفرق بين القانون والدستور السوداني، الذي يدعو إلى المساواة بين الجنسين، ويحدد بضرورة الفصل بين السلطات.

قالت لبنى محتجة أيضا "لا يوجد في نص القانون أي تطرق لقضية ما هو السروال المناسب، وما هو السروال غير المناسب،" "ما علاقة الملبس."

بعد شهرين من اعتقالها حضرت لبنى حسين إلى المحكمة الدستورية العليا، ومعها ما تحتاجه. ولقد منحها قضاة الاستئناف مخرجين من العقوبة؛ حيث أعفوها من عقوبة الجلد وفرضوا عليها غرامة 500 جنيه (حوالي مائتي دولار أمريكي)، أو شهر حبس. أعلنت لبنى على الفور أنها متنازلة عن حقها في الاختيار وأنها تمضي بفخر إلى السجن، غير أن رئيس نقابة الصحفيين، محيي الدين تيتاوي، قرر إنقاذها وإنقاذ السلطات من هذا الحرج، ودفع الغرامة من أموال النقابة ووضع نهاية لهذه القضية.

مسموح لها بالتوقيع

وضعت المحامية المصرية أمل سليمان عفيفي تحديا أمام المؤسسة الدينية المحافظة؛ حيث قدمت لمحكمة الأسرة طلبا بالحصول على تصريح للعمل كـ"مأذونة"حو ِل الطلب إلى لجنة خاصة في وزارة العدل لاتخاذ قرار بشأنه؛ حيث تمت الموافقة على الطلب. بذلك أصبحت عفيفي البالغة من العمر 32 علما أول مأذونة مسلمة في العصر الحديث، وهي المرأة الوحيدة من بين أحد عشر ألف رجل في هذه المهنة. وبعدها ببضع شهور سارت الإمارات العربية على درب

مصر وعينت فاطمة عواني لتكون أول مأذونة في الإمارات. كان اختيار المحامية عفيفي اعترافا نسائيا واضحا من قبل المؤسسة الدينية في القاهرة, غير أنه في نهاية عام 2008, قبل اتخاذ قرار حول كيفية أكل الكعكة الناضجة, نجحت المحامية المصرية في تقسيم هذا المعسكر.

اعتقد معظم رجال الدين أنه من الناحية الشرعية مسموح للمرأة شغل هذه الوظيفة. وقال الدكتور عمر مختار, أستاذ بجامعة الأزهر "لا يوجد أي مانع شرعي لعمل المرأة كمأذونة, شريطة أن تكون ماهرة في إجراءات التسجيل وإعداد العقد,".

غير أن آخرين خشوا من وجود مخالفات دينية في النضال الريادي للمحامية عفيفي. وبرروا ذلك بأن مراسم الزواج مرتبطة بالاختلاط بجمهور المدعوين, الذين يكون هناك الكثير من الرجال من بينهم. كما أن المأذون ،مطالب أثناء المراسم بإمساك القرآن بيديه وتلاوة بعض الآيات أمام الحاضرين, وبذلك يصبح هو مركز الحدث, ومركز اهتمام أبناء الجنس الآخر. وهناك مشكلة أخرى مرتبطة بالطهارة, والجنابة, والمرأة التي أنجبت حديثا ولم يمر على ولادتها 40 يوما, وكذلك المرأة في فترة الحيض, فمحظور عليهم جميعا مس القرآن الكريم.

في النهاية تم إيجاد حل لذلك, فذكر الدكتور مختار أن أحد الحاضرين يستطيع أن يقرأ الآيات القرآنية بدلا من السيدة, شريطة أن تقوم هي نفسها بكتابة صيغة عقد الزواج. ومن لحظة العثور على المخرج, لم تكن هناك أي مشكلة تشريعية, بل سياسية – فهل الدولة مستعدة لمنح المرأة موطيء قدم في عالم كان محفوظا للرجال فقط. وبتصديق السلطات العليا حسم موظفو وزارة العدل الأمر لصالح المحامية أمل عفيفي.

وفي أول مراسم زواج قامت بها حضرها والداها, ولقد تحفظ العريس وهو أحمد مختار الفقي 25 عاما, منها -المأذونة- في البداية, غير أن والده أقنعه بقبولها. أما العروس, داليا سمير عبد السلام, 23 عاما, فقد وافقت على الفور. رفضت المحامية أمل عفيفي ارتداء الزي الديني التقليدي للمأذون, كي لا تشبه الرجال. كما امتنعت عن وضع يدها فوق أيدي العريس والشهود. وقامت بإتمام المراسم على أكمل وجه, وتلت بعض الآيات القرآنية على الحاضرين, وطلبت منهم قراءة الفاتحة, ومع انتهاء مراسم عقد القران أعلنتهما زوجين.

وخرج الجميع سعداء: والدا العروسين, ووالدا المأذونة.

نحن نقود بطريقة مختلفة

سيدة تبلغ من العمر 69 عاما اصطدمت بسيارة يقودها طفل يبلغ من العمر 14 عاما, ماتت المرأة في الحال, وأصيب الطفل إصابات بسيطة. في أي دولة أخرى كان الطفل الصغير سيكون هو محل الاهتمام في هذه القصة, لكن الأمر ليس هكذا في السعودية, حيث يحظر على النساء القيادة نهائيا.

وفقا لفتوى, محل جدل, أصدرها الشيخ عبد العزيز الباز عام 1990, بأن قيادة النساء حرام شرعا. بعدها بشهور, قامت 47 امرأة من أنصار حقوق المرأة برد فعل انتقامي؛ فقمن, دون إخبار السلطات, بالخروج إلى شوارع العاصمة الرياض وهن يقدن 15 سيارة في آن واحد, وأعربن عن احتجاجهن المسبب. تم القبض عليهن وقضين الليلة في تحقيق, لكن القضية لم تصبح القضية منذ ذلك الوقت محل اهتمام الرأي العام, وأصبحت, في واقع الأمر, رمزا لنضال المرأة السعودية.

قال الشيخ عبد العزيز بن فوزان, أحد معارضي التغيير "هن يرغبن في الخروج إلى الشوارع كالعاهرات, سافري الوجوه, كما نرى في المجتمعات الغربية,", "لو أنها قادت السيارة, فستكشف وجهها, وستسافر بدون محرم وستتاح لها فرصة طيبة لمقابلة الشباب والفتيات, وستختلط بالرجال. في رأيي ليس هناك على مدى التاريخ الإنساني إمرأة تم قمعها أكثر من المرأة الغربية."

نظرا لمثل هذه المواقف كان من الصعب على السلطات, على مدى سنوات, تعديل القانون ليسمح للسيدات بالحصول على رخصة للقيادة. ولقد حاول الملك عبد الله بن عبد العزيز, دفع هذه القضية, لكنه ووجه بالمتشددين. وقال معزيا نفسه والشعب "سيأتي ذلك مع الوقت ، فالصبر جميل."

مئات الآلاف من النساء السعوديات (يشكلن خمسة بالمائة من الأيدي العاملة) يعملن في مجالات الأعمال, والسياحة, والتعليم العالي, والصحافة. ويمسكن في أيديهن صلاحيات كثيرة ولكن ليس عجلة قيادة السيارة. والمتمعن الغريب في الأمر لا يسعه سوى الاندهاش من هذا الحظر. فلو أردن إقامة أي علاقة مع رجل لكان ذلك سهلا – سواء في الحي أو محل العمل.

فتوجهن نساء المملكة آسفات إلى دول مجاورة, خاصة البحرين, وأطلقن العنان لأنفسهن في إشباع رغبتهن بإمساك عجلة القيادة . لكن لم تستطع كل واحدة السماح لنفسها بذلك, وليس

في كل وقت رغبت فيه في ذلك. فقد أدى هذا الواقع إلى خرق للقانون بالجملة. فتجرأت النساء على القيادة, على الرغم من الحظر, وقد مالت الشرطة, خاصة في المناطق البعيدة أو القروية, إلى غض الطرف عن الأمر. ولقد أثيرت القضية من جديد مرة كل عدة شهور, غالبا عندما تكون هناك سيدة طرف في حادث طريق أو في حالات خاصة أخرى.

وقعت إحدى هذه الحالات في صيف 2008؛ حيث اندلع حريق في أحد البيوت السعودية, وحوصر الأب والأبناء في البيت وكادوا أن يختنقوا, ونجحوا في إنقاذ أنفسهم, لكنهم احتاجوا إلى الرعاية الطبية. فقامت الإبنة رويدا, التي لم تصب في الحادث, بنقل الأسرة بالسيارة إلى المستشفى. وبعد عدة أيام من العلاج خرج الأب والأطفال سالمين, ووجدوا قصتهم في صدارة صحافة المملكة. لقد كانت العظة واضحة للجميع, ليس فقط بأن من حق المرأة الحصول على رخصة قيادة, لكن, في بعض الأحوال, قد تنقذ هذه الرخصة الأرواح.

إذن كيف تحقق هذه السيدات رغبتهن؟ وكذلك بناتهن؟ الحل الأشهر هو استئجار سائق خاص. يبدو أنه حل مريح, لكنه يثير مشكلتين أساسيتين؛ فهناك حوالي مليوني رجل, حوالي 9 بالمائة من السكان, تم تجنيدهم للعمل في هذا القطاع لخدمة النساء. معظمهم من العمال الأجانب, من الدول الأسيوية والأفريقية. ويخلق تشغيلهم مشكلة ديموغرافية لا يمكن التنبؤ بنهايتها. والمشكلة الثانية ترتبط بالأمر ذاته؛ فإذا كان الغرض من الحظر هو إبعاد المرأة عن الرجل الأجنبي, فكيف يرافقها الرجل الآن بالظل

سيدتي, أستدفعين نقدا وعدا؟

في ذروة الجدل الشعبي حول منح رخصة قيادة للمرأة, قررت الحكومة السعودية إزالة قيود أخرى منها حظر مبيت السيدات بمفردهن في الفنادق. حيث أعلنت وزارة الداخلية أن المرأة التي ترغب في استئجار غرفة لا تحتاج إلى أن تكون في صحبة الزوج أو الأخ أو الأب.

أصل هذا الحظر أخلاقي؛ فقد جاء ليمنع ارتفاع معدل الزنا في الفنادق, لكنه سبب, فعليا, الكثير من المشكلات في الحياة اليومية. فالسيدات اللائي طردهن أزواجهن من بيوتهن, أو وجدن أنفسهن في المدينة بعد يوم عمل مضن, جئن إلى الفندق في ساعة متأخرة من الليل ورفض استقبالهن وفقا للقانون, أوطلب منهن إحضار أحد أفراد العائلة ليبيت معهن. وفي التعديل

الجديد تحدد بأن يطلب موظف الاستقبال من المرأة إثبات الهوية, وإبلاغ أقرب نقطة شرطة بوجودها في الفندق.

قررت بعض سيدات الأعمال تحويل قرار السماح إلى مشروع فأقمن في العاصمة السعودية الرياض فندقا به 25 غرفة, للنساء فقط, وتحت إدارتهن, ضم قاعة مؤتمرات, وقسم للتريض, وقسم للاستجمام, تمتع فيه الضيوف بمائة وخمسين نوعا من العناية. ولم يطلب من أي زائرة تقديم بطاقة هويتها, ولم يخبر أحد الشرطة بمجيئهن.

السقف الزجاجي

هل مسموح للمرأة شغل منصب محافظ؟ أو قيادة الدولة؟ أو العمل قاضية, وزيرة, أو عضو في البرلمان؟ فقد شغلت المرأة في العالم العربي, والعالم الإسلامي هذه المناصب, كما تسمح الشريعة الإسلامية بذلكففي باكستان عينت امرأة في رئاسة الحكومة (بناظير بوتو), وكذلك في تركيا (تنسو تشيلر), كما شغلت السيدة ميجاواتي سوكارنوبوتري منصب الرئيس. إن التاريخ العربي مليء بالنساء اللائي تفوقن في مختلف المجالات. وهكذا كانت "بلقيس" ملكة سبأ, التي قادت اليمن في العصر الجاهلي, قبل ظهور الإسلام. كما سجل التاريخ العثماني بعض الحالات التي أدارت فيها الأمهات أو الزوجات شؤون الدولة المعقدة, نظرا لضعف السلطان.

المرأة في معظم الدول العربية نشيطة للغاية في مجال الأعمال, فهي تعمل محاضرة في الجامعة, وقاضية, وتشغل في بعض الدول (العراق, البحرين, قطر, لبنان, سوريا) منصب وزير. وفي سوريا تم تعيين السيدة نجاح العطار نائبة للرئيس بشار الأسد.

كان تنوع المناصب أمام المرأة في مهب عاصفة سياسية في القاهرة في أعقاب الفتوى التي نشرها المفتي الدكتور على جمعة ردا على أسئلة وجهت إليه؛ حيث قال جمعة إنه مسموح للمرأة رئاسة الدولة, لكن ليس قيادة الأمة الإسلامية. فهذا المنصب –الخليفة- هو من حق الرجال فقط. ووفقا للتراث الإسلامي فإن الخليفة هو خليفة للنبي محمد, وخليفة لله على الأرض. وهكذا كان الخلفاء الراشدون الأربعة الذين ورثوا خلافة رسول الله بعد وفاته. ولقد اعتمد المفتي في فتواه على الحديث الشريف المنسوب للرسول محمد الذي قال فيه: عن أبي بكرة رضي الله عنه قال:

" ـ لقد نفعني الله بكلمة سـ ـمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الجمل بعد ما كدت أن
ـ ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم ـ قال : ـ لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل
ـ فارس قـ ـد ملكوا عليهم بنت كسرى قال : ـ لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة "[5]

ولقد قال المفتي المصري أن منصب الخليفة يتطلب ممن يشغله أن يأم المسلمين في الصلاة, والإمامة في الصلاة من حق الرجال فقط, لذلك لا يجوز أن تشغل سيدة هذا المنصب. ولقد حصلت هذه الفتوى على تأييد الدكتورة سعاد صالح أستاذ الشريعة الإسلامية.

وقالت سعاد صالح "إن تحريم الرسول هو في الإمامة الكبرى, لكن ليس في الإمامة الشعبية, ولو وجدت في الدولة الإسلامية امرأة لديها القدرة واختارها الشعب بالطرق الديمقراطية البرلمانية (لترأسه) فليس هناك مانع شرعي في ذلك."

لا يوجد لهذا الجدل تطبيق عملي في العصر الحديث, فمنذ عام 1924, عام انتهاء الخلافة العثمانية, لم يوجد خليفة للأمة الإسلامية. ولقد رأت الثورة الإسلامية في روح الله خوميني وخليفته, المرشد الأعلى على خامنئ, حاملي البشارة. لكن الأغلبية السنية لم تعترف بهما. كما أن محاولات التيارات المتشددة في العراق التي ظهرت بعد سقوط نظام حكم البعث, اعتبار نفسها "دولة إسلامية" واستخدموا العنف فيها, ولم تم تحظ بالتأييد الشعبي الواسع.

يكتنف موقف المشرعين تناقض واضح, ففي الوقت الذي يسمح فيه للمرأة بإدارة شؤون البلاد, ورئاسة مجلس من الرجال, بل إعطاء الأمر بالحرب؛ لكن قيادة أمة المسلمين فهذا أمرغير مسموح به نهائيا.

حشمة بلا فائدة

كشفت دراسة أجريت في مصر نتيجة مذهلة, فحوالي 83 % من النساء اللائي يرتدين الحجاب, ذكرن أنهن تعرض للتحرش الجنسي أكثر من اللائي لا يضعنه.

ووسائل التحرش مختلفة, بداية من النظرات, واللمس, حتى كشف بعض أعضاء الجسد. ولقد ذكرت الدراسة التي قام بها المركز المصري لحقوق المرأة أن النساء الأجانب يتعرضن لذلك

---

[5] رواه البخاري (4425)، ورواه النسائي في " السنن " (227/8) وبوب عليه النسائي بقوله : "النهي عن استعمال النساء في الحكم. " (المترجم)

بشكل أكبر. وأن 98 بالمائة منهن قد أبلغن عن تعرضهن لنوع من التحرش. وأن نصف السيدات, سائحات ومصريات, ذكرن أن التحرش أصبح بشكل يومي. وأكدت السيدات الأجانب أن معظم المتحرشين كانوا رجال قانون. واعترف 62 % من الرجال, الذين تم إجراء مقابلات معهم, أنهم اعتادوا القيام بذلك مع النساء.

إن الغرض من الحجاب هو تغطية شعر المرأة المسلمة ومنحها شكلا محتشما؛ ففريضة الحجاب ليست مذكورة صراحة في القرآن الكريم بل في التفاسير. ففي سورة الأحزاب الآية 59 يأمر الله تعالى رسوله: " يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما"

يتفق معظم رجال الدين أن ارتداء الحجاب هو الأمر الإلهي غير أنهم يختلفون فيما بينهم حول صورته. هذا لأن القرآن لم يحدد للمؤمنين المستوى المطلوب لتغطية الرأس, وسمح للناس بمناقشة هذه القضية. وكان الرجال بالطبع هم من أداروا هذا النقاش نيابة عنهن. فوافقوا على ضرورة أن يكون بسيطا على قدر المستطاع, وأن يغطي كل شعر رأس المرأة وألا يكون ملفتا.

رغم ذلك تطورت أشكال الحجاب بمختلف تصميماته وألوانه, حيث أصبح يعرض في بعض الأحوال كموضة. وإلى جانب قطعة القماش البسيطة من لون واحد, التي تغطي الرأس, يمكن أن نجد في الأسواق حجاب يغطي رقبة المرأة بأكملها. وهناك شكل آخر وهو الجلباب, الذي يغطي الجزء العلوي من الجسد ويتدلى حتى القدمين. أما الطراز الحديث من الحجاب فيطلق عليه في اللغة الدارجة (حجاب شوفوني). فهو ملتصق بالرأس, وكثير الألوان, ومزين, وأحيانا مطرز. وعلى عكس الشكل التقليدي فإن هذا الطراز يكشف الأذنين, وبذلك يسمح للمرأة بإظهار القرطين. ولقد صنع هذا الطراز لغطاء الرأس ما لم يفعله آلاف كتاب المقالات, والساسة, والمشرعون, فقد حول هذا الملبس إلى شبه علماني. فالسيدات اللائي يرتدين الحجاب فقط من أجل إرضاء آبائهن, سيفضلن هذا الطراز الحديث. ولا عجب في أنه الأكثر انتشارا خاصة بين الطالبات اللائي يحببن ارتدائه مع الجينز الضيق. سيقول البعض أن هذا حجاب الفتيات الحمقاوات.

يعتبر ارتداء الحجاب في أيامنا ليس فقط طاعة لله, بل أيضا علامة على الحشمة. فالسيدات والفتيات يرتدين الحجاب كتعبير عن احترام آبائهن, وأخواتهن, وأزواجهن, وليس

بالضرورة من منطلق التدين. كما أن البيئة المحيطة, في معظم الأحوال, تحترم أكثر النساء المحجبات.

لقد دمرت نتائج هذا البحث عن التحرش الجنسي الرأي المسبق عن تدين النساء المحجبات. فقد أثبت أن الرجال يبقون رجالا في كل مكان, والمرأة المحتشمة تثير لديهم ذلك.

غطاء الرأس أو خذي على أم رأسك

نظرا لأنه ليس زيا إسلاميا فقط, بل أيضا رمزا ثقافيا, يستخدم الحجاب في كثير من الأحوال كذريعة طيبة للجدل والتصادم بين القيم. ذات صباح استيقظت إقبال أحمد, صحفية وناشطة نسائية كويتية, وقرأت في الصحيفة أن النساء اللائي لا يرتدين الحجاب "سهلة المنال, وتثير شهوة الرجال."

, نشرت هذه الكلمات في صحيفة الوطن الكويتية على لسان الشيخ نبيل العوضي, وهو من جيل رجال الدين الشباب في الكويت. تخرج العوضي في جامعة لندن في قسم الرياضيات, وحصل على تعليمه الديني في كلية الشريعة الإسلامية بجامعة الكويت. ولقد ذاع صيته في الكويت والعالم الإسلامي كواعظ ديني, بفضل برامجه الدينية. كتب العوضي مقاله عن الحجاب في إطار حملته الشعبية لحث المرأة على ارتداء الحجاب.

فمن أقواله "عندما تبلغ الفتاة سن التاسعة, على والديها أن يشجعوها على ارتداء الحجاب, فهو فرض, وتركه ذنب وإثم كبير, عند الله تبارك وتعالى, الذي خلقنا وأنعم علينا بهذا الجسد."

قرأت إقبال أحمد -في الماضي محررة في وكالة أنباء الكويت الرسمية- هذا الكلام وغضبت غضبا شديدا. وإقبال معروفة لدى مشاهدي التلفزيون في الكويت وخارجها, كناشطة مخلصة في الدفاع عن مكانة المرأة في بلدها. وكمن تعيش حياة علمانية كانت أقوال الشيخ إهانة شخصية لها.

توجهت إقبال أحمد للعوضي على صفحات جريدة القبس قائلة "بأي حق تصفني بأني سهلة المنال؟", "لأني كشفت ما حرم الله كشفه؟ لأن صاحب القلب الضعيف, والعين الخائنة يستمتع بالنظر إلي؟ أي دين يسمح لك, يا دكتور نبيل, بأن تتهمني بهذا الكلام البشع, والقول إنه من الممكن أن أكون قد سببت المشاكل بين الرجال وأغويتهم."

لم تتوقف عند هذا الحد وواصلت قائلة: "تقول إنك رجل دين تنشر الفتاوى وتعطي الدروس الدينية," ، وتوجهت إليه كاتبة, "لكني أعتقد أن رجل آخر –غير ملتحٍ, بعيد كل البعد عن الدين, ليس بالشيخ, لم يؤدِ أبدا فريضة الحج, لا يصلي – مثل هذا الرجل أفضل منك. أتعلم لماذا؟ لأنه لا يعلم ما هي النية السيئة, ولا يقوم بإهانة الآخرين, ولا يسمعهم سباب من النوع الذي وجهته لي ولنساء الكويت, اللائي لا يرتدين الحجاب, رغم أنهن نساء محترمات, وطيبات."

هب لنصرته الشيخ فهد الهيلم, رئيس المكتب السياسي للحركة السلفية بالكويت؛ الذي أكد على أن القرآن الكريم يأمر النساء بالحشمة. ومن هنا تأتي الحاجة إلى تغطية الرأس, ولا يجب مخالفة ذلك بحجة الحرية الشخصية.

وقال الهيلم "الحجاب فرض لا خلاف عليه ,والآراء مختلفة حول شكله, فسمح البعض بكشف الوجه والوجنتين, لكن يحرم على المرأة المسلمة القول إنها حرة في كشف جميع وجهها." غير أن إقبال, كما هو متوقع, لم تقتنع ، وقالت "كل شيء فيه تدخل في حريتي الشخصية, خط أحمر بالنسبة لي, أساس الدين ليس الحجاب أو النقاب, بل الرحمة والصبر, والحب وقبول رأي الآخر. هذا هو الدين الذي تعلمته في المدرسة, وورثته عن آبائي, وأجدادي, الذين لم يفوتوا أبدا صلاة الجمعة في المسجد."

سيد جوازه

ليس مصادفة أن تدور في الكويت, المستعمرة البريطانية السابقة, معركة حول قضية مرتبطة مباشرة بمكانة المرأة. ففي الإمارة الصغيرة التي يبلغ عدد سكانها حوالي مليونين ونصف المليون نسمة, هناك حوار شعبي يكاد يكون ليبراليا.

ففي شهر أكتوبر 2009 قررت المحكمة الدستورية إلغاء مادة من القانون الصادر عام 1962 الذي يحظر على المرأة الحصول على جواز سفر, إلا بموافقة الزوج. ومن تلك اللحظة سمح للمرأة الكويتية بإصدار جواز سفر بنفسها, لو أرادت ذلك, دون الحصول على موافقة الأخ أو الأب أو الزوج. كما ذكر القضاة أن هذه المادة الملغية تناقض مباديء الدستور التي تدعو إلى المساواة بين الجنسين وإلى الحرية الشخصية. وقالوا إن حرية التنقل حق أساسي مكفول لكل إنسان. ولقد سارت الكويت على درب جارتها البحرين, التي ألغت قانونا مشابها قبلها بثمان سنوات.

صدر حكم المحكمة الدستورية, والذي يعد نهائيا غير قابل للاستئناف, بعد أن قامت سيدة متزوجة برفع دعوى. فقد أرادت السيدة اصطحاب بناتها الثلاثة في رحلة إلى خارج البلاد, غير أن الزوج رفض أن يستخرج لها جواز سفر. ويفترض أنه في أوقات أخرى كان سيرفض هذا الطلب. غير أن هذه المرة, ليس فقط أن تم قبول طلبها, لكن الحكومة هي التي قدمته. وكان ذلك جزءا من التغييرات التشريعية فيما يخص المرأة في الكويت.

وفي مايو 2005 ،منحت المرأة, لأول مرة, الحق في الانتخاب والترشح لمجلس للبرلمان. وفي الانتخابات, التي جرت بعد حوالي سنة, لم تنجح أي متنافسة في شغل ولو مقعد واحد من بين 50 مقعدا عدد مقاعد المجلس. لكن قبل ذلك, وبعد عدة أسابيع من الإعلان عن تعديل القانون, عين رئيس الحكومة صباح الأحمد, امرأة في منصب قاضية. وبعد ذلك بفترة قصيرة أعلن عن تعيين أول وزيرة كويتية, وهي الدكتورة معصومة المبارك, محاضرة في العلوم السياسية بجامعة الكويت, التي أخذت على عاتقها ملف التنمية والتخطيط الإداري.

وفيما بعد تم تعيين مبارك في منصب وزيرة المواصلات, ثم وزيرة للصحة. ورغم أنها صنعت التاريخ, حقا, لكنها لم تبق في منصبها أكثر من عامين. فلم يعجب الأغلبية السنية في الكويت

تعيين امرأة شيعية في هذا المنصب الريادي. واعتبروا ذلك محاولة من الحكومة لإرضاء الأقلية الشيعية, فضايقوها. وقال حسن كلاف أحد أعضاء البرلمان من السنة مستهزئا "أيها الشيعة, أليس فيكم رجال؟". وبعد اندلاع حريق في إحدى مستشفيات الكويت تقدمت المبارك باستقالتها من الحكومة.

حتى قانون جواز السفر الذي تم تعديله بعد أربع سنوات من فتح باب الحياة البرلمانية أمام السيدات, لم يتم تمريره بهدوء. فقد قال الدكتور سعد العنزي, محاضر الشريعة, بأن منح المرأة الحق في إصدار جواز السفر بدون طلب إذن الزوج يعتبر تشويها للأخلاق. ثم حذر قائلا "نحن نواجه مشاكل اجتماعية, مثل السحاق, إن النساء يرغبن في تجربة كل شيء بدون قيود, وهناك المحطات الفضائية, وجو من الانفتاح, أساسه الثقافة الغربية. وقتها فقط تتسلل إلى المجتمع الكويتي أفكار غريبة تخالف الشريعة."

في المقابل نجد الشيخ الدكتور عادل الدمخي رئيس جمعية مقومات حقوق الانسان الكويتية, قد وصف قرار القضاة "بالخطوة التاريخية". وأوضح الدمخي –رجل دين ليبرالي- أنه ليس منطقيا منع المرأة من استخراج جواز سفر, خاصة في ظل واقع تندلع فيها الخلافات بين الأزواج. وقال إن منح الرجل حق الاعتراض من الممكن أن يستخدمه الرجل بصورة غير مناسبة.

ثم قال محاولا تهدئة المنزعجين من الأمر "هناك فرق كبير بين استخراج جواز السفر وبين السفر الفعلي, الشريعة الإسلامية تحدد المباديء التي يجب الحفاظ عليها أثناء السفر. فعلى سبيل المثال يجب أن يصحبها رجل لحمايتها, وأن ترتدي ملابس مناسبة حسب الشريعة. إن الحكم لا يتناول مسألة السفر لكن مسألة استخراج جوازات السفر."

وعندما سأل الناس عن آرائهم, ظهر خلاف آخر فيما يخص مسألة إذا كان هذا التعديل هامشيا أم أنه خطوة أولى في عملية حقيقية للتغيير. ولقد قامت قناة العربية التلفزيونية باستطلاع رأي بين متصفحي موقعها, حاولت من خلاله استيضاح القضية, شارك فيه 7,395 من الرجال والنساء من مختلف الدول العربية. واعتقد 42 % أن هذه بداية تغيير مستقبلية ستجلب المزيد من الحريات للمرأة في كل دول الخليج. وتحمس 17 % بشكل كبير؛ حيث قالوا إن

ذلك انتصارا مهما للمرأة الكويتية وبداية طريق جديد لها. غير أن 41 % شككوا في ذلك؛ فهم يرون أن قرار المحكمة الدستورية هو مجرد تعديل إجرائي فقط لن يغير وضع المرأة في شيء.

تعالي يا صغيرتي

رجل يبلغ الستين من عمره من سكان محافظة عسير في جنوب غرب السعودية, توجه إلى والد الفتاة, في العاشرة من عمرها, طالبا يدها. وافق الأب, وبدأ الاثنان في التجهيز لحفل الزفاف. سمعت أم الطفلة, التي طلقها الأب من فترة قصيرة, بالأمر فسارعت إلى تقديم شكوى في الشرطة. وقبل عدة أيام من مراسم عقد القران وصل المحققون إلى بيت الأب وطالبوه بعدم القيام بتزويج ابنته. أصر الأب على إتمام الزواج ووضع معضلة أمام الشرطة. فالقانون السعودي لم يحدد عمر زواج الفتاة, لذلك سمح للأب بفعل ما يريد.

تزويج الأطفال بالرجال أمر منتشر جدا في المجتمعات القبلية في العالم الإسلامي, ففي اليمن وبقية دول الخليج يقوم الآباء بتزويج بناتهن على الرغم من إتمامهن سن التاسعة أو العاشرة فقط. ويكون الرجل في معظم الأحوال إما أرمل أو رجل يرغب في الزواج من زوجة ثانية. فبهذه الطريقة يقوم باستعادة شبابه ويحصل على زوجة صغيرة وقوية تنجب له أطفالا آخرين, وترعاه في شيخوخته. أما والدا الفتاة فيعتبران ذلك حماية لابنتهما من بيئة الرجال التي تعيش فيها. ويعتبر البعض ذلك مصدر رزق لما يحصلون عليه من مهور.

قال أحمد معبي, مأذون من مدينة جدة السعودية, إنه مسموح في الشريعة بتزويج الفتاة وهي بنت سنة من عمرها, شريطة أن يوافق أبوها وأن يحرص العريس على عدم الدخول بها إلا بعد أن تكون مستعدة لذلك. أيبدو الأمر غريبا؟ كلا, فعندما نبحث في جذور هذه العادة نجد أن النبي محمد, الذي هو قدوة المؤمنين, قد تزوج زوجته السيدة عائشة وهي بنت تسع سنين.[6]

كما ثارت هذه القضية لدى الرأي العام في بعض الدول؛ ففي المغرب سمح رجل الدين محمد بن عبد الرحمن بالزواج من طفلة عمرها تسع سنين. وقال "شاهدنا بنات أعمارهن تسع

---

[6] هناك دراسات صدرت مؤخرا تشير إلى عدم صحة هذه الرواية, وأن العمر الحقيقي للسيدة عائشة عند زواجها هو 18 سنة. http://www.algomhoriah.net/atach.php?id=22382 (المترجم)

سنوات قادرات على القيام بالعملية الجنسية مثل الفتيات في سن العشرين, بل وأكثر" . وفي اليمن ماتت طفلة تبلغ 12 عاما عند ولادتها لابنها الأول. وفي مصر صدق مجلس الشعب على قانون يحدد الحد الأدنى لسن الزواج بـ 18 سنة. وقبل القيام بالتصويت على القانون حصل الأعضاء على دراسة حول وجود صناعة كاملة ومتطورة من آباء يزوجون بناتهن الصغار, فقط من أجل الحصول على المال من العريس الذي يكبرها بسنوات كثيرة.

إن من ساهم أكثر من أي شخص آخر في الحوار المجتمعي حول زواج الأطفال كان طفلة يمنية بنت تسع سنين, زوجها أبوها على خلاف رغبتها من رجل يبلغ 28 سنة. الطفلة نجود على الأهدل, صنعت لأصدقائها ما لم تستطع أمهاتهن القيام به من أجلهن. فبعد شهرين ونصف فقط عانت من الزواج الذي فرض عليها؛ فخرجت ذات صباح من بيت زوجها في صنعاء, وأوقفت سيارة أجرة, وذهبت إلى المحكمة. اقتربت من القاضي وطلبت منه أن يأمر بتطليقها. وفي نهاية حوار قصير أمر القاضي والدها وزوجها فايز بتطليقها.

لفتت قصة أصغر مطلقة في العالم الانتباه العالمي. فقد أجبرت الصغيرة نجود المحكمة على قول: لا للتقاليد. علاوة على أنها كشفت للعالم كله أن المجتمع اليمني يخرق القانون, الذي يحدد سن الزواج بـ15 سنة. جاء صحفيون من شتى أنحاء العالم للبحث عن الفتاة المعجزة, فوجدوا امرأة واعدة, حكت بثقة وابتسامة كيف تعرفت على زوجها لأول مرة في حفل خطبتها قبل خمسة أيام فقط من ليلة زفافها. وكيف أراد معاشرتها, لكنه نجح في ذلك مرة واحدة فقط, لمعارضتها له بالقوة. وكيف غضبت من أمها وأخوتها, بعد أن لم تتوقف عن الشكوى, لكنهم أعادوها إليه دائما. وكيف استشارت خالتها التي أخبرتها بالذهاب إلى المحكمة.

وقالت "لن أتزوج مرة أخرى, الزواج بالنسبة لي كابوس مرعب,أنا أكره الرجال وأعتقد أنهم وحوش. الحمد لله, بعد أن تطلقت من زوجي, الذي يكبرني بعشرين عاما, تغيرت حياتي. وعدت إلى طفولتي, وإلى مدرستي."

في الوقت الذي احتفلت فيه الطفلة بانتصارها على التراث القديم, شرت في السعودية قصة رجل من مدينة حائل. قال الرجل لصديقه, البالغ من العمر ستين عاما, أنه غير قادر على الزواج من زوجة ثانية لأنه يخشى زوجته. وكي يظهر له العكس أجاب الصديق, "أعطني ابنتك

وسأثبت لك." غير أنهما لم تزعجهما حقيقة أن البنت قد أتمت العشر سنوات فقط. فالأب موافق على تزويج ابنته, بل وتم الاتفاق على المهر – مائة ألف ريال. لم يسأل أحد العروس. وفي المستشفى التي ذهب إليها الزوجان لإجراء فحوصات طبية لكشف الأمراض الجينية, أعرب الأطباء عن معارضتهم. سرعان ما انتشر الخبر في أنحاء المدينة ووصل إلى هيئة حقوق الانسان. وفي ظل غياب قانون يحظر تزويج الأطفال, اضطرت الهيئة إلى التمسك بالميثاق الدولي لحقوق الطفل, الموقعة عليه السعودية, من أجل طلب إلغاء الزواج.

وقال الدكتور عبد الله حربي باحث سعودي في علم الاجتماع معترضا "هذا الزواج صفقة تجارية, الأب يبيع ابنته, والرجل يشتريها فقط من أجل إشباع شهواته الجنسية."

نهاية القصة: أعلن العريس أنه سيؤجل الزواج لخمس سنوات, حتى تكبر الطفلة وتبلغ أشدها. كان واضحا للجميع أن هذا مخرجا فقط للحفاظ على ماء الوجه, يسمح للعريس بإلغاء الزواج دون أن يبدو أنه استسلم. فماذا سيحدث عندما تصل إلى سن الخامسة عشرة؟ ربنا يستر.

متى الزواج؟

في سوريا في المقابل, فإن مسألة سن الزواج لم تصل بعد إلى التشريع, لكن المشكلة تضج مضجع المهتمين بالأمر. وجد المحامي ميشل شماس من دمشق, تناقضا في القوانين. فالمادة 18 من قانون الأحوال الشخصية أن المرأة تعتبر بالغة في سن 13, والرجل في سن 15. ويبدو أن كل شيء واضح, غير أن التمعن في المادة 16 من نفس القانون تقول إن المرأة يمكن أن تتزوج في سن 17, والرجل ليس قبل 18.

أصل هذه المادة قبل ذلك بسنوات؛ حيث كان يتم اختطاف البنات من أسرهن للزواج برجال أرامل أو رجال يكبروهن سنا. ويقول المحامي شماس أن عصر الخطف من أجل الزواج قد ولى, لذلك يجب إلغاء المادة 18 نهائيا, وتغيير المادة 16, لتحدد أن الحد الأدنى لعمر زواج الجنسين 18 علما. ولقد رفض الشيخ بسام عجد عميد كلية الدعوة الاسلامية في دمشق الارتباط بسن معين وقال إن الفتاة تكون جاهزة للزواج منذ لحظة البلوغ. وذكر أنه وفقا

للعادات فإن سن 17 هو السن المناسب للنساء, واستعان في ذلك برأيين مشهورين – الاجتهاد, والاجماع.

دار جدل كبير في قرون الإسلام الأولى بين الفلاسفة المسلمين حول مسألة المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في فتاويهم. تمسك البعض بالقرآن والسنة فقط. واستقى آخرون, أطلق عليهم "المعتزلة" مصادرهم من عقلانية الفلسفة اليونانية واتبعوا أساليب مرنة؛ فسمحوا للقضاة ورجال الدين بتكوين رأي من خلال عقلهم والتراكم المعرفي لديهم, مع مراعاة الواقع المتغير. وكان هناك حاجة إلى هذه الأدوات خاصة في المسائل التشريعية التي لم تتم مناقشتها من قبل, أو التي ظهرت مع الأزمات. وفي النهاية تم قبول آراء المعتزلة, الذين يعتبروا اليوم التيار السائد من بين المشرعين المسلمين.

وقال الشيخ عجد "تترك الشريعة الإسلامية القرار في يد القاضي. فلو أنها صغيرة جدا, لكنه يعتقد أنها مناسبة للزواج, فيسمح بزواجها. وإن دعوة المحامي شماس غير منطقية, فهي تسلب الكثير من العائلات إمكانية تزويج بناتها على الرغم من وجود الفرصة."

يحرقن أنفسهن عمدا

دعت منظمات نسائية في القطاع الكردي شمال العراق الحكومة إلى التدخل لصالح النساء, بعد الكشف عن إحصاءات مقلقة عن ارتفاع نسبة الانتحار بينهن. وفقا لإحصاءات وزارة الصحة الكردية, فإن 740 امرأة انتحرن في كردستان خلال عام 2007, كما قتل الكثير منهن. لقد حافظ القطاع الكردي, الذي حظى بحكم ذاتي وعدد سكانه حوالي أربعة ملايين نسمة, حافظ خلال سنوات الحرب الأهلية في العراق على نوع من الاستقرار الكبير. غير أنه تحدث من وراء الكواليس أشياء مخيفة. فقد اتضح من إحصاءات وزارة الصحة في القطاع أن العمر المتوسط للمنتحرات في عام 2007 يتراوح بين 15-25. نصف هذا العدد, 380 امرأة, قمن بحرق أنفسهن حتى الموت. وفي المجمل تم تسجيل 4,166 محاولة انتحار في نفس العام, 2,683 منها من بين النساء. وترجع أسباب ذلك إلى العنف من جانب الأزواج أو الآباء, أو تدهور الحالة الاقتصادية.

يجب إضافة إلى نسب الانتحار المرتفعة الكثير من حالات القتل في "جرائم الشرف". وهي عملية قتل للنساء والفتيات بأيدي أزواجهن, أو آبائهن, أو إخوانهن, لأنهن, حسب اعتقادهم,

دنسن شرف العائلة؛ فلبسن ملابس متحررة للغاية, أو عملن في مهن تعتبر ليبرالية, أو أقمن علاقات محرمة. وفي عام 2005 قتلت 59 امرأة على خلفية "جرائم الشرف" بأنواعها. وفي عام 2006 قتلت 118 امرأة. ومن أشهر طرق قتل النساء في القطاع الكردي الرجم حتى الموت.

دعت المنظمات النسائية رجال الدين إلى إصدار قرارات تساعد على تقليص حالات قتل النساء على يد أزواجهن. وأوضحت المنظمات "معظم جرائم الشرف ضد النساء أصلها الفهم الخاطيء للإسلام, إن الدين لا يحرض على قتل النساء أو العنف."

مشكلة "جرائم الشرف" إحدى القضايا الملحة في الحوار الاجتماعي العربي, وليس فقط في القطاع الكردي في العراق. فالقتل من هذا النوع يقوم بتصفية حساب مع نساء قمن بخرق القواعد الأسرية القديمة في التراث القبلي, وهو منتشر في معظم المجتمعات العربية. واضطر المشرع في بعض الدول إلى الخضوع لهذه العادة.

ففي الأردن, يسمح للقاضي بالحكم على الرجل الذي قتل على خلفية شرف العائلة, بستة شهور حبس على أقصى تقدير. ولو أراد القاضي, يمكن أن يطلق سراح القاتل بدون عقاب, شريطة أن يثبت أنه قام بذلك لتطهير اسم العائلة. ولقد باءت كل الجهود لتغيير هذا القانون بالفشل في البرلمان, حتى بتدخل من الملكة رانيا. وفي إحدى هذه الحالات التي حدثت في صيف 2009, قتلت سيدة تبلغ من العمر 40 عاما في قرية بالقرب من عمان, لأنها أقامت علاقة حميمة مع رجل ليس بزوجها. فجاء إخوتها الثلاثة إلى بيتها ذات صباح وبعد خروج أبنائها من البيت, قاموا بطعنها بالسكين 15 طعنة, وبعد أن فاضت روحها, قاموا بإضرام النيران في البيت. وعندما جاءت قوات الإنقاذ لإخراج الجثة من البيت المتفحم, حصلت على مساعدة الأخوة الثلاثة. وفي أثناء التحقيق معهم قال أحدهم إن الدافع وراء القتل هو تدنيس اسم العائلة.

وفي المقابل, ففي القطاع الكردي شمال العراق فإن أقصى عقوبة يقضى بها على القتلة على خلفية "جرائم الشرف" هي ثلاث سنوات. وأيضا في عام 2002 أعيقت محاولة للقيام بتعديل على القانون الذي حدد عقوبة الموت أو المؤبد للرجل على القتل على خلفيات مشابهة. ويعطي القانون القاضي, في كل الحالات, الحق في تبرئة المتهم.

ظهرت مشكلة العنف المفرط ضد النساء على ساحة الحوار العام بفضل مجموعة من الصحفيات اللائي كتبن كثيرا في الموضوع. وكانت أبرزهم الأردنية رنا الحسيني, ففي منتصف التسعينيات بدأت الحسيني في دراسة, بدقة, كل حالة قتل على خلفية "جريمة الشرف" حدثت في الأردن, أو المحاكمة الجنائية للمتهم في هذه الجرائم. وليس مصادفة, وربما كان, أن أول منبر صحفي لها لهذه المبادرة المهنية لم تكن صحيفة أردنية عادية, لكن جريدة الجوردان تايمز, الناطقة بالإنجليزية. وبالتدريج انتقل نشاطها إلى الصحافة العربية في المملكة. وبعد أن حصلت الحسيني على الشهرة المحلية والاهتمام الدولي, ومع ظهور القنوات الفضائية التلفزيونية, أصبحت المشكلة محل اهتمام في الدول العربية.

ورغم ذلك, فبعد مرور أكثر من عقد من بداية رنا الحسيني نشاطها, فمازل رجال أردنيون محتجزون في أقسام الشرطة, بتهمة قتل واحدة من بنات العائلة, وسيخرجون بأدنى عقوبة.

حق الدفاع عن النفس

هاهو شيء مشجع في جهود تقليص العنف ضد المرأة؛ ففي فتوتين أفتى رجال الدين بحق المرأة في أن تقتص من زوجها إذا ضربها. الفتوى الأولى للسعودي عبد المحسن العبيكان حيث سمح للمرأة باستخدام نفس أداة العنف التي استخدمها زوجها ضدها, لو كان في ذلك خطر على سلامتها. وحثها العبيكان على الاستنجاد بالجيران, أو الصراخ, أو الاتصال بالنجدة. حالة واحدة فقط محظور عليها ضربه فيها – إذا استطاعت الفرار وعدم التعرض للضرب المبرح.

أما الشيخ التركي فتح الله جولن, الذي يعيش في الولايات المتحدة فقد اقترح على السيدات اللائي يتعرضن للضرب, أن يتعلمن أحد فنون القتال مثل: الكاراتيه, والجودو, أو التايكوندو. وقال "لو قام الرجل بصفع زوجته, فمن حقها أن ترد له الصفعة صفتعين. فهذا دفاع عن النفس مسموح به," ،كما أشار جولن إلى أن النبي محمد لم يضرب امرأة أبدا, وعلى الرجل معرفة ذلك.

حصلت هاتان الفتوتان على مباركة كبار رجال الدين سنة وشيعة على السواء. والشيء المهم في ردودهم هو الطابع العلماني. فقد دعا رجال منهم إلى الدفاع عن النفس واعترفوا أنه ليس لذلك أي علاقة بعبادة الخالق.

وقال الشيخ عبد الحميد الأطرش, رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف بالقاهرة.
"لا فرق بين الرجل والمرأة, أو بين الفقير والغني, لأن الجميع متساو أمام الله, ولا يجب على المعتدى عليه السكوت عن ذلك."
أما أية الله حسن فضل الله, من كبار علماء الشيعة, فقد اعترف صراحة: "نحن نعتقد أنه ليس في ذلك أي مبدأ شرعي. ومن حق كل إنسان معتدى عليه أن يدافع عن نفسه. وليس للزوج أو الأب أو الأخ أو أي إنسان آخر أي أساس شرعي في ضرب المرأة, خاصة الضرب المبرح. وأن لها الحق في الدفاع عن نفسها."

يعتبر فضل الله بين أبناء جيله رجلا لبراليا ومعتدلا يشجع على التواصل والحوار بين تيارات الإسلام المختلفة, وبين الإسلام والأديان الأخرى. علاوة على تعاطفه مع النساء ومعاناتهن في المجتمع المسلم. ذلك على الرغم من أنه شغل, في بداية حزب الله, منصب الزعيم الأيديولوجي للحركة, ومنح مؤسسها الإطار الشرعي لنشاطهم الراديكالي. كما كان فضل الله من أوائل من حثوا المسلمين على تطوير القدرات النووية, كوسيلة لتقليص فجوة القوة مع إسرائيل والعالم الغربي, والتأسيس للسيادة الإقليمية.

وبعد موته عام 2010 أثارت فتواه بخصوص العنف ضد المرأة موجة كبيرة من الجدل أكثر من وقت نشرها قبل ذلك بثلاث سنوات. فقد دفعت أوكتافيا نصر, لبنانية عملت محررة لشؤون الشرق الأوسط في قناة سي. إن. إن الأمريكية, وظيفتها ثمنا لما قالته عن تقديرها للفتوى بعد وفاته؛ حيث كتبت نصر في شبكة التوصل الاجتماعي توتير: "أسفت لسماع نبأ وفاة السيد محمد حسين فضل الله, أحد عظماء حزب الله, الذين أكن لهم إحترامًا كبيرًا." لم ينفع أوكتافيا التوضيح الذي نشرته على موقع المحطة على شبكة الإنترنت, وذكرت فيه أنها تجل رجل الدين المرحوم لآرائه التقدمية في قضايا المرأة. وتم استدعائها لحوار مع رئيستها, وبعدها تقرر وقفها عن العمل في القناة, بعد عشرين عامًا من العمل.

كذلك أظهرت سفيرة بريطانيا في لبنان, فرانسيس جاي, عدم ارتياح لدى من قاموا بإيفادها بعد أن كتبت على موقع السفارة, إنها حزينة لوفاة فضل الله, لأن العالم في حاجة إلى شخصيات

أخرى مثله تشجع على التفاعل بين الأديان. وكتبت جاي أنها قابلت فضل الله في الماضي وتأثرت بشخصيته كثيرا.

كما قالت السفيرة عنه "تخرج من اللقاء به وتشعر إنك إنسان أفضل بكثير,". والبريطانيون على عكس القائمين على إدارة السي. إن. إن, فقد قاموا بحذف كلمات السفيرة من الموقع. فلم يرغبوا في معاقبتها نوعا ما, بحجة أنها قامت بالتعبير عن رأيها الشخصي فقط. وهذان الحدثان تم تغطيهما باستفاضة في وسائل الإعلام العالمية, ويبدو أنه ليس من قبيل المصادفة أن النساء هم من قمن بذلك.

الإشعاع والليزر

مفتي دبي يبدو منزعجا, فقد عاد مواطنون من شعيرة الحج في مكة المكرمة, منزعجين من رؤية نساء تغطي أذقانهن لحية خفيفة. أسرع المفتي في نشر فتوى قال فيها أن ذلك حرام, بل سمى أولئك النساء "بالآثمات الذميمات".

العقل ينتفض – ما للدين ولحية المرأة؟ لكن الشريعة لها منطقها الخاص. فالمفتي, الدكتور أحمد حداد, يخشى من إزالة الفروق بين الجنسين مما يجعل الناس يرون المرأة رجلا والعكس.

"لعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- النساء المتشبهات بالرجال, والرجال المتشبهين بالنساء, لذلك عليهم الابتعاد عن هذا التشابه."

قصة عن مرأة بلحية وقعت أحداثها في مملكة البحرين المجاورة. ففي أحد أيام الجمع, في الوقت الذي اكتظ فيه المسجد الفاتح في العاصمة المنامة بآلاف المصلين, جاءت امرأة في الأربعينات من عمرها, ودخلت باحة المسجد مرتدية عباءة الرجال, ونظارة وتضع لحية مصطنعة, وجلست في الصف الأول.

قال إمام المسجد, الشيخ عدنان القطان "اقتربت من المنبر وشاهدت رجلا ملتح, يحمل بعض الأوراق في يديه, يريد صعود المنبر, قال لي إنه يريد أن يلقي الخطبة بدلا مني. حينها جاء المؤذن, وأبعده عن المكان ومنع اندلاع الفوضى. تصرف المؤذن معه بهدوء, وأخذه إلى غرفة الضيوف, ومعه بعض المصلين، ثم بدأت في إلقاء خطبة الجمعة على الفور, كي لا ألفت الكثير من الانتباه للأمر."

مع دخول ذلك الرجل غرفة الضيوف لاحظ المؤذن أن صوته رقيقا, وبنظرة عن قرب لاحظ أن لحيته زائفة. مرت بعض اللحظات, حتى أدرك المؤذن أن امرأة هي التي تقف أمامه. وطوال ذلك الوقت والخطبة مستمرة في المسجد, دون أن يعلم أحد بهذا الحادث الغريب.

وقال القطان "قالت المرأة إنها جاءت لتلقي خطبة لمنع الحرب الأهلية, لقد اتضح بالطبع أن المرأة غير سوية". وألقى رجال الشرطة, الذين تم استدعائهم إلى المكان, القبض عليها.

على عكس المؤذن الذي تعامل مع الأمر بهدوء, كي لا يثير المصلين في المسجد, أخذ المفتي القضية خطوة أخرى إلى الأمام.

وقال "المرأة التي تنبت لحيتها يجب أن تحرص على إزالتها, بشكل يضمن عدم عودتها من جديد, كل وسيلة حلال, حتى تقنية الليزر."

أهلا يا قبيحة واصمتي

النساء والفتيات في الدول العربية اكتشفن قسم جراحات التجميل. وأكبر مركزين للقيام بمثل هذه الجراحات هما: دبي, وبيروت, كما ازدهر هذا القطاع في القاهرة أيضا. ومعظم مرضى هذه الجراحات يردن تجميل الشفتين مثلما فعلت المطربة اللبنانية نانسي عجرم, قبل أن تصبح مشهورة. وفضل البعض إجراء عمليات في الصدر, أو شد الجلد. كما قام الرجال والنساء على السواء بجراحات تجميل في الجفون, وشفط الدهون, بل وإزالة الشعر.

أزعجت هذه المسألة القارئة سناء محمود, التي قررت استشارة العالمين بالأمر؛ فأرسلت سؤالا إلى قسم الرسائل بمجلة "عقيدتي" المصرية الأسبوعية. وتساءلت إذا كانت الشريعة الإسلامية تسمح بإجراء جراحات بغرض تجميل أو استعادة نضارة وجه وجسد الشخص.

توجه المحررون بالمجلة إلى الشيخ عادل أبو العباس, الذي قال إذا كان الغرض من الجراحة هو تجميل عيب ظاهر يسبب الألم لمن هو مصاب به, فلا بأس فيه. لكن إذا أردت مجرد التجميل, فحاشى لله. فالله لا يسمح بالتدخل في خلقه بدون مبرر. ولقد استشهد الشيخ العباس على كلامه بقول النبي محمد: "لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله"، إنه بالفعل رأي مستشهد عليه, لكن القليل جدا هم من أخذوه على محمل الجد, وشاهد على ذلك الطوابير على أبواب عيادات التجميل. أحد البنوك في

لبنان, The First International Bank , سمح بالاقتراض من 1000$ حتى 5000$, لمن يحتاج لإجراء عملية تجميل. ولقد ذكر ماهر مزهر مدير مبيعات البنك, أن مكتبه تلقى خلال أسابيع قليلة من إطلاق المبادرة, في أغسطس 2006؛ حوالي 250 طلبا. ولقد صاحب هذه الحملة شعار "الجمال ليس رفاهية" – وهي الفكرة التي يصعب على رجال الدين من أمثال عادل أبو العباس قبولها.

لقد قال الشيخ المصري "أقوال النبي محمد تؤكد على اللعنة ,بأن من قامت ذلك بغرض التجمل وتحسين المظهر بشكل مصطنع, فإنها لن تنال رحمة الله.

هذه إبني

صدق قاض في الكويت على عقد زواج بين امرأتين قالتا له أنهما تريدان بناء أسرة. حضر الاثنتان إلى المحكمة بصحبة الأقرباء وطلبتا عقد قرانهما. القانون في الكويت مثل سائر الدول العربية لا يسمح بزواج المثليين. غير أن القاضي الخبير في القانون, سألهما من الزوج, فأجابت إحداهما "أنا".

وافق القاضي على تزويجهما بدون مشاكل خاصة, وصدق على عقد الزواج. الحديث هنا كما يبدو عن خطوة غريبة, فالشريعة الإسلامية, المصدر الأساسي للتشريع في الإمارة, لا تسمح بزواج المثليين. لكن الواقعة التي أمامنا كانت مختلفة للغاية. فتلك التي قالت "أنا" لم تكن سوى رجل في مظهر امرأة, مرتديا ملابس امرأة. ووثائق إثبات الهوية الخاصة به/بها تثبت أنه ذكر في كل شيء. وعندما سألت إذا كانت أحضرت معها من يشهد على عذوبيتها, أشارت على الفور إلى أبيها الحاضر في قاعة المحكمة. قال الأب "هذه إبني, وأنا موافق على زواجه بهذه المرأة."

بأمر القاضي حصل العريس على حقه وفقا للقانون – أرض من الدولة لتشييد منزل, وقرض ومنحة بقيمة أربعة آلاف دينار كويتي. وكان كل الأطراف سعداء, وعاد العروسان إلى منزلهما متزوجين وسعداء, وتصدرت الصحافة عناوين أول زواج مثلي, أما الدولة فقد تخلصت من التخبط بين حاجة الفرد والتحريم الديني.

صاحبة البيت جن جنونها

كم عدد الرجال الذين يسمح للمرأة بالزواج بهم؟ هذا السؤال لا يبدو محل نقاش, غير أنه طرح فجأة من جديد؛ وذلك بفضل الصحفية السعودية التي نشرت مقالا مثيرا للجدل في صحيفة مصرية. الصحفية نادين البدير, كانت معروفة بأنها صاحبة آراء حادة في كل ما يتعلق بعلاقات الرجال بالنساء, لكنها هذه المرة فاجئت حتى من يعرفونها.

ففي مقال بعنوان "أنا وأزواجي الأربعة", كتبت تقول: " ائذنوا لى أن أزف إلى أربعة.. بل إلى خمسة. أو تسعة إن أمكن. فلتأذنوا لى بمحاكاتكم. ائذنوا لى أن اختارهم كما يطيب لجموح خيالى الاختيار. اختارهم مختلفى الأشكال والأحجام. أحدهم ذو لون أشقر وآخر ذو سمرة. بقامة طويلة أو ربما قصيرة. اختارهم متعددى الملل والديانات والأعراق والأوطان. وأعاهدكم أن يسود الوئام."

إن تعدد الزوجات لأمر راسخ في المصادر الإسلامية وذلك لزواج النبي محمد باثنتي عشرة امرأة في حياته, "أمهات المؤمنين". وفي اقتراحها المساواة بين المرأة والرجل في هذه القضية خرجت البدير ضد الفكرة الراسخة في التراث العربي والإسلامي منذ بداياته, وفتحت جبهة جديدة ضد مؤسسة كاملة.

قام المحامي المصري, خالد فؤاد حافظ برفع دعوى قضائية ضدها وضد الصحيفة بتهمة "الإزدراء والحث على الرذيلة", لكن الجدل الحقيقي دار على صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون, وما أغضب المعارضين ليس فقط هدم المتفق عليه, لكن أيضا لغة الكاتبة الوقحة, حسب رأيهم. أضافت البدير وكتبت أنه ليس في مقدور تعدد الزوجات حل مشكلة الضجر وفقدان الرغبة في الزواج. فمن يسأم من امرأة واحدة, سيسأم كذلك من الثانية والثالثة.

قالت "لن تشتعل حرب أهلية ذكورية، فالموحد امرأة." وواصلت التحريض في نفس المقال المثير للجدل, " اخلقوا لى قانونا وضعيا أو فسروا آخر سماويا واصنعوا بندا جديدا ضمن بنود الفتاوى والنزوات."

حاول الكاتب المصري الدكتور أيمن الجندي الرد على بدير وكتب: "هل هذا هو عدم العدل الوحيد؟, فماذا عن عدم المساواة في الميراث؟ وماذا عن صور التمييز الأخرى, مثل الصحة والجمال؟ لماذا يولد البعض أسوياء والآخرين مرضى؟"

في سورة النساء يسمح الله للرجال "... فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ..."[7] "إن مصدر التشريع ليس إشباع الغريزة, بل الحاجة إلى حماية أبناء الأسرة إذا ماتت أمهم, أو طلقت. وفي المقابل فالشريعة الإسلامية تحظر على النساء الاستمتاع بتعدد الأزواج, خشية المساس بالنسب؛ فلن يعرف أحد من هو أبو المولود.

قال الدكتور عبد الفتاح إدريس رئيس قسم الفقه المقارن بكلية الشريعة بالأزهر الشريف "يجب التوقف عن الدعوة إلى تعدد الأزواج, هذا ليس تعبيرا عن فكر معتدل لكن شاذ. هذه طريقة لهدم أخلاقيات الأسرة, أراد الله لها أن تكون نواة لذرية سليمة تعمر الحياة على الأرض."

ولقد ردت البدير على ذلك قائلة: "العبودية أيضا موجودة في القرآن, لكن الحكومات حظرتها. فلماذا لا يمنعون تعدد الزوجات؟ فلو مسموح بالزواج بأكثر من امرأة فليسمحوا لنا أيضا بالزواج بأكثر من رجل."

ولدت نادين بدير في السعودية عام 1978 لأب رجل أعمال وأم ربة منزل. وعملها كجلادة نسائية اكتسبته البدير من سلسة مقالات نشرتها في صحف الكويت, والبحرين, ومصر, والسعودية.

في الوقت الذي نشرت فيه مقالها عن تعدد الأزواج كانت في قمة نجاحها المهني, فقد أقامت في دبي وقدمت برنامجا في قناة "الحرة" التلفزيونية, تستضيف فيه النساء الناجحات بعنوان "المساواة". سعدت البدير بأن يطلقوا عليها لقب "نوال سعداوي الخليج", على اسم الطبيبة المصرية التي سبقتها بعقود في كفاحها ضد قمع الرجال. غير أن البدير, على عكس السعداوي, لديها صفة أخرى جذبت إليها الكثيرين, وهي أنها جميلة للغاية ممشوقة القوام, لم تضع الحجاب.

وكتبت في أحد مقالاتها "الرجل يعتاد التفاخر بأجزاء جسده العارية, أما المرأة فتتباهى بملابسها, على الرغم من أن المنطق يقول إنه إذا كان على أحد أن يتحفظ من جسده, فالرجال هم الذين يجب عليهم الخجل, حيث إن جسد المرأة هو الأجمل, والجمال هو الذي يجب أن يسود الشارع وليس العكس."

---

[7] النساء (3)

في مقال آخر أصرت على السخرية من حقيقة أن الرجل العربي محظور عليه تقبيل زوجته في الشارع أمام المارة, لكن الصراخ فيها مباح. بالطبع

لو فكر أحد للحظة أننا أمام ناشطة نسائية من نوع آخر, لسارعت نادين لتثبت له خطأه. ففي مقال آخر نشرته في صحيفة الرأى الكويتية كتبت عن الناشطات النسائيات:

"يردن للمرأة أن تبدو كالرجل، تنزع فستانها الضيق وترتدي بزته وبنطاله لتثبت أنها امرأة عاملة نشيطة. تنزع الكعب كونه يعيق حركة التمرد. لا تضع مساحيق التجميل. تترك جسدها يسمن ويترهل. وتنكش شعرها وتدع الشيب يغزوه. باسم التحرر من قيود الماضي.

باختصار هي تحارب قوانين مصممي الأزياء الذكور لكنها تقلد كل شبر في الذكور. وهذا الأمر يخيف النساء، إذ يدفعهن للربط بين الدعوة للمساواة وبين التحول إلى مخلوق خشن بشع. المطالبة بالمساواة شيء يتعلق بالقوانين والحقوق والواجبات، ولا علاقة له بإهمال جمال الأنوثة كدليل تحرر، أو بالمنافسة في الشكل. لأن الاختلاف الجسدي بارز بين المرأة والرجل."[8]

قبل ثلاث سنوات فقط من البدير بدأت المصرية هيام دربك في الترويج لفكرة عكسية. دربك, محررة في مجلة أسبوعية للشؤون العلمية والثقافية. وأسست أول جميعة في الدول العربية لتشجيع تعدد الزوجات. وجمعت مجموعة من النساء المثقفات أمثالها, وبدأن معا في دعوة النساء غير المتزوجات من الزواج حتى ولو برجل متزوج.

ولقد أسمين هذه الجميعة "زوجة واحدة لا تكفي", وبدأن في الترويج للفكرة في المؤتمرات وفي المقالات الصحفية. تم دعوة دربك لإجراء لقاء في قناة الجزيرة وقالت إن الفكرة ظهرت لديها قبل ذلك بسنوات. فصديقتها المقربة دخلت بيتها تبكي بمرارة وقالت لها أن عالمها قد انهار؛ حيث اكتشفت زواج زوجها بأخرى.

قالت دربك "قلت لها هذا حقه. فالشريعة تسمح بذلك, من الأفضل أن يتزوج بزوجة ثانية في العلن, على أن تكون له عشيقة, أو يتزوج في السر, ويثير دائما شكوك زوجته."

---

[8] صحيفة الراي الكويتية 5 ديسمبر 2009
http://www.alraimedia.com/Articles.aspx?id=160906

النساء في مصر وخارجها انتقدنها بشدة, وغضبن قائلات لماذا لا تدعو إلى تعدد الأزواج. لم تتراجع دربك, وقالت لمستمعيها أنه مع مرور الوقت, يرتفع سن الزواج في المجتمعات العربية, وتبقى الكثير من الفتيات بدون زواج رغما عنهن. قالت دربك "الفكرة بسيطة للغاية,لو تزوج رجل واحد بعدة نساء, فإن ظاهرة العنوسة بين الفتيات ستقل. شريطة أن يكون تعامله مع كل زوجاته واحدا."

لم تحلم كل من هيام دربك ونادين البدير أن تتغير عادات آلاف السنين في يوم وليلة. فقد عرفت البدير جيدا إحصاءات المكتب المركزي للإحصاء في مصر, التي تقول أن نسبة تعدد الزوجات بين السكان قد انخفضت في العصر الحديث بنسبة واحد بالمائة بين المتزوجين. وإن رغبة الاثنتان, كل في توجهها, كانت ترسيخ فكرة الحوار المجتمعي, فقد كشفت البدير للجميع تعبير آخر في التراث يكشف عن عدم المساواة بين الرجل والمرأة. أما دربك فأرادت إثارة الاهتمام بقضية "العنوسة" لدى النساء. وأثارت كل منهما جدلا شعبيا ونجحتا في مهمتهما المتواضعة التي أخذتاها على عاتقهما.

الفصل الرابع

إسرائيل واليهود

إعرف عدوك

كيف تبدو دولة اليهود في نظرهم؟ مازال لدينا العديد من الكارهين, شكرا لأنكم تسألون. لكن ولت الأيام التي كان وجود إسرائيل فيها محل شك. فإسرائيل واليهود يثيرون الكثير من الفضول والتحدي في الشارع العربي.

كان يوم السابع والعشرين من مارس 2002, أحد الأيام الصعبة في تاريخ الصراع الفلسطيني-الإسرئيلي؛ ففي عشية عيد الفصح اجتمع في فندق "بارك" بنتانيا أكثر من مائتي شخص على مائدة العيد, ودخل عبد الباسط عودة, والبالغ من العمر 25 سنة من طول كرم, إلى مطعم الفندق, الذي كانوا يحتفلون فيه, مرتديا زي امرأة, ثم قام بتفجير حزام ناسف كان يرتديه, فمات وقتل معه 30 إسرائيليا.

في اليوم التالي انعقدت القمة العربية في بيروت, وأطلقت مبادرة السلام العربية. ترتكز هذه المبادرة على مقترح ولي العهد السعودي –آنذاك-, والتي تضع على أعتاب إسرائيل صيغة للسلام تقضي بأنه في حال انسحابها الكامل من الأراضي العربية المحتلة, والموافقة على إقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية, فإنها ستحصل في المقابل على سلام كامل مع جميع الدول العربية. وهذا المقترح ألغى قرار القمة العربية في الخرطوم, سبتمبر 1967, والمعروف بـ"اللاءات الثلاثة": "**لا صلح ولا اعتراف ولا تفاوض** مع العدو الصهيوني قبل أن يعود الحق لأصحابه."

أنهت عملية نتانيا في ذلك الشهر الصعب للغاية في انتفاضة الأقصى, التي مات فيها 135 إسرائيليا, في عمليات تفجيرية. وفي الوقت الذي انشغل فيه العرب بمقترح السلام الجديد, ومغزاه, لم تتوقف إسرائيل عن الحداد. ففي غداة القمة, وبعد يوم ونصف من هذا الحادث, قامت قوات الجيش الإسرائيلي باقتحام الضفة الغربية, وبدأت عملية "الجدار العازل". وقامت قناة الجزيرة, الوسيلة الإعلامية الرئيسية لعرض الأحداث, بإنتاج فيلم خاص لوصف المعركة في رام الله, وجنين, ونابلس؛ بعنوان "الرد الإسرائيلي على قمة بيروت".

لم يكن الإسرائيليون متفرغون للاستماع إلى رسالة التهدئة من بيروت, فالعرب من جانبهم, يصعب عليهم فهم كيف أن مقترح سلام كله تنازلات تاريخية عن الحلم الفلسطيني من البحر إلى النهر,, يقابل بمثل هذا الرد العدواني. كانت الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر مارس 2002, مختصرا للصراع العربي الإسرائيلي. وكانت هذه أيام الدمار والخراب, والرغبة والأمل, وأكثر من أي شيء – حوار الطرشان.

رغم العداء الذي ظهر بين الأطراف في المائة عام من الصراع, فإنه يوجد لدى العرب فضول كبير نحو إسرائيل واليهود. فتعتبر الدولة العبرية –في نظر جاراتها- دولة عظمى سياسيا,

واقتصاديا, وعسكريا, وتكنولوجيا. وتحظى كل قضية مهمة, حتى لو لم تكن مرتبطة بالصراع؛ باهتمام كبير. فقد علم قراء الصحف في الدول العربية بتورط وزير الجيش الأسبق إسحق مردخاي, في قضية تحرش جنسي, وكذلك بمحاكمة آريه درعي جنائيا, وبالتحقيق مع أريئيل شارون وابنه بتهم الفساد. ولقد احتلت الانتخابات التشريعية للكنيست الإسرائيلي العناوين الرئيسية, وكذلك إذاعة برامج خاصة في المحطات التلفزيونية الرائدة. كما خصصت بعض الصحف أبوابا يومية مترجمة خاصة للمقالات المنشورة في الصحف الإسرائيلية.

من ناحية العرب, ليس كل اليهود سواء, فهم يظهرون الكثير من التسامح تجاه اليهودي الأمريكي, أو اليهودي الفرنسي, أكثر من اليهودي الإسرائيلي, الصهيوني الذي يبدو في نظرهم ممثلا للحكم القمعي لإخوانهم. وقد يحظى يهود الدول العربية بقدر من المودة؛ حيث يعتبرهم كثير من العرب من أبناء شعبهم. ومازالت هناك طوائف يهودية في بعض الدول العربية مثل: مصر, والبحرين, وتونس والعراق, والمغرب, ولبنان.

لقد ولت الأيام التي كانت تعتبر فيها إسرائيل المتهمة الوحيدة المسؤولة عن كل مشكلات الأمة العربية. فمنذ ذلك الحين, خاصة بعد هجمات 11 سبتمبر2001, مال العرب نحو الانطواء الداخلي وطرح أسئلة محددة تخص قضاياهم الداخلية. ولقد حركهم هذا الاتجاه نحو التخلي عن فكرة أن دولة اليهود هي سبب ضعفهم؛ حيث زعم الكثير منهم أنهم لا يعارضون وجود إسرائيل, ولو أنها أنهت الاحتلال لفتحوا لها حدود بلادهم. فشعار "إعرف عدوك" – الذي كان في الماضي الدافع الرئيس من أجل معرفة إسرائيل واليهود, تغير الآن إلى الحاجة إلى معرفة الجار.

لهذه الأسباب سمح الكثير من الكتاب والمبدعين, والمثقفين لأنفسهم بإظهار نوع من الاهتمام بالثقافة أو السياسة الإسرائيلية, والتعبير في بعض الأحيان بصوت مرتفع عن الرغبة في الاتصال المباشر معها, أو التشبه بها. وزعموا أن التعرف على الثقافة الإسرائيلية لا يعتبر مكافأة للدولة العبرية, بل وسيلة للتعرف عليها, وفي ذلك مصلحة عربية. ورأوا في الحريات, بما فيها حرية إقامة علاقات مع إسرائيليين, أداة لدفع الحوار الليبرالي بين العرب أنفسهم.

أنجبت هذه الفكرة الكثير من المبادرات الفردية, خاصة لدى دور النشر المصرية, التي أصدرت إبداعات عبرية في ترجمات عربية, عرف القارىء العربي بفضلها روايات "موتسارت لم

يكن يهوديا, تأليف جبرييلا أفيجور-روتم, و"حنا وميخائيل" للكاتب عاموس عوز, و"ياسمين" لإيلي عامير, و"الرحيل إلى الذات" لدافيد جروسمان. أما الصحفي الذي يتحدث العبرية محمد عبود فقد اهتم كثيرا بالثقافة الإسرائيلية, الذي قص لقرائه بالتفصيل, في أحد مقالاته التي نشرها في جريدة المصري اليوم, عن الحزان (الذي يأم الصلاة في اليهودية), والمنشدين الدينيين الإسرائليين الذين يتلون الترانيم على ألحان محمد عبد الوهاب, وفريد الأطرش, وأغاني أم كلثوم.أما المدو ِن المصري نائل الطوخي فقد ترجم إلى العربية بعض المقالات الصحفية ومقتطفات من أعمال أ. ب. يهوشواع, وروني سوميك, وعاموس عوز, وشمعون بالاص, وأهارون شبتاي, وغيرهم. وكان قد نشر قبله بسنوات الأستاذ حسين سراج نائب رئيس تحرير مجلة أكتوبر, بعض فصول رواية "الزمن الأصفر" للأديب دافيد جروسمان. وكان من مهد الطريق أمام كل هؤلاء هو الصحفي محمد سيد أحمد, قبل عامين من مبادرة الرئيس أنور السادات القيام بزيارة تاريخية للقدس؛ حيث نشر كتابه الرائع "بعد أن تسكت المدافع", الذي أعرب فيه عن تأييده التعاون المصري الإسرائيلي والفائدة الكامنة فيه. كان هذا موقفا شجاعا إلى درجة الخطر في القاهرة في تلك الفترة.

دفع هؤلاء المقاتلون الثقافيون, في بعض الأحيان, ثمنا شخصيا باهظا لسيرهم في هذا الاتجاه. فالكاتب الصحفي والمسرحي على سالم قام برحلة إلى إسرائيل بعد التوقيع على اتفاقية أوسلو, ثم عاد إلى بلده ونشر كتابا شيقا وثق فيه رحلته. بعدها بفترة قصيرة تم طرده من اتحاد الكتاب وقاطعته الصحف التي عمل معها. وكذلك حسين سراج (رحمه الله), الذي اعتاد زيارة القدس, وتل أبيب وإجراء مقابلات صحفية مع شخصيات إسرائيلية, تم إيقاف عضويته بنقابة الصحفيين بشكل مؤقت وهدد بالإبعاد النهائي منها. والكاتب الصحفي والناشر أمين المهدي الذي نشر ترجمات للعديد من الكتب العبرية, ولم يتردد في تسمية النظام المصري بالنظام الفاشي, قد قاطعه زملاؤه, ورفضت الصحف المصرية التعامل معه أو نشر مقالاته.

رغم كل ذلك, نجح معارضو التطبيع في مهمتهم؛ فقد اعتبر سياسيون, ورجال قانون وصحفيون, الحوار مع الإسرائيليين بمثابة منحهم تأشيرة دخول إلى قلب المجتمع العربي. وطلبوا منع هذا التوجه. أما آخرون فقد برروا معارضتهم بضرورة أن تدفع إسرائيل ثمن الاحتلال. ذلك

في الوقت الذي أقامت فيه الحكومات العربية اتصالات أمنية ومخابراتية وطيدة مع إسرائيل- بعضها سرية في ظل عدم وجود علاقات رسمية معها- ولقد ناضل مشكلو الرأي العام في هذه البلدان من أجل منع التواصل معها في مجالات الأدب, والصحافة, والسينما, والمجال الأكاديمي. ولقد قادت مصر هذه الحملة منذ البداية, وذلك ليس من قبيل الصدفة, فهي أكبر دولة عربية, وأول دولة حطمت الجليد بتوقيعها على اتفاقية السلام مع إسرائيل, وقامت بعملية المقاطعة من إجل إسكات منتقديها للخطوة التاريخية التي قامت بها. وبهذه الطريقة, حسب اعتقاد المصريين, فإنها منعت تحويل إسرائيل إلى دولة ثقافية عظمى.

إحدى الشخصيات المعروفة جدا بانحيازها لحملة منع التواصل مع الإسرائيلين, فاروق حسني, وزير الثقافة المصري الأسبق؛ الذي قال هو وأمثاله إن تشجيع نشر الكتب العبرية المترجمة إلى العربية, سيعرض الشعب للثقافة الإسرائيلية وسيعطيها مكانة محترمة لديهم. فقد قال فاروق حسني"ليس من المنطق مكافئة إسرائيل, في الوقت الذي مازال يسفك فيه الدم الفلسطيني, ولم يحصل الشعب الفلسطيني بعد على حقوقه كاملة,".

قلصت هذه الرؤية إلى درجة الانعدام على مدى عشرات السنين, إمكانية عرض أفلام ومسرحيات إسرائيلية في القاهرة, وكذلك تبادل الوفود العلمية, والاتصالات مع الإعلام الإسرائيلي, والتعاون الرياضي بين الجانبين في البطولات الرياضية, حتى رجال الدين الكبار, مسيحيين ومسلمين, امتنعوا عن زيارة البلدة القديمة في القدس, كي لا يقال إن أقدامهم وطأت أرضا مسلمة محتلة. ولقد سارت الأردن على درب مصر وقلدتها في المقاطعة؛ فقامت النقابات المهنية بتشكيل لجنة خاصة لمكافحة الاتصال بالإسرائيليين, وقامت بتشكيل ونشر قوائم بالأردنيين الذين "أذنبوا" لقيامهم بمثل هذا الاتصال. والمجال الوحيد الذي كان فيه اتصال جزئي بين الجانبين, باستثناء الاتصالات السياسية, هو الاقتصاد والتجارة.

قلل القائمون على المقاطعة, في ظل الرفض المتوارث على مدى السنوات, من سؤال القاريء المتوسط, والأكاديمي, والمواطن العربي, هل يناسبهم موقفهم الذين ينكر التواصل مع إسرائيل, وماذا كانوا سيصنعون إذا أتيحت لهم فرصة قراءة كتاب عبري, ومقابلة صحفي إسرائيل أو زيارة تل أبيب, ونشر انطباعاتهم بعد عودتهم. في بعض الأحيان وصلت استنتاجاتهم إلى السخف. ففي

ربيع عام 2010 منعت الضغوط السياسية زيارة منتخب مصر الوطني لكرة القدم من لعب مباراة ودية في القدس الشرقية, خشية أن تطأ أقدام اللاعبين أرض عربية تحت السيطرة الإسرائيلية. وباسم الكفاح السامي ضد احتلال أرضهم, منع مشجعو كرة القدم من الضفة الغربية والقدس الشرقية من حق مشاهدة نجومهم المحبوبين.

لم تفقد إسرائيل أعصابها من أجل تغيير واقع المقاطعة المفروضة عليها, وتقبلته كقدر يجب التعامل معه. وكان يبدو في بعض الأحوال أنه من السهل أكثر على المؤسسة الإسرائيلية قبول عدم وجود حوار مجتمعي, وثقافي, وعقلاني مع العرب, عن تشجيع الشعب على إظهار الاهتمام بجيرانه. هكذا تحولت الحملة ضد التطبيع في الدول العربية التي ارتدت العباءة الشعبية, إلى حوار داخلي بين النخبة ومن أجلها.

فوق المنضدة وأسفلها

في سلسلة من قضايا التجسس التي تفجرت في مصر في بداية عام 2007 كانت إسرائيل في موضع الاتهام؛ ففي إحدى هذه القضايا, وأكثرها ضجة, زعم المصريون أن إسرائيل قد جندت, في داخل هيئة الطائفة الذرية المصرية, "عميلا" لها يسرق الوثائق وينقلها إلى الموساد. حكم على "الجاسوس الذري" محمد سيد صابر, 35 عاما, بالمؤبد. وفي أثناء المحاكمة سرب الإدعاء للصحافة أن الإسرائيليين الذين يشغلون صابر قاموا بإغوائه من خلال وعود كبيرة؛ فقالوا له إنه إذا نجح فسوف يعين وزيرا في حكومة إسرائيل. وقدم هذا الخبر للقارىء بجدية تامة.

قبل ذلك ببضع سنوات, في ذروة الانتفاضة الفلسطينية الثانية, ألقي القبض على المهندس المصري شريف الفلالي, وأدين بالتجسس لصالح الموساد وحكم عليه بالسجن 15 عاما. وفي حالته أيضا كانت الاتهامات الموجهة إليه غريبة. فقد زعم الإدعاء أنه قد قام بجمع معلومات لمشغليه عن الزراعة المصرية, من الممكن أن تثير اهتمام المخابرات الإسرائيلية. وفي الوقت الذي فجرت فيه هذه القضية, كان الخبراء الزراعيون الإسرائيليون موجودين على الأراضي المصرية كمستشارين زراعيين في إطار اتفاقيات التعاون بين الحكومتين. وكانت نهاية الفلالي أن مات في سجنه بعد سبع سنوات من حبسه. وزعمت السلطات في القاهرة أن سبب الوفاة أزمة قلبية.

في الوقت الذي انشغل فيه الادعاء المصري بقضايا التجسس, توطدت العلاقات بين القاهرة والقدس أكثر فأكثر؛ فكان هناك تعاون مخابراتي فيما بينهما ضد الكتائب الفلسطينية, وضد تهريب السلاح إلى داخل غزة, وكذلك إبرام اتفاقية تقوم مصر بمقتضاها بتزويد إسرائيل بالغاز الطبيعي, وكذلك اتفاقيات تجارة حرة بين البلدين. لكنها كانت اتفاقية سلام بين الحكومات, وليس بين الشعوب. ليس الجميع في مصر يعجبهم توطيد العلاقات مع إسرائيل, واعتبر البعض ذلك تعبيرا عن الضعف. ولقد أكد منتقدو النظام المصري من الداخل أن القاهرة فشلت في اختبار التضامن العربي فشلا ذريعا. ورغم علاقاتها الوطيدة مع الحكومة الإسرائيلية, فإنه لم يتم إعادة أي شبر من الأراضي الفلسطينية. فإسرائيل, وفقا للنظرة السائدة لدى الرأي العام المصري, تستحق العقاب وليس المكافئة على احتلالها للأراضي السورية والفلسطينية. وهنا, بدلا من عقابها, فإن الإدارة المصرية تتكاتف معها لمحاربة حماس, وحزب الله, والجهاد الإسلامي – حركات التحرير التي يعتبرها الشعب رمزا لمقاومة الاحتلال.

كيف يفسر هذا التناقض؟ ماذا يقولون للمصري الذي يسأل لماذا تقوم حكومته بتوطيد العلاقات مع صديق هو أيضا مجرم؟ إحدى الطرق هي إبراز أهمية اتفاقية السلام للاقتصاد المصري, وبالفعل عند التوقيع على اتفاقيات إقامة منطقة التجارة الحرة بين مصر البلدين, زعم الرئيس حسني مبارك والمتحدثون عنه أن هذا التعاون قد وفر آلاف فرص العمل, وهذه مصلحة مصرية عليا.

طريقة أخرى هي: وصم الأصدقاء في القدس. فوصفهم على سبيل المثال بالجواسيس, ومدبري المكائد. هكذا, بغمزة عين, دون أن يأخذ أحد في إسرائيل ذلك على محمل الجد, لكن بشكل يسمح للإدارة المصرية الحصول على بعض النقاط لصالحها. وتشعر إسرائيل الرسمية بقوة كافية من أجل تلقي هذا الإحراج, ولعلمها بالأهداف الخفية وراء هذا النشر, فإنها تفضل الصمت. وفي أحيان بعيدة نسمع متحدث رسمي إسرائيلي يقول بأسلوب دبلوماسي إن القدس ليس في نيتها التدخل في القضية لأن ذلك شأن مصري داخلي. كما لم يتأثر أحد في القاهرة في ظل هذه الكشوفات باستثناء أقرباء الشخص المسكين الذي سيأتي عليه الدور.

تعتقد القيادة المصرية أن نشر "قضايا التجسس" تلك قد حسن مكانة السلطات لدى الرأي العام المحلي؛ حيث أثبت ذلك أن العلاقات مع إسرائيل تحت السيطرة المصرية, وأنها غير دافئة كما قد يعتقد البعض, حاشى لله. علاوة على ذلك, فإنه منح نقاط لصالح المخابرات المصرية المحافظة على نفسها, وتحمي البلاد من الأعداء ومن يريد بها سوءا.

في الحقيقة, من المنتظر من الدولة التي تكشف نشاط استخباراتيا لدولة صديقة لها على أراضيها أن تتخذ أي إجراءات ضدها, لكن لم يصدر أي احتجاج رسمي من القاهرة. على العكس, ففي اليوم الذي حكم فيه على المهندس صابر, استقبل الرئيس مبارك رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت في نفس الوقت, في لقاء قمة في شرم الشيخ. أشاكيا؟ أمحتجا؟ أهناك جو متأزم؟ على العكس – فقد فرش له البساط الأحمر.

إعرف عدوك (وزوجته)

لم تكتف جريدة الشرق الأوسط التي كتبت لقرائها عن تشكيل حكومة أولمرت في مايو 2006, بمجرد السرد الجاف. فقد قرر محررو الصحيفة تحليل المعطيات الشخصية للخمسة والعشرين وزيرا. عرضت النتيجة في الصفحة الأولى, ولاحظ مراسل الصحيفة في إسرائيل, نظير مجلي, أن 12 من وزراء الحكومة كانوا من يهود الدول العربية, و12 أشكنازيا, وواحدا فقط وهو جدعون عزرا, مختلط الأصل. ومن بين اليهود الشرقيين أربعة ولدوا في المغرب (عامير بيريتس, ومائير شطريت, ويعقوب إدري, ويعقوب بن يزري), وواحد من العراق (بنيامين بن إليعيزر), وواحد من إيران (شاؤول موفاز), وامرأتان فقط, ومعظم الذين خدموا بالجيش الإسرائيلي كانوا برتب صغيرة: 14 جنديا, في مقابل 11 ضابط احتياطا. كما كانت حكومة أولمرت, كما ذكر مجلي, أقل في المستوى الأكاديمي من حكومة أريئيل شارون التي سبقتها: 13 أكاديميا (خمسة محامين) في مقابل 22 في حكومة شارون.

لم تكن هذه أول محاولة لصحيفة لتحليل ما وراء مشهد الشعارات السياسية التي سيطرت على الاستطلاعات اليومية للصراع العربي الإسرائيلي. ولقد أصبحت صحيفة الشرق الأوسط الصادرة في لندن بتمويل سعودي, منبرا للكتاب المهتمين بالمجتمع الإسرائيلي, وأحدهم هو الكاتب خالد القشطيني, وهو عراقي ترك العراق مهاجرا واستقر في لندن. نشأ القشطيني إلى

جانب اليهود في الأربعينيات والخمسينيات في بغداد, كما استمر في إقامة علاقات صداقة معهم عندما كبر. ونشر رواية من تأليفه تقوم على ذكرياته وتتمحور حول عائلة يهودية. ولقد حاول في أحد مقالاته الكثيرة عن اليهود وإسرائيل؛ فهم لماذا يظهر اليهود من أصل شرقي العداء تجاه المجتمعات العربية التي خرجوا منها.

كتب القشطيني عن ذلك قائلا "الرأي المقبول هو أن اليهود العرب قد تعرضوا للقمع قبل هجرتهم إلى إسرائيل, ولايزالون يشعرون في داخلهم بكراهية تجاه العرب,". لكنه على الفور أبطل هذا التفسير, حيث إنه من المنتظر من اليهود الأشكناز, حسب هذا المنطق, أن يكرهوا العرب عشرات الأضعاف, لتذكيرهم إياهم بالقمع الشديد الذي تعرضوا له في الهولوكوست. وهنا بالذات فإن اليهود الأشكناز هم أول من تفهموا حقوق الفلسطينيين, وأنشأوا لهم الجمعيات لتقديم المساعدات لهم, كما شكلوا حركات احتجاجية ضد الاحتلال. لقد بحث القشطيني عن سبب أعمق للمسألة ووجده في الفروق في دول المنشأ.

"تربى اليهود الشرقيون على تراث العصر الوسيط, في الشرق الذي يقبل الاستبداد, ويتجاهل حقوق الانسان, والقمع جزء لا يتجزأ منه. [في المقابل] فإن يهود الغرب نشأوا وتعلموا على مباديء الثورة الفرنسية, والديمقراطية, والاشتراكية, واحترام حقوق الانسان. كما آمن اليهود الشرقيون, في الغالب, بما هو مكتوب في كتبهم المقدسة, التي تقول إن الله وعد أرض فلسطين لبني إسرائيل. أما اليهود الغربيون فقد آمنوا بما كتبه ماركس, وروسو, وداروين."

تبلورت آراء قوشطيني, بشكل شبه مؤكد, بفضل خلفيته الشخصية وتجربته كعربي يعيش في أوروبا. ورغم ذلك فمن الصعب الاقتناع بأنه من الممكن أن تسقط شخصية بحثية مثله في الفخ. فقد كتب الصحفي العراقي في نفس المقال:

"هذا الفرق قائم أيضا في السلوك تجاه المرأة. فالمرأة الإسرائيلية الشرقية هي مواطنة من الدرجة الثانية مقارنة بزوجها. فيجب عليها أن تكون وفية له, وخاضعة له, وتخدمه. وفي المقابل فإن المرأة الإسرائيلية الأشكنازية, تتصرف كما لو كانت في أوروبا, في مساواة تامة. إن سلوك الإسرائيليين الشرقيين, في الحقيقة, لا يختلف كثيرا في جوهره عن سلوك بعض المنظمات الأصولية, ويقوم على كراهية الإنسان لأخيه الإنسان."

في رأي الأقلية

اندهش المثقفون العرب لسنوات طويلة حول أصل الفجوة بين الدولة العبرية وجاراتها, وتوصلوا إلى استنتاج, بضرورة ربطها بضعف العرب, وبشكل أقل بإنجازات إسرائيل.

درس هذا الأمر الدكتور عبد الحميد الأنصاري, رجل دين وكاتب صحفي من جامعة قطر, ووجد إجابات لذلك. فقام بنشر خواطره في عموده الشخصي في صحيفة البيان, الصادرة في الإمارات العربية المتحدة, في مقال بعنوان: "لماذا تنتصر إسرائيل دائما." كتب قائلا:
هكذا يعالجون قضاياهم بنقد الذات! هكذا يعترفون وبكل شجاعة بمسؤولياتهم ولا يحملونها الآخرين هكذا يصححون أخطاءهم ويتعلمون من تجارب الفشل والنجاح, وهكذا يضمنون تفوقهم الشامل عسكريا, وفي النهاية... هكذا يحققون النصر دائما"[9]

وماذا عن الجانب العربي؟ " من الطبيعي أن يسعد التقرير حسن نصر الله فها هو العدو يعترف بإخفاقه باعتبار أنه شهد شاهدان من أهلها, والفصل ما شهدت به الأعداء ... لقد كان الأجدر بمن هللوا للنصر الإلهي أن يصابوا بالغيرة كيف تأتي لشعب صغير محاط بالأعداء من كل جهة الشجاعة الكافية لنقد الذات وثقافة المساءلة لا يحصل مثل ذلك لأمة تجاوزت الـ 300 مليون فرد رغم هزائمها المنكرة والمتكررة؟! عليهم أن يحزنوا لقصور أمتهم لا أن يفرحوا بقصور عدوهم, ويبيعوا الأوهام للناس فيؤيدوهم وهما."

واصل الكاتب القطري قائلا: "إذا أدركنا هذا الخداع للذات عرفنا لماذا تنتصر إسرائيل لأنها لا تخدع ذاتها بمفهوم زائف للنصر. بل تنتقد نفسها وتحاسبها وتعترف بأخطائها ونحن لا نفعل ذلك, تنتصر إسرائيل لأن شعبها يملك حق المساءلة لرئيسها وحكومتها ونحن لا نملك ذلك, تنتصر إسرائيل لأنها تحترم سيادة القانون واستقلال القضاء ولا أحد فوق القانون, ولا أحد بمنجاة من المساءلة ... تنتصر إسرائيل لأنها تطبق مبدأ (المواطنة) لكافة عناصرها وأقلياتها بمن فيهم – العرب فتمنحهم كافة الحقوق السياسية وتشكيل الأحزاب السياسية والمشاركة في البرلمان والحكومة, وتنتصر إسرائيل لأن عندها التعليم المتطور والجامعات المعترف بها عالميا والمراكز

---

[9] البيان الإماراتية 21 مايو 2007

البحثية المتميزة وترصد لموازنة البحث العلمي أعلى المعدلات العالمية, وتنتصر إسرائيل لأنها تكفل كافة الحريات, والصحافة حرة تماما."

ربما لأن هذا المقال نشر في صحيفة غير واسعة الانتشار, وفي دولة لا تشغل القضية الفلسطينية أولى اهتماماتها, مر مقال الأنصاري دون أن يحدث أي ضجة وجدلا شعبيا حول قسوة إسرائيل تجاه الفلسطينيين. ويبدو أنه لم يكن ليقوم أي محلل إسرائيلي بأفضل من ذلك.

معجب بجلابية

أثار فوز تسيبي لفني برئاسة حزب "كاديما", في شهر سبتمبر 2008 الكثير من الاهتمام في وسائل الإعلام العربية. وكتبت كل جريدة محترمة عن التطورات السياسية في إسرائيل في صدر صفحتها الأولى. ولقد تابع الصحفيون العرب في الأيام التالية ما تقوم به لفني من اتصالات ائتلافية, ولم ينسوا إبراز نبأ استقالة رئيس الحكومة إيهود أولمرت, الذي اعتبر زعيما يهوى الحروب.

حتى رسامو الكاريكاتير احتفلوا أيضا, فقد صوروا لفني في شكل ساخر للغاية, كمن تحصل على المفاتيح من سابقها وتستمر مثله في رفض السلام. ولقد رسمتها صحيفة سعودية كشيطان يخلع قناع أولمرت عن وجهه, ويستبدله بقناع لفني. كما صورتها صحيفة فلسطينية كالموناليزا, يغطي وجهها الجميل جرائم الجيش الإسرائيلي. وفي بيروت, في المقابل, نجد أن الرسامين احتفلوا بسقوط شاؤول موفاز, آخر رئيس أركان للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان, في انتخابات الحزب.

في المقابل نجد أن الكثير من كتاب المقالات اعتبروا انتخاب سيدة ليس لها ماض عسكري مدخلا للتغير. فكتبت صحيفة تشرين السورية "تعرف السيدة لفني جيدا ما يتطلبه السلام, هي تدرك أن إعادة الأراضي العربية المحتلة إلى أصحابها هي كلمة السر لتحقيق السلام العادل والشامل."

لقد أملوا في الدول العربية وفي المناطق الفلسطينية بأنه إذا تم انتخاب تسيبي لفني لرئاسة الحكومة, فإنها لن تواصل النهج المتشدد لسابقيها, بل سترفع الحصار عن قطاع غزة, وستوقف سياسة الاغتيالات ضد المطلوبين الفلسطينيين, وستمهد الطريق أمام اتفاق يؤدي إلى إقامة دولة فلسطينية, وإلى سلام مع سوريا. كانت تسيبي لفني بالنسبة للصحفيين العرب, وكذلك لنظرائهم في إسرائيل والعالم, قصة حيوية. فعميلة الموساد السابقة, إبنة رجال حركة "إتسل"

(المنظمة الصهيونية المقاتلة), الذين حاربوا المحتل البريطاني, إضافة إلى كونها امرأة شقراء, من الممكن أن تكون رئيس الحكومة المقبلة لدولة إسرائيل. كان من أدرك ذلك على وجه الخصوص هو الكاتب الصحفي الكويتي فؤاد الهاشم, صاحب عامود في جريدة الوطن, وصاحب لهجة صحفية حادة, وصاحب مواقف لبرالية. هاجم الهاشم في عاموده "علامة تعجب" جريدة تشرين السورية, التي زعمت أن لفني عملت أربع سنوات كجاسوسة لصالح الموساد.

وكتب ساخرا "هل توقعت الجريدة أنها ستعمل لصالح الاستخبارات السورية؟, هذه المرأة – ضميرها نظيف وتعمل لصالح بلدها."

في النهاية لم تشغل لفني منصب رئيس الحكومة, ففي انتخابات الكنيست الـ18 التي جرت في فبراير 2009, نجح بنيامين نتنياهو في تشكيل ائتلاف واسع أكبر من ائتلافها, وفاز بالمنصب الرفيع. أما لفني فقد أحبطت العرب الذين علقوا عليها الآمال, عندما قامت هي وشريكها, كوزيرة للخارجية, بعملية "الرصاص المصبوب" على قطاع غزة. بعدها اتهمها الساسة العرب بأنها قامت بذلك من أجل إضافة الدم الفلسطيني إلى نجاحها, وبذلك ترتفع مكانتها في نظر الناخب الإسرائيلي.

لم يكن في مقدور هاشم التكهن بفشل لفني في تشكيل ائتلاف حكومي, لأنه كان قد نشر عاموده قبل ذلك بشهور قليلة من الانتخابات. لكن هذا لم يزعجه في نسج خيال معها حال فوزه وكتب: "خالص التهنئة نزفها إلى وزيرة الخارجية الإسرائيلية "تسيبي لفني" لقرب توليها منصب رئاسة الوزراء, ونتمنى أن تستطيع تحقيق السلام الشامل والعادل مع جيرانها العرب في أقرب فرصة, ووقتها سوف يسعدني قبول دعوتها والسباحة معها على ضفاف بحيرة "طبريا" بشرط أن ترتدي هي مايوها بـ "قطعتين" من نوع "بو-خيط" وأرتدي أنا .."الوزار الكويتي."

بالكيماوي يا أولمرت

بهذه الكلمات لم ينه فؤاد هاشم الكويتي اهتمامه بإسرائيل (ولا بحبيبته تسيبي لفني), على العكس, فقد أضاء لقرائه, عبر أسلوبة الساخر, زوايا لم يعرفوها عن الدولة العبرية.

ففي 2 أغسطس 1990, قامت قوات الجيش العراقي باحتلال وطنه الكويت بأمر صدام حسين, واحتفظ بها لمدة ستة شهور. وفي رد فعل على ذلك قام جورج بوش الأب بتجهيز 30

جيشا لمواجهة العراق, واستعاد للإمارة العربية الغنية كرامتها الدولية. وكان آلاف الكويتيين, وعلى رأسهم الأمير وكبار رجال السلطة, قد غادروها إلى السعودية حتى تخطي هذه المرحلة. ووجدت عشرات العائلات الثرية ملجئا لها في سويسرا, وسكن بعضهم في فندق "نوجا هيلتون" بجنيف.

وعند تسجيل بياناتهم في مكتب استقبال الفندق, اتضح أن مبعوثي صدام حسين قد جمدوا حساباتهم البنكية في وطنهم الكويت. وكانت بطاقاتهم الائتمانية, كما كتب فؤاد الهاشم فيما بعد, تكفي ربما للعبة "المونوبولي", ورداً على ذلك قام صاحب الفندق بالقيام بمعروف استثنائي ، قال لهم "إقامتكم في الفندق غير محددة الوقت, وهي على حسابنا."

نفس الشخص, أكد الكاتب الكويتي, كان يهوديا عراقي الأصل,وهو الثري نسيم جاؤن, صاحب الفندق الفخم سوداني الأصل. وذكر فؤاد أن هذه اللفتة الطيبة قام بها جاؤون لضيوفه اللاجئين في الوقت الذي كان يؤيد فيه كثير من العرب العملية العراقية العدائية. وكان على رأس من قام بتأييد صدام حسين ياسر عرفات, وحسين ملك الأردن, وكثير من المتظاهرين في الدول العربية.

كتب الهاشم عن ذلك قائلا "من أصل عراقي, في الوقت الذي كان فيه الأشقاء العراقيون المسلمون يحتلون الكويت, ولقد لفت ذلك الانتباه . في الوقت الذي كان يأن فيه الوطن تحت أقدام المحتل, كان "الأشقاء العرب المسلمون" في تونس, وليبيا, وغزة, والضفة الغربية, واليمن, والسودان, والجزائر, يحرقون العلم الكويتي, بعد أن أنزلوه من على السفارات الكويتية ورفعوا علم العراق بدلا منه."

من السهل ملاحظة السخرية بين السطور, وبالفعل لم تكن كتابة الهاشم سوى كتابة جدلية ضد "التضامن العربي". ولم تكن هذه أول مرة يرغب فيها الهاشم في تصفية حسابات قديمة, في عموده اليومي. ففي أثناء عملية "الرصاص المصبوب" كتب مقالا مثيرا للجدل بعنوان "بالكيماوي يا أولمرت".

وذكر الفلسطينيين في نفس المقال كيف أنهم خرجوا إلى شوارع مدنهم أثناء حرب الخليج, منادين صدام "اضرب الكويتيين بالكيماوي, يا صدام, من الكويت وحتى دمام." كما توجه هاشم للفلسطينيين, وذكرهم بتلك المظاهرات, في الوقت الذي يأنون فيه في البرد والظلام تحت

القصف الجوي, وكتب: "كيف يشعر سكان غزة والضفة الغربية أمام جموع الشعب الكويتي وهم يخرجون في مظاهرات في شوارع العاصمة معلنين "اضربهم بالكيماوي, يا أولمرت, من رام الله وحتى غزة", أو "اضربي بالنووي, يا لفني, من الخليل حتى رفح"؟

شرق أوسط جديد, النسخة الكويتية

اضطر الدكتور صالح بهمان أحد الكويتيين الذي أظهر مواقف مؤيدة لإسرائيل إلى التراجع عنها قبل أن يدفع ثمن ذلك بالإدانة الشعبية. كان الدكتور صالح بهمان رئيس تحرير وكالة الأنباء الكويتية الرسمية, قد قرر المنافسة على مقعد في البرلمان في الانتخابات التي جرت عام 2009. وقدم أوراق ترشحه, وفور تصديق لجنة الانتخابات عليها وقف أمام الناس وأعلن, بشكل مفاجيء, أن برنامجه الانتخابي يشمل إقامة علاقات مع إسرائيل. أوضح بهمان الأكاديمي المثقف, والباحث في العلوم السياسية أن إسرائيل لعبت دورا محوريا في تحرير الكويت من نير احتلال صدام حسين في عام 1991. وأن العلاقات الكاملة معها مصلحة قومية. وقد كشف بهمان ذلك بقوله "وجدت تأييدا لموقفي في الأوساط المثقفة والأكاديمية في الكويت, في الماضي كانت هناك حروب بين إسرائيل وبين الدول العربية, أما اليوم فلا توجد. والأرض خصبة للتطبيع."

أضاف الصحفي الكبير أنه لا يخشى من التهديدات على حياته. "لكل منا موقفه. وعلى الآخرين أن يدركوا أن إسرائيل هي دولة مؤثرة في المنطقة, وحليفة للولايات المتحدة أكبر صديقة للكويت."

أثارت هذه الدعوة الغضب والانتقاد الشديدين. وبعد ثلاثة شهور فقط من عملية "الرصاص المصبوب" ضد غزة, وجد أن الوقت غير مناسب بعد أمام الرأي العام العربي للقيام بخطوة تجاه إسرائيل.

زعم على البرلي, رئيس جمعية حقوق الإنسان "أعتقد أنه قام بذلك فقط من أجل تسليط الضوء عليه,". وبالفعل, لم تصمد هذه الخطوة الجريئة للصحفي الكويتي أكثر من يوم. ففي اليوم التالي أخبر الجميع أنه قد سحب ترشحه, ونشر اعتذارا لشعبه: "كان من الأفضل ألا أدعو إلى إقامة علاقات مع إسرائيل, خاصة في الوقت الذي تتمسك فيه الكويت بمواقفها الثابتة تجاه

القضايا العربية, وخاصة القضية الفلسطينية, والمرتبطة بالاحتلال الإسرائيلي," ثم اعترف بهمان بتواضع," لكن ماذا عن الحلم؟ والأرض الخصبة" – فلتنتظر بضع سنوات.

السباق نحو التأشيرة

يعيش الآلاف من الرجال المصريين في إسرائيل, أغلبهم بعد زواجهم بإسرائيليات, وأصبحوا مواطنين إسرائيليين. إسرائيل في نظر المواطن المصري البسيط "جنة عدن" اقتصادية. لذلك يعتبر هؤلاء المهاجرون إليها هم "الذين فعلوها". لكن على الساحة السياسية, هناك من يتكسب على حسابهم. وتظهر من حين إلى آخر مبادرة في القاهرة, خاصة من نواب ينتمون إلى حركة الإخوان المسلمين, تنادي بإسقاط الجنسية المصرية عنهم.

فالمغني شعبان عبد الرحيم أحد هؤلاء, حاول ونجح, في تكوين ثروة على حساب هؤلاء المصريين ؛ فبعد سنوات طويلة عمل فيها مطربا في الأفراح الشعبية, بعد عمله كموجي, اندلعت الانتفاضة الثانية, وعرض عليه صديقه تسجيل أغنية من تأليفه. كلمات الأغنية بسيطة جدا وركزت في أبيات قليلة على خلاصة الكراهية لإسرائيل في الشارع العربي. فقد تناولت الكلمات معاناة الفلسطينيين, والطفل محمد الدرة من غزة, الذي أصبح رمزا بعد وفاته, وكذلك رئيس الحكومة أريئيل شارون, وسابقه إيهود باراك. "أنا باكره إسرائيل وأحب عمرو موسى," وامتدح وزير الخارجية المصري آنذاك الذي كان معروفا بتصريحاته اللاذعة تجاه السياسة الإسرائيلية. بيع هذا الألبوم بمئات آلاف النسخ, وأصبح شعبان عبد الرحيم معروفا في كل بيت. ومنذ ذلك الوقت طرح شعبان العديد من الألبومات الأخرى في السوق تناولت إحباط الشعب العربي: لبنان, والمعاناة الفلسطينية, والعراق, وكراهية أمريكا. وبعد فترة توقف, قالوا عنه أنه قد جمع ملايين كثيرة تكفيه للتقاعد, غير أن المطرب سيبقى مطربا, فظهر "شعبولا" كما يلقب, بألبوم جديد.

في هذه الحالة أيضا كانت إسرائيل هي الموضوع, أو أكثر دقة – المصريون الذين يأتون إلى هنا لتكوين عائلة. قال إسلام خليل, كاتب الأغنيه, إن فكرة كتابة الأغنية جاءت بعد مشاهدة تقرير في التلفزيون عن هذه الظاهرة. وهو يحتقر في هذه الأغنية, التي قام شعبولا بغنائها, هؤلاء الرجال وقال فيها:

راح فين الانتماء والأصل والتربية؟
لما تروح للأعداء تتجوز إسرائيلية؟
عشان فيلا وعربية وحبة دولارات مخصوص
تتجوز إسرائيلية يا أخي ملعون أبو دي فلوس
أنا عمري ما أنسى أصلي ولا مصر هبة النيل
أنا أموت فقير ومصري وما أعيش في إسرائيل
تروح إسرائيل برجلك الدنيا جرالها إيه
أمال شهداء أكتوبر انتصروا وماتوا ليه؟
لو مانتاش عارف غلطتك روح واسأل واحد شاف
ع الشهداء اللي ماتوا في سينا.. عن حرب الاستنزاف
روحت وخدت الجنسية وعروسة كمان وفلوس؟؟
بكرة اللوبي اليهودي هيخلوك تبقى جاسوس.

أخفى الاحتجاج الفني لشعبولا وصديقه إسلام خليل عن المعجبين أمرين مهمين: الأول؛ أن معظم العرائس هن عربيات إسرائيليات. وإخفاء هذا التفصيل المهم جدا لم يكن من قبيل الصدفة, فإنه إذا عرفت ذلك, يحتمل أن لم ير الكثير أن الزواج بعربية خطأ. الحقيقة الثانية؛ مرتبطة بمكانة هؤلاء العرسان, بين المصريين. فالإسرائيليون الذين يزورون القاهرة يقابلون الكثير من الشباب المصريين, المهتمين بفرص العمل في إسرائيل. ومن الصعب العثور على مصري يرفض عرض عمل كهذا, أو جواز سفر إسرائيلي, خاصة إذا قدم له مع زواج وعائلة سعيدة.

إذن, لماذا يحاول الساسة في القاهرة, مع كل ذلك, إثارة معارضة الناس على من يقوم بالسفر إلى إسرائيل والاستقرار فيها؟ الإجابة هي من أجل حسابات داخلية. فبالإساءة لمن يسافر إلى إسرائيل يذكرون الجميع بكراهية الدولة العبرية التي تحتل أراض عربية. ومع هذه الدولة, كما هو معروف, تقيم الحكومة المصرية علاقات حميمة. وهذا في نظرهم خطأ حقيقي, وهو أخطر من الزواج بإسرائيليات.

فقد صوابه

فاجأ الدكتور عصام العريان, رئيس المكتب السياسي لحركة الإخوان المسلمين أصدقائه, بعد مقابلة صحفية أجراها العريان قال فيها, كلمات صريحة في صالح الاعتراف بدولة إسرائيل. "لا يوجد في قاموس الإخوان شيء اسمه إسرائيل," فأسرع مرشد الحركة, الدكتور مهدي عاكف منكرا, "نحن نعرف فقط العصابات الصهيونية."

"الإخوان المسلمون" هي الحركة الأم التي ظهرت منها الحركة السياسية التي عملت بروح الدين الإسلامي, , ولُعلنت كحركة غير شرعية, غير أن القانون شيء والواقع شيء آخر. فقد أدركت السلطات أنه ليس في مقدورها القضاء على الحركة لذلك من الأفضل احتوائها. فأسرع سياسيون محسوبون على الحركة, التي اعتبرت خارجة عن القانون, إلى الترشح للبرلمان كمستقلين, وبعد أن أصبحوا مشرعين بشكل رسمي, يقومون بتطبيق, , سياسة الحركة المحظورة التي أرسلتهم إلى البرلمان على قدر استطاعتهم. وعلى عكس أيامها الأولى فقد أصبحت حركة الإخوان المسلمين حركة اجتماعية وسياسية وليس منظمة سرية ذات طابع عسكري. وتعرف الحركة أنها معارضة شديدة للسلام مع إسرائيل, لذلك اعتبر تصريح العريان في مقابلته مع صحيفة الحياة أمرا شاذا. وفي نفس المقابلة أضاف العريان أنه إذا وصل "الأخوان" إلى حكم مصر في أحد الأيام؛ سيعترفون بإسرائيل وسيحترمون معاهدة السلام معها.

إن احتلال الإخوان للدولة يبدو أمرا مستبعدا, في ظل قوة النظام العلماني في القاهرة, غير أن الجدل أظهر بوضوح كثرة التيارات فيها. وبعد هذا التصريح تعرض العريان لضغوط شديدة من داخل الحركة طالبته بالتراجع عنه. فقد اعترف قائلا "لقد سبب لي الأمر مشاكل كبيرة," . ولم تهدأ هذه العاصفة سريعا. ولقد سعت إحدى الصحف اليومية المصرية هذا التصريح "بالزلزال". واضطر المرشد مهدي عاكف إلى التوضيح أن عدم الاعتراف بإسرائيل هو فكرة أساسية لدى الإخوان المسلمين, ولم يطرأ عليها أي تغيير.

وبعد عدة أيام من ثورة الساحة السياسية أوضح "وإذا ما أرادوا أن يعيشوا بيننا فسيكون داخل إطار فلسطين، وإذا أرادوا دولة فليس لدينا إلا المقاومة" ، وقد وافق العريان على توضيح أن الإخوان المسلمين لم يعترفوا أبدا بإسرائيل, وإنهم لن يغيروا موقفهم. "لا يمكن أن نعترف

باغتصاب الأراضي بالقوة." وقال إنه إذا اختير مرشدا للحركة فإنه سيرفض الاعتراف بالدولة العبرية.

, تجسد هذه القصة الصعوبات التي تواجه شخصيات عربية عند تطرقها إلى تغيير رؤى قديمة لدى الشعب. فالزعماء الذين يعتقدون أنه حان الوقت لإدخال فكرة جديدة إلى الفكر السياسي, فإنهم يتبعون المناورة الأكروباتية التي قام بها الدكتور العريان. واسم اللعبة هو التدرج والتوازن. فهم يطلقون الفكرة الجديدة في الهواء ويغلفونها بغلاف قديم ولطيف على المسامع, كي لا يتهموا بالتحول الشديد جدا. وفي أسوأ الأحوال التي تثير اضطرابا ويفشل بالون الاختبار, فدائما يمكن اتهام الصحفي أنه أساء الاقتباس, أو التمسك بالرسالة القديمة والجيدة التي كان قد ذكرها من قبل. لكن في هذه الأثناء تم زراعة الفكرة, وأثارت تساؤلات وجدلا, وفي بعض الأحوال تحدث تغييرا على الحوار السياسي. وفي المرة القادمة, حتى وإن كان بعد عدة سنوات, من الممكن التمادي بشكل أكبر.

تصرف بشكل مشابه ذات مرة الملك عبد الله الثاني ملك الأردن. ففي فبراير 2004 تم استضافة الملك في المؤتمر الدولي للأمن الذي عقد في ميونخ بألمانيا. أذيعت كلمة الملك باللغة الإنجليزية على الهواء مباشرة في التلفزيون الأردني, ونشرت في اليوم التالي في الصحافة الأردنية والعربية. وقال الملك في كلمته إن الفلسطينيين يدركون أنه لا مجال لتحقيق حق العودة الفلسطيني على حدود 1948. كان هذا التصريح بعيد المدى من زعيم عربي. وقد "تقبل تيار الوسط الفلسطيني فكرة أنه من المحظور أن يمس حق العودة التوازن الديموجرافي الإسرائيلي," كما قال الملك, "ويدرك تيار الوسط الإسرائيلي أنهم غير قادرين على احتلال شعب آخر." ولم ينس بالطبع ذكر أن الحل الوحيد الممكن هو إقامة دولة مستقلة على حدود 67, عاصمتها القدس.

كما لم ينس عصام العريان أن يبقي لنفسه وثيقة أمان, ففي نفس المقابلة التي اعترف فيها بالموافقة على الاعتراف بإسرائيل, أكد على أن معاهدة السلام معها في حاجة إلى تعديل, حيث أكد العريان "هذا لا يعني أننا سنعلن الحرب, وفي حال وجود رغبة مسبقة في إجراء أي تعديل سيتم ذلك وفقاللقواعد الدولية."

الصداقة المنسية

أوضح استطلاع للرأي جرى في شهري أغسطس وسبتمبر 2009 في القطاع الكردي شمالي العراق وجود تأييد كبير لإسرائيل. فقد قام متخصصو معهد استطلاعات الرأي "بوينت", في مركزه في أربيل عاصمة القطاع, بمقابلة ألف شخص من مختلف المحافظات. رأى 87.5% أن بين إسرائيل والأكراد علاقات تاريخية, وزعم 66.9% أن إسرائيل قادرة على المساهمة في التعجيل بإقامة الدولة الكردية. و66.7% يعتقدون أن الأكراد لن يخسروا شيئا من اتصالاتهم بإسرائيل. و61.4 لم يفزعوا من كلمة "التطبيع", وطالبوا ببدء علاقات مع إسرائيل في مجالات الاقتصاد والثقافة. وسئل المشاركون في الاستطلاع إذا كان من الأفضل أن تكون العلاقات مع إسرائيل سرية, فأجاب 60.4% بالنفي.

كانت هناك مرحلة اعتبر فيها الأكراد أفضل أصدقاء إسرائيل في الشرق الأوسط, وذلك في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. فقد حصل الزعيم الكردي الملا مصطفى بارزاني من إسرائيل وشركائها الأمريكيين على السلاح والاستشارات الأمنية. وفي المقابل ساعد على تهريب يهود العراق وسمح لعملاء الموساد بالتجسس على العراق عن قرب. وفي تلك الفترة حصل الأكراد على حماية شاه إيران, وبذلك أصبحت هذه الصداقة قصة حب ثلاثية الأطراف. كان ذلك في فترة الحصار العربي على إسرائيل, قبل حرب الأيام الستة (1967), وبعدها بسنوات قليلة. ولا توجد دولة عربية واحدة لم تقم باتصالات رسمية معها لكن الأكراد فعلوا ذلك عن طيب خاطر.

ومنذ الإطاحة بصدام حسين منح التاريخ الجانبين فرصة طيبة لإكمال هذه الدائرة. فقام الإسرائيليون بالسفر إلى القطاع الكردي بجوازات سفر إسرائيلية, عبر تركيا, أو بالطيران من الأردن. ومعظمهم من مهاجري كردستان – الطائفة التي كانت في الماضي 18 ألف نسمة, وعادت لزيارة المحافظات التي قضوا طفولتهم فيها. ويكن أبناء المكان الكثير من الاحترام لإسرائيل واليهود, وهم يطلقون عليهم فيما بينهم "يهود الشرق الأوسط".

فالأكراد أقلية عرقية فريدة, يصل عددها في أنحاء العالم إلى حوالي 30 مليون نسمة. وكانوا هم الرابح الأكبر من إسقاط نظام حكم البعث في بغداد الذي قام بذبحهم وطردهم والتآمر

عليهم على مدى عشرات السنين. لم ينتظر الأكراد اليوم الذي سيوافقون فيه على الاعتراف بحقهم في دولة مستقلة وبدأوا في إقامتها فعليا. ففي الوقت الذي دارت فيه الحرب الأهلية في العراق, كان التطرف أقل وطئا في القطاع الكردي. ولم يتوقف الأكراد عن البناء, وتشجيع المستثمرين الأجانب وبناء الاقتصاد. ولقد تباهى مواطنو القطاع الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين بوجود برلمان خاص بهم, واختاروا رئيسهم, وحكومتهم وتمتعوا بشعارات تخص الدول, مثل العلم القومي, واللغة الخاصة, والحدود الواضحة في معظمها, بل وجيش صغير يسمى "البشمرجة". كل ذلك في الوقت الذي مازالوا فيه رسميا جزء جوهريا من الدولة العراقية. ولقد امتنع قادة القطاع عن توجيه النقد اللاذع لإسرائيل في أوقات المواجهات الصعبة مع الفلسطينيين. كما أعلن الرئيس مسعود بارزاني, ابن الملا بارزاني, بشجاعة عن استعداده إقامة علاقات مع إسرائيل.

وقال مسعود بارزاني في مقابلة صحفية "العلاقات مع إسرائيل ليست جريمة, أنا مستعد لفتح قنصلية إسرائيلية في الإقليم الكردي في حال قررت الحكومة العراقية فتح سفارة إسرائيلية في بغداد."

من الكردي هنا؟

لم تمر بضعة شهور منذ أن أطلق بارزاني تصريحاته المؤيدة لإسرائيل, إلا واندلعت عاصفة أخرى. فالرئيس العراقي جلال طالباني ابتسم ابتسامة عريضة وصافح بحماس يد وزير الجيش الإسرائيلي إيهود باراك. حدث ذلك في أثينا, التي استضافت مؤتمر الإشتراكية الدولية. يعتبر هذا اللقاء بين المواطن العراقي الأول , الذي هو كردي كذلك, وبين جندي سابق بارز في تاريخ الجيش الإسرائيلي, حدثا نادرا له مغزى رمزي, ولذلك حظى باهتمام وسائل الإعلام العالمية.

واتهم نواب من الكتل الشيعية الرئيس طالباني بالخيانة وطالبوه بالاعتذار والندم. ثم قال أحمد مسعودي أحد أعضاء البرلمان غاضبا "هذه صفعة على وجه الشعب العراقي وخرق للقانون,".

لم يكن باراك أول إسرائيلي يقابله طالباني في حياته. فقد حكى أحد كارهي الرئيس بعد هذه المصافحة كيف ذهب طالباني في ستينيات القرن العشرين إلى السفارة الإسرائيلية في باريس

طالبا لقاء رجال الموساد, طالبا منهم تزويد إخوانه الأكراد الذين يقاتلون الحكومة القمعية في بغداد بالسلاح. ومن حينها انقلبت الآية, وأصبح الأكراد المضطهدون أيام حكم البعث شركاء رئيسيين في الحكم. وعلى الرغم من ذلك, فإن الكثير من العراقيين يعتبرونهم أقلية أجنبية ليس لهم الحق في إدارة دولتهم. لقد كانت مجاملة طالباني إعرابا عن العرفان لدولة إسرائيل لتأييدها لهم على مدى السنين, وأشار بذلك إلى أن الأكراد لا ينسون علاقات الماضي.

كيف خرج الرئيس العراقي من هذه القصة؟ - بالخديعة, بما يناسب شخصية ذات خبرة. فبعد ساعات قليلة من الحدث, ولعلمهم أنه من المنتظر أن تحدث ضجة, أصدر مكتب طالباني بيانا رسميا قال فيه إن المصافحة كانت بمبادرة من الرئيس الفلسطيني محمود عباس (أبو مازن), استجاب لها طالباني بحسن نية. وحسب زعم الرئيس العراقي فهو مخول بل وملتزم بالتصادق مع الزعماء الكبار, كما أنه يشغل منصب نائب رئيس مؤتمر الاشتراكية الدولية. علاوة على ذلك قال طالباني أنه توجه إلى أثينا ليس كرئيسا للعراق, بل كأمين عام "الاتحاد الدولي الكردستاني" – أحد التيارين الكرديين بقيادته.

ثم ذكر البيان "لقد كانت المصافحة خطوة ثقافية اجتماعية, وهي مقبولة في مثل هذه المناسبات"، "وهي لا تلزم العراق بأي شيء." إقتنعتم؟ نحن أيضا لا, لكن ما أهمية ذلك. فبعد عدة أيام كان منتقدو طالباني مشغولين بشيء آخر.

الكماشة مصنوعة بكماشة

كيف تترجم "إن لم أكن أنا لنفسي, فمن يكون لي" إلى اللغة العربية؟ أصدرت دار نشر النافذة بالقاهرة الترجمة العربية لأجزاء المشنا الستة, ويتم توزيعها في الأسواق المصرية.

أجزاء المشنا الستة هي مجموعة تفاسير وتشريعات التوراة, انتقلت من الأب إلى الابن شفاهة حتى تدوينها في القرن الثالث الميلادي بواسطة حاخامات فلسطين "التنائيم", وعلى رأسهم الحاخام رابي يهودا هاناسي. وكل قسم من أقسام المشنا مخصص لموضوع معين: الزروع, الأعياد, النساء, الأضرار, المقدسات, والطهارات. ولغة المشنا لغة فصيحة وغنية وتعتبر كتابا تعليميا مهما في المدارس الدينية.

قام بعملية الترجمة إلى اللغة العربية الدكتور مصطفى عبد المعبود, باحث شاب في قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب, جامعة القاهرة, مجال تخصصه الأدب العبري الوسيط. أما "النافذة" مؤسسة خاصة متخصصة في النشر في تخصصات: العلوم السياسية, والفلسفة والتاريخ, والأديان. وبعد فترة قصيرة من إصدار ترجمة أقسام المشنا الستة, صدرت, عن نفس دار النشر, ترجمة كتاب البروفسور أفيجدور شنآن "ذلك الرجل – ماذا يقول اليهود عن المسيح عيسى بن مريم".[10]

كان من المفترض أن يؤدي نشر أجزاء المشنا باللغة العربية إلى تفنيد آراء مسبقة انتشرت في الدول العربية ضد اليهود, وكتاباتهم المقدسة؛ فالكتاب والصحفيون والباحثون العرب معتادون في بعض الأحيان إلصاق ادعاءات باليهود حول مؤامرات للسيطرة على العالم, ويقولون إن أصل ذلك موجود في المشنا والتلمود. في عام 2001, ذروة الانتفاضة الثانية,, نشر في القاهرة كتاب "التلمود: أسرار-حقائق", بقلم الحسيني معدي. وقال الناشر في مقدمة الكتاب إنه وثيقة شديدة الخطورة ضد الإنسان والإنسانية. "هو أخطر حتى من كتاب "كفاحي" لأدولف هتلر. وبعد بضع سنوات من ذلك استخدم محرر صحيفة تشرين السورية عصام داري, التلمود من أجل تعليم قرائه عن طبيعة اليهود.

كتب الصحفي السوري قائلا "نحن لا نرغب في العودة إلى أسس عقيدة الصهاينة – الإسرائيليون والأمريكيون معا, التي جمعها حكماء صهيون على مدى ستمائة عام" و"نشروها في كتاب يسمى "التلمود", المليء بتعبيرات القتل, والدمار, وسفك الدماء, والعنصرية, لكنه يتناول السلام. فمع من سيقيم الصهاينة السلام؟ - مع الأغيار وسائر الأمم؟ وهل شعوب الأرض – حسب زعم التلمود – لم تخلق من أجل خدمة اليهود؟"

لم يكتف الدكتور مصطفى عبد المعبود بعملية ترجمة المشنا فقط, لكنه زاد من معرفة قرائه فيما يخص الأقسام الستة. فكتب عن رابي هليل الذي جمع المشنا, ورابي مائير, ورابي عقيبا, ورابي يهودا هاناسي, الذي أنهى تدوين المشنا. كما ذكر الجدل بين تيارات اليهودية فيما يخص الصلاحية التشريعية للمشنا بالنسبة للتوراة. ولقد استعان الباحث المصري في عمله

---

[10] الكتاب ترجمة: عمرو زكريا خليل

بكتابات نظرائه الإسرائيليين, ومن بينهم حانوخ ألبق, وسمحا بونم أورباخ, وبنحاس قهتي. كان من المفترض أن يكون هذا العمل عونا للآخرين خاصة من أمثال أصحاب العامود الصحفي مثل محرر صحيفة تشرين, كي يتعرف بشكل أفضل على كتاب التفاسير الذي يخافون منه.

المتصفح لأجزاء المشنا سيعلم جيدا إلى مدى التحدي الصعب والمعقد الذي أخذه الباحث المصري على عاتقه. إن تعبير "لا تنظر إلى الإناء لكن انظر إلى ما بداخله", من السهل ترجمته بدون صعوبة كبيرة. لكن المشنا متاهة لغوية, وخيوط معقدة يستطيع العبقري فقط حلها ونقلها إلى لغة أخرى. حاولوا فقط أن تفسروا لزملائكم, بلغة عبرية بسيطة تعبيرات مثل: المعكوس فيها, والمعكوس فيها" و"الكماشة مصنوعة بكماشة".

يهودية صاحب الجلالة

البيان الذي أصدرته وزارة الخارجية في العاصمة البحرية المنامة كان غير متوقعا؛ حيث قرر الملك حمد بن عيسى آل خليفة تعيين هدى عزرا نونو سفيرة لبلاده في واشنطن. تم استدعاء نونو للمنصب من البرلمان البحريني الذي عينت فيه قبل سنة ونصف بأمر ملكي. وكانت تشغل قبل ذلك منصب رئيس جمعية حقوق الانسان بالمملكة.

تنبع المفاجئة التي صاحبت تعيينها من أصلها؛ فنونو يهودية من مواليد البحرين, من عائلة رجال أعمال ناجحة مقربة من النظام الحاكم. كان والدها عزرا نونو صاحب شركة استثمارات ناجحة ومن ركائز الأعمال البنكية في المملكة. عمل جدها, أبراهام نونو, كعضو مجلس محلي في البحرين عندما كانت مستعمرة بريطانية, في عشرينيات القرن العشرين.

أصبحت نونو بتعيينها في هذا المنصب الرفيع ثالث امرأة تشغل منصب سفيرة لبلادها في الخارج. ومن سبقتاها تم إرسالهما إلى الصين وفرنسا. كما أنها أول يهودية في دولة عربية يتم إرسالها لرئاسة بعثة دبلوماسية. درست نونو إدارة الأعمال في الجامعة البريطانية, وهي أم لولدين. كان عمرها وقت تعيينها في المنصب –عام 2008- 46 عاما. ولقد شهدت على نفسها بأنها تصوم يوم الغفران, وتحتفل بالأعياد اليهودية. وقالت بعد وصولها واشنطن "شعرت بالمهانة عندما قالوا لي إني عينت في المنصب لأني يهودية., أنا بحرينية قبل كل شيء".

يبلغ عدد الطائفة اليهودية في البحرين ألف شخص على أكثر تقدير, هاجر معظمهم إلى إسرائيل بعد إعلانها. وكان أصلهم من موجات الهجرة من العراق, واليمن, وإيران, في بداية القرن العشرين. ومنذ ذلك الحين بقي منهم العشرات –أبناء عائلات: كدوري, ورؤبين, ومراد, ونونو. قرر ملك البحرين توطيد العلاقات مع الغرب, خاصة مع الولايات المتحدة, لذلك حرص على الحفاظ على رفاهية الأقلية اليهودية. وفي عام 2000 تم ترميم المعبد اليهودي في المنامة بأموال الدولة. وفي نفس الوقت تقرر أن يحفظ في البرلمان, بشكل دائم, مقعد ليهودي, ومسيحي من الأقلية المسيحية.

على الرغم من العلاقة الخاصة التي منحها النظام الحاكم إياهم, ليس من السهل أن تكون يهوديا في دولة عربية في الوقت الذي فيه علاقة إسرائيل بالعرب قابلة للانفجار. في عام 2001 بعد عدة شهور من اندلاع الانتفاضة الثانية, تعرض أثرياء الطائفة اليهودية في البحرين لاختبار الهوية؛ فهم لم يستطيعوا رفض حملة التبرعات التي دعا إليها المكتب التجاري المحلي لصالح الشعب الفلسطيني. وتم جمع حوالي عشرة ملايين دولار, بفضل هذه الحملة, من أثرياء المملكة, ومن الأحزاب, والشخصيات العامة المختلفة. ولقد تبرع عزرا نونو, والد هدى, بنصيبه.

فاليهودي رؤبين رؤبين, صاحب شركة لاستيراد الأجهزة الإلكترونية في المنامة, والذي تبرع بمبلغ 5.000 دولار من ماله الخاص ، قال "تبرعنا ليس الأول. لقد تبرعنا للفلسطينيين من قبل, لأن ذلك واجبنا كمواطنين بحرينيين," ثم قال مؤكدا "كتبت الشيك يوم الجمعة, على الرغم من أن عملية جمع التبرعات كانت يوم السبت, هذا واجب, وعمل إنساني. هناك إسرائيليون أيضا يتبرعون. أنا ضد قتل الأبرياء, لا يهم السبب. كما أن ياسر عرفات قال ذلك."

وفي المعارضة البحرينية زعموا أن تعيين هدى نونو في منصب سفيرة في أهم دولة عبر البحار, يعتبر تملقا للوبي اليهودي في الولايات المتحدة, وبذلك تحسين مكانة المملكة في واشنطن. ولم ينكر القصر الملكي ذلك, وقبل عدة شهور من الإعلان عن التعيين, وجه الملك دعوة ليهود البحرين بالعودة إلى الوطن والحصول على حقوقهم كاملة.

ومن توقع أن تتخذ نونو موقفا مساندا لإسرائيل, بعد تعيينها في هذا المنصب المهم قد خاب أمله. فطول مدة توليها المنصب كانت السفيرة اليهودية حريصة على عدم الاتصال بالإسرائيليين,

خشية أن يستخدم ذلك كسلاح ضد من أرسلها. لاشك أنه من الصعب أن تكون يهوديا, خاصة إذا كنت عربيا.

من أنت يا ولد؟

هل يحل للمسلمة الزواج بيهودي؟ أرسلت القارئة أمل حسين عبد الوارث, من ولاية إنديانا بالولايات المتحدة, رسالة إلى مجلة "عقيدتي" المصرية. هي مصرية الأصل تزوجت بيهودي أمريكي, لكن ثارت لديها فجأة تساؤلات بخصوص هل هذا الزواج حلال شرعا. ذكرت عبد الوارث أن رجل الدين والزعيم السوداني الدكتور حسن الترابي كان قد أفتى بأنه يحل للمسلمة الزواج بيهودي, لكنها مع ذلك ترغب في سماع رأي رجال الدين في بلدها. وأوضحت قائلة "أنا مقتنعة باختياري, فلا فرق بين نبي وآخر, كما أننا نؤمن بموسى, عليه السلام."

تطوع رجل الدين الأزهري, الشيخ زكريا نور بالرد عليها بأن الإسلام يسمح بالفعل لمعتنقيه بالزواج بأبناء الديانات الأخرى, خاصة عندما يكون ذلك عن رغبة حقيقية وليس لغرض شهواني. واستشهد على ذلك بما ورد في سورة المائدة التي يسمح فيه الله للمؤمنين بأكل طعام المسيحيين واليهود:

"اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من اللذين أوتوا الكتاب من قبلكم.."

وليس مصادفة أن يكون الأمر الإلهي للرجال فقط, فالقرآن لا يسمح للمرأة المسلمة بالزواج برجل غير مسلم. وحسب رأي الفقهاء المسلمين, وعكس اليهودية, فإن ديانة الولد تتحدد حسب ديانة أبيه. فلو تزوجت المرأة بيهودي, أو مسيحي أو حتى بأحد من الديانات غير التوحيدية, مثل البوذية أو الزرادشتية, فإن أطفالها سيكونون غير مسلمين. ولقد حذر الشيخ زكريا من الأزواج الذين يجبرون نسائهم المسلمات على الكفر. وذكر في ذلك قول الله تعالى في سورة النساء حيث حذر الله من المنافقين غير المسلمين:

"الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا"

وكان الدكتور الترابي, الزعيم الروحي للإخوان المسلمين في السودان, قد فاجأنا قبل عامين من طلب السيدة عبد الوارث من الصحيفة الإجابة عن سؤالها؛ بفتوى سمح فيها للمرأة المسلمة بالتزوج من الرجل اليهودي. وكان مبرر ذلك مناصرة المرأة. وقال الترابي الذي درس القانون في أفضل جامعات لندن وباريس " سيبقي هذا التحريم المرأة متخلفة,". ولقد رد معارضوه زاعمين أن الترابي لم يقصد ما قاله. وقالوا "لقد تطرق إلى المرأة التي أسلمت بعد أن تزوجت بيهودي بالفعل, وفي هذه الحالة مباح لها أن تبقى على زواجها به.".

إذن ماذا تفعل المرأة في هذه الحالة؟ لم يكن لدى الشيخ زكريا شك بأن "زواجه بك زنا," وأجابها على صفحات الجريدة "لا يمكن أن يصبح أبا لأطفالك، وأن من يحلل ذلك فهو كافر حتى لو كان اسمه حسن الترابي."

بمباركة الحاخام الأكبر

لم يجعل أحد, موظفي معبر ألنبي الحدودي يستعدون للحدث الكبير الذي سيحظون بمشاهدته في أحد أيام شهر سبتمبر 2005. ففي ساعة مبكرة من وقت الظهيرة, طب فجأة من العاملين التوقف عن العمل والاجتماع في قاعة المسافرين. وفي زاوية القاعة جلس الحاخام الأشكنازي الأكبر لإسرائيل, الحاخام يونا متسجار, محاطا ببعض مساعديه, ينظر في وثيقة زواج أمسكها في يديه.

بعد دقائق معدودة من الساعة الثانية عشر ظهرا كما هو محدد في البرنامج, توقفت عند باب القاعة سيارة بي إم دابليو خضراء تابعة للمخابرات الأردنية. وقبلها بفترة قصيرة وصلت إلى المكان قافلة سيارات تابعة للسفارة الإسرائيلية في عمان, جلس فيها كل من الوزير السياسي المفوض في ذلك الوقت, دانيال نبو, وضابط أمن السفارة, وبعض أفراد الأمن.

, فتحت أبواب السيارة الأردنية الرسمية, وخرج منها, متوتران بعض الشيء, يعقوب شهرباني وحبيبة قلبه راحيل, يهوديان من بغداد. توجها إلى مدخل القاعة, وفوجئا بمشاهدة عشرات العاملين في المعبر يستقبلانهما بالتصفيق الحاد. وطلب العريس بنوع من الخوف "ممنوع التصوير".

قبلها بأسبوع وصلت راحيل ويعقوب من بلدهما إلى عمان, وانتظرا مكالمة هاتفية. الإثنان من شباب الطائفة اليهودية في العراق, هو يبلغ من العمر 37 عاما, مهندس ميكانيكي, ويدرس لنيل درجة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي, ويدير محل مصوغات عائلي. وهي تبلغ من العمر 43 عاما, طبيبة أسنان, تعارفا منذ الطفولة, لكن قبل عام من ذلك التاريخ تحابا وقررا الزواج. بلغ عدد اليهود في تلك الفترة حوالي عشرة أشخاص على أقصى تقدير. ولم يكن لديهم رجل دين, أو خدمات للطائفة. وبحثا عن من يقوم بتزويجهما حسب الشريعة اليهودية, فعرض عليهما صديق إسرائيلي كانا على تواصل معه, المجيء سرا إلى إسرائيل والزواج هناك. ترددا بعض الشيء, بل إن يعقوب أصابه الهلع الشديد خشية أن يتسرب هذا الخبر ويصل إلى بلده, لكنه وافق بعد تفكير عميق. وقد غلبه الفضول, وكذلك معرفة أنه سيعود إلى بيته مع وثيقة زواجه. وفي أثناء الرحلة من عمان إلى المعبر قال بفخر إن أصدقائه في قسم الأدب بجامعة بغداد يعرفون بيهوديته. وقالت راحيل "هو يرتدي سلسلة معلقة بها نجمة داود".

بعد أن سمع بقصتهما تطوع الحاخام الأكبر متسجار أن يقوم بتزويجهما بنفسه. كان البرنامج أن يزوجهما ويعودان إلى الأردن على الفور, ومنها إلى بغداد. قامت السفارة الإسرائيلية في الأردن بتنسيق مع السلطات الأردنية عملية عبورهما الحدود, بدون الحصول على خاتم على جواز سفرهما العراقي. استجاب الأردنيون على الفور بل إنهم زوداهما بسيارة رسمية لتقلهما إلى الجانب الإسرائيلي. وكانت إدارة معبر ألنبي قد قامت بتجهيز حفل استقبال صغير للعروسين, وجهزت معبر المسافرين ليصبح قاعة أفراح لبضع الوقت.

أحضر مساعدو الحاخام معهم من القدس كوشة الفرح, ووثيقة زواج وكأس خمر. وقبل لحظة من إجراء مراسم الزواج, طلب العريس من الحاضرين مرة ثانية بألا يقوموا بالتصوير. وأوضح للحاضرين "نحن نعيش في خوف كبير في بلدنا,". لم يكن الإسرائيليون في حاجة إلى تفسير فقد كانت تلك الأيام هي أصعب أيام في الحرب الأهلية في العراق, وأدرك الجميع معنى تسريب نبأ زيارتهما لإسرائيل.

ومع وقوفهما أسفل الكوشة, فرحين وخائفين بعض الشيء, حكى الحاخام متسجر لجمهور الحاضرين من عمال المعبر عن سيرة راحيل ويعقوب, وكيف أنهما نشئا معا في بلد غريبة, وتجولا

في العالم, وبعد سنوات طويلة تصارحا بحبهما لبعضهما في فناء البيت. وكيف أنهما تعلما الحفاظ على أنفسهما من مخاطر الحياة المتربصة باليهود في بلدهما, وكيف أنهما استطاعا إيجاد طريقة للزواج على الرغم من صعوبة الأمر. ثم توجه الحاخام إلى يعقوب بالإنجليزية وطلب منه أن يقدم خاتم الزواج. أخرج يعقوب خاتما اشتراه لمحبوبته في بغداد. مدت راحيل إصبعها, وسمعت يعقوب يردد بالعبرية وراء الحاخام الأكبر لإسرائيل: "ها أنت مقدسة لي بهذا الخاتم على شريعة موسى وإسرائيل." دمعت عيون بعض الحاضرين, وصفق البعض. وكسر يعقوب الكأس (حسب طقوس الزواج في اليهودية) وصاح الحاضرون مهللين.

حصل العروسان على وجبة خفيفة في غرفة الطعام؛ اقترب أحد العاملين في المعبر من الزوج وأخرج من جيبه كتاب صغير لسفر المزامير, ووضعه في يديه كهدية. وقال له "ماتت أمي منذ 18 علما, وأعطتني إياه وأنا صغير". وساعد عامل آخر, يتحدث العربية, يعقوب على كتابة رسالة لرئيس لجنة اليهود في بغداد ليقوم بتسجيل زواجه في سجلات الطائفة.

دامت الفرحة في بيت راحيل ويعقوب شهرباني ثلاثة شهور على الأكثر. فبعد انتهاء مراسم الزواج عادا إلى عمان, وأمضيا فيها بعض الليالي الأخرى, وغادرا منها إلى منزلهما. لم يكن في مقدورهما الانتقال إلى سكن خاص بهما بعد, وبالطبع إنجاب أولاد. ففي أحد أيام شهر ديسمبر, في وقت الظهيرة خرج يعقوب من بيته إلى بيت زوجته. وحكى صاحب محل لبيع الشاي في الجوار, أن سيارة توقفت بجوار يعقوب, وناداه من فيها باسمه, من أجل التأكد من شخصيته, فرد بالإيجاب. في هذه اللحظة انقضوا عليه وضربوه وأدخلوه بالقوة إلى السيارة. وبعد ساعات تلقت راحيل مكالمة تليفونية من شخص مجهول قائلا لها "خطفنا زوجك,"؛ فسألت من أنتم؟ .أجاب "القاعدة".

حتى تلك اللحظة, لم يمس أحد من اليهود منذ اندلاع الحرب في العراق. أدركت راحيل على الفور أن كارثة حلت بها. وبعد بضعة أيام تلقت رسالتين أخريين من تليفون محمول. ذكر فيهما أنهم يحتفظون بيعقوب, وطالبوا بإطلاق سراح جميع الأسرى لدى الأمريكيين, وسحب قوات المحتل من العراق. باءت كل محاولاتها الاتصال بنفس الرقم بالفشل. أخبرت راحيل الأمريكيين وكذلك أصدقائها في إسرائيل, وأخبر أخو يعقوب في بغداد أمه التي تعيش في لندن.

طار الخبر سريعا, ومن تلك اللحظة تضافرت جهود الكثير من الهيئات لافتداءه من الأسر, وعلى رأسهم رئيس الطائفة اليهودية في بريطانيا, والولايات المتحدة, وفرنسا. وفي إسرائيل أقاموا الصلوات من أجله في المعبد اليهودي الخاص بطائفة اليهود من مهاجري العراق، كما قاموا بالصلاة من أجله في الدول الأخرى . كان من الواضح للجميع أن فرصة نجاته ضعيفة. وعرضت راحيل دفع فدية تقدر بعشرات الآلاف من الدولارات, وهو المبلغ الذي ادخرته لديها, لكن الخاطفين تمسكوا بشروطهم غير الممكنة. وبعد عشرين يوما من عملية الخطف تلقت رسالة هاتفية تقول بأنه إذا لم يتم تنفيذ مطالب الخاطفين, فإن زوجها سوف يعدم خلال 72 ساعة, وكان ذلك آخر انذار من الخاطفين.

بعد عدة شهور من اختفاء زوجها, جاء مواطن عراقي إلى راحيل, وقدم نفسه لها على أنه طبيب يدعى الدكتور لطفي, وأخبرها أن لديه معلومات عن يعقوب من الممكن أن تساعد في إطلاق سراحه. فسألت "أهو حي؟" أجاب "بالطبع" .

قال لها لطفي أنه من أجل إطلاق سراحه عليها أن تدفع رشوة لبعض الناس. وبسبب حالة اليأس التي أصابتها أعطته, بناء على طلبه, مبلغ 75 ألف دولار, هو كل مدخراتها. ومنذ ذلك الوقت لم تسمع منه شيئا.

يدل واقع الحياة في العراق في تلك الفترة على أن يعقوب قتل وأن جثته ألقيت في نهر دجلة, أو دفنت في أعماق الأرض في مكان غير معروف. وأن فرصة الاحتفاظ به أسيرا طوال هذه السنوات ضعيفة, لأنه لن يستفيد أحد بذلك. كان جليا للجميع أن يعقوب قد قتل لأنه يهودي لم يخف دينه. لم يعرف أحد ماذا قال لخاطفيه حول ملابسات معرفته براحيل وزواجه بها.

الفصل الخامس

الجهاد والإرهاب

بن لادن لم يعد يسكن هنا

كانت إسرائيل يوما ما المتضررة الأولى من الإرهاب في الشرق الأوسط, وكان العرب يسعون دائما لإقناع الجميع بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإنهاء الاحتلال. ومنذ ذلك الحين ظهر نوع جديد من العمليات الإرهابية. عمليات جماعية لا تميز بين أحد, معظم ضحاياها من المسلمين.

ماذا يقصد العرب عندما يذكرون كلمة "إرهاب"؟ بالطبع ليس ما يعنيه الإسرائيليون. الإرهاب في الحوار السياسي العربي هو عمليات بشعة لا تميز بين أحد, يقوم بها "استشهاديو" الجهاد, وضحاياها من المسلمين. تم تنفيذ مئات من هذه العمليات منذ أحداث 11 سبتمبر, معظمها في العراق, وكذلك في دول عربية أخرى مثل السعودية, والمغرب, والجزائر, ومصر, والأردن.

نوع آخر من الإرهاب ينسبه العرب لإسرائيل, "إرهاب الدولة" وهو مصطلح يطلقه الزعماء والمفكرون والمتظاهرون والساسة على عمليات الجيش الإسرائيلي ضد مسلحي الجهاد الإسلامي, وحماس وإجراءات العقاب الجماعي ضد الشعب الفلسطيني. أما عمليات القتل التي تقوم بها الفصائل الفلسطينية ضد إسرائيليين, أو إطلاق صواريخ الكاتيوشا, وعمليات الخطف التي يقوم بها حزب الله فلا تعتبر إرهابا. بالطبع لا, خاصة إذا كانت موجهة ضد الجنود. فالقتلى الإسرائيليون يعتبرون في الشارع العربي الثمن العادل الذي على إسرائيل أن تدفعه في مقابل الاحتلال.

إن الإرهابيين المسلمين ليسوا نتاج العصر الحديث, ففي عام 645 ميلاديا, بعد أن أتم عمر بن الخطاب عشر سنوات في الخلافة, ذهب كعادته للصلاة في المسجد النبوي بالمدينة المنورة[11] فاقترب منه أبو لؤلؤة المجوسي وطعنه بالسكين؛ فمات عمر ثاني الخلفاء الراشدين وأحد مؤسسي الدولة الإسلامية. استمر القاتل في عمليته وقتل ستة آخرين. كانت عملية اغتيال أمير المؤمنين أول عملية إرهابية في التاريخ الإسلامي. ويذكر القليلون فقط اسم القاتل لكنهم لا ينسون أنه كان فارسيا, إشارة إلى المعركة الكبرى التي ستحدث في القرون التالية بين العرب والفرس في هذه المنطقة. ويعتبر المجوسي في نظر بعض الشيعة بطلا. ويزعم بعض أنصاره أنه مدفون في مدينة كاشان الإيرانية.

يبدو أنه منذ عملية اغتيال عمر في المسجد لم يتغير الكثير في سياسة المنطقة, ويشهد على ذلك العقد الأول من الألفية الثانية. فهذا العصر, الذي يبدو أنه بدأ بتصادم بين الحضارات, بعد تفجيرات 11 سبتمبر, تحول على الفور إلى مواجهات داخلية دامية. وقد قال أبو مصعب

---

[11] كتب المؤلف أنه ذهب للصلاة في المسجد الحرام في مكة المكرمة, وهذا خطأ قمت بتصحيحه في الترجمة. ((المترجم))

السوري, صاحب أيديولوجية ومقاتل أصولي من المقربين من أسامة بن لادن "الإرهاب موهبة مثله مثل الشعر, والموسيقى, والفن,", "هناك شخص شاعر, وآخر رسام, وآخر إرهابي."

ورغم ذلك, فقد بقي من المعارك بين المسيحية والإسلام, وبين الشرق والغرب, وبين القامعين والمقموعين, قتل المسلمين بعضهم البعض. ربما يكون بن لادن قد انتقم من الولايات المتحدة, لكنه أورث البشرية أداة جديدة لتصفية الحسابات تم تبنيها بكل سرور خاصة ضد أبناء جلدته. ففي السنوات 2004-2008 أعلنت التيارات المتشددة مسؤوليتها عن 313 عملية إرهابية, مات فيها 3.010 ضحية. ولقد أثبتت الدراسة التي أجراها مركز مكافحة الإرهاب (CTC) التابع للأكاديمية العسكرية الأمريكية ويست بوينت, أن 12 بالمائة فقط من الضحايا (371 شخصا) هم من الغربيين, أما البقية فمن المسلمين, هذا رغم أن القرآن نفسه يحرم قتل الأشقاء.

" ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما"[12]

في الحوار السياسي, يطلق على المنظمة التي تتبنى هذه العمليات "القاعدة". ولقد أصبحت القاعدة ماركة مسجلة للتيار السني الذي يقوم بعمليات إرهابية ذات طابع خاص بأسامة بن لادن ورجاله: استخدام الانتحاريين؛ مهاجمة أماكن تجمع المدنيين؛ وأحيانا بعض التفجيرات المتزامنة. لقى بن لادن, في بداية طريق العنف, استحسان بعض العرب؛ فلوهلة, وقبل أن يعود ليظهر كقاتل للكثيرين, رأى البعض فيه صلاح الدين العصر الحديث. وكان وقتها هو التعبير الحاد للأصوليين الذين يدعون إلى العودة إلى الأصول وبناء أمة عادلة وحصينة. ويقول الدكتور فؤاد عجمي في كتابه "المأزق العربي", قبل أحداث 11 سبتمبر, إن الرسالة الأصولية هي بالنسبة للعرب بمثابة مواساة بعد هزيمة 1967. هي سحر للكثيرين -كما يعتقد الباحث الأمريكي اللبناني- يدعو الكثيرين إلى المشاركة فيه. غير أن بن لادن أخطأ, فقد شوه هذه البشرة إلى درجة جعلتها غير إنسانية, ومقيتة.

---

[12] سورة النساء 93

وباستثناء الفكرة البشعة التي تسمح بقتل المدنيين الأبرياء فقط من أجل تبليغ رسالة إلى حكامهم, هناك قاسم مشترك بسيط بين الجماعات المختلفة التي أطلق عليها "القاعدة". فرغم أن بن لادن هو أبو هذا الأسلوب – البن لادنية- فإن القاعدة لم تكن أبدا شبكة عالمية, تنتقل فيها الأوامر, والثروات, والرسائل بين القارات, بتنسيق كامل بين فروعها وبتوجيه كامل من الأب المؤسس. ربما لذلك ظهرت بوادر ضعفها بعد, عقد من مولدها. فتعبير "الجهاد العالمي" الذي ظهر في أروقة قسم المخابرات في الجيش الإسرائيلي, لم يكن أحيانا أكثر من صفة تمتعت بها المجموعات المحلية التي عملت من أجل إثراء خزانتها, أو تعظيم قوتها, وربطوا عملها برسائل عالمية.

وفي سيناء, اتحد البدو مع الفلسطينيين من أجل تنفيذ سلسلة من التفجيرات ضد السائحين, وبهذه الطريقة الإضرار بخزانة الدولة. هكذا عبروا عن كرههم المعروف تجاه السلطات المصرية, التي حرمتهم لسنوات طويلة عبر قوانين مجحفة. وفي العراق تجمع الفارون من جيش صدام حسين لمجابهة الشيعة, والأمريكيين – أسياد البلاد الجدد, ذلك بعد أن تم تسريحهم من مراكز قوتهم, وتم تسريح الجيش العراقي, وبقي ضباطه وجنوده بدون مصدر للرزق. و"فتح الإسلام" منظمة جهادية سنية ظهرت في لبنان, ضمت فلسطينيين من مخيمات اللاجئين, ويعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية, في بلاد الأرز. وفي الجزائر قام "تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي" بتنفيذ سلسلة تفجيرات مؤلمة, بعد أن تم استبعاد مؤسسيه من تسوية التهدئة التي أنهت الحرب الأهلية. وفي السعودية أسس مجموعة من الشباب المتدينين ميليشيات رفضت الحكم القمعي للعائلة المالكة, وأطلقت على نفسها اسم القاعدة. وفي اليمن وسوريا قامت جماعات مشابهة بعمليات إرهابية ضد أهداف حكومية انتقاما من المساعدات التي قدمتها صنعاء ودمشق للأمريكيين في حربها ضد التيار الأصولي. وقبل كل ذلك عملت حركة حماس في غزة بمساعدة حزب الله في لبنان من أجل قتال إسرائيل؛ وهي المقاومة المغلفة بشعارات الجهاد, لكنها كانت قومية في الأساس.

لو أننا كشفنا الطابع الديني عن هذه الحركات, سنبقى في الأساس مع صراع على الحكم والقوة, وبشكل أقل مع رسالة دينية. كان كمال رزاق مستشار الرئيس الجزائري عبد العزيز

بوتفليقة قد كشف في صيف 2010 عن أن جناح القاعدة في شمال أفريقيا قد حصل على 150 مليون يورو كفدية في مقابل إطلاق سراح مواطنين أبرياء تم اختطافهم. ثلث هذا المبلغ, قال رزاق, دفعته الدول الأوربية وعلى رأسها إسبانيا وفرنسا. وفي العراق, يشكل الدخل من عمليات الخطف في فترات ذروة الحرب الأهلية, حسب التقديرات, حوالي ثلث ميزانية التيارات السنية.

ولقد طلبت الحكومة الجزائرية من الدول الغربية -دون جدوى- المنع بشكل قانوني دفع فدية للخاطفين, غير أنهم -في العواصم الأوربية- فضلوا الدبلوماسية الهادئة للدفع النقدي على المحاربة العلنية لهذه التنظيمات.

الحدود المرنة للصبر

ماذا تصنع فلسطينية ترتدي الحجاب تطوعت لتفجير نفسها في الإسرائيليين؟ القرآن يأمر المرأة بارتداء الحجاب, من ناحية, لكنه, من ناحية أخرى, سيكشف نواياها قبل أن تحقق هدفها. هب الشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر للتخفيف عن الانتحارية. وقال الشيخ المصري في فتوى نشرها في أواخر عام 2001 بأن المقاتلات الفلسطينيات معفيات من ارتداء الحجاب. وقال الشيخ طنطاوي "النساء أو الفتيات اللائي يخرجن في عمليات استشهادية, مسموح لهن بإزالة العلامة التي تميز هويتهن الدينية, إن كانت عائقا لنجاح العملية,".

وعندما سئل إذا كانت النساء ملزمات بشكل عام بالمشاركة في النضال, فرد بالإيجاب. فحسب قوله, لا فرق بين رجل وامرأة يخرجان في عمليات استشهادية؛ فالاثنان شهداء عند الله. لم يختر الشيخ طنطاوي, عن قصد, استخدام لفظ "عملية انتحارية"؛ ففي نظر الجماعات الأصولية, الشباب الذي يضحي بنفسه في النضال ضد الاحتلال ليس منتحرا كارها لحياته؛ بل هو شباب شجاع, اختار العيش في عالم أفضل, وبهذه الطريقة ينفع الذين سيتركهم في هذا العالم.

وقال شيخ الأزهر "من يقوم بتفجير نفسه في شخص, يدمر بيته, ويعتدي عليه أو على ممتلكاته, فهو شهيد, شهيد, شهيد, فليس أمامه سوى هذا التفجير,".

لم يكن طنطاوي الوحيد في هذا الموقف, ففي سنوات الانتفاضة الثانية الصعبة, أفتى رجل الدين يوسف القرضاوي بقتل المدنيين الإسرائيليين. فقال موضحا ذلك "المجتمع الإسرائيلي كله مجتمع عسكري,". فالرجل جندي, والمرأة جندية, وعندما تكبر ستكون رحما لصنع الجنود. وماذا عن الأطفال الإسرائيليين؟ هم أيضا سيكبرون وسيصبحون جنودا.

يمثل رجلا الدين المصريين معسكرين سياسيين مختلفين تماما بالنسبة للنخبة الدينية. فطنطاوي هو أكبر رجال الدين الرسميين, أما القرضاوي فليس من دوائر هذه المؤسسة, انضم في شبابه إلى حركة الإخوان المسلمين, واضطهد في موطنه, فانتقل إلى قطر وعاش فيها وصنع له مدرسة خاصة به. ذاع صيته بعدها وأصبح من كبار رجال جيله في البحث والفتوى.

عبر شيخ الأزهر عن موقف من قاموا بتعيينه ووافقوا في صمت على سياسة التفجيرات ضد الإسرائيليين. هكذا حاول نظام مبارك التعامل مع الشارع الغاضب الذي طالبه بالعمل ضد إسرائيل؛ لكن الرئيس المصري رفض إرسال قواته مرة أخرى إلى فلسطين, بحجة أن مصر قد دفعت من دم أبنائها في الحروب السابقة. لكن في كل ما يخص التصريحات والكلمات, كانت مصر تتفق مع الخط الذي تنتهجه حماس, لكن ليس لمدة طويلة على ما يبدو.

ففي شهر أكتوبر 2004, بعد ثلاث سنوات من فتوى شيخ الأزهر للفلسطينيات, ذاقت مصر ألم التفجيرات. وكان أول هدف تم استهدافه هو فندق هيلتون طابا في سيناء الذي قتل فيه 33 من المقيمين به, من بينهم تسعة سائحين إسرائيليين. كان ذلك بداية سلسلة من التفجيرات القاسية في السنوات التالية, حصدت أكثر من 100 ضحية في الأماكن السياحية في سيناء وشرم الشيخ. وكان من يقف وراء هذه التفجيرات تنظيم أصولي من بدو سيناء وفلسطينيين.

أدرك طنطاوي ومعه القيادة السياسية المصرية, أن السحر قد انقلب على الساحر, وبدأوا في الحديث عن أن العمليات الانتحارية ضد المدنيين تعتبر عملا إرهابيا. وتم التخلي عن مصطلح "عملية استشهادية", وحل محله مصطلح "عملية انتحارية". ومرت سنتان, وثلاث سنوات, وبدأت القاهرة في التعاون علنا مع إسرائيل ضد حماس, التي أيدتها قبل سنوات.

فرقة الخالة

واضح جدا ماذا كان سيقول الشيخ طنطاوي لرانيا عنبكي, فتاة عراقية تبلغ من العمر 15 عاما, لو كان قابلها. كان من المفترض أن تكون عنبكي المرأة رقم 50 التي أرسلها تنظيم القاعدة في العراق كي تكون قنبلة بشرية. خرجت الفتاة ذات صباح إلى السوق في مدينة بعقوبة واضعة على جسدها حزاما ناسفا. وفي اللحظة التي اقتربت فيها من مجموعة من رجال الشرطة لفتت انتباههم بتحركاتها المثيرة للشك. أخرج رجال الشرطة سلاحهم وطلبوا منها التوقف. فلم تنفذ أوامر من أرسلوها وسارعت إلى تسليم نفسها لرجال القانون.

روت عنبكي قصة حياتها لمن قاموا بالتحقيق معها, واتضح أن من قامت بإرسالها لهذه المهمة هي خالتها وجدان سلمان حزدجي. عملت الخالة مع تنظيم القاعدة, وكانت رقم 1 في تجنيد الانتحاريات في مدينة بعقوبة. ألقي القبض على الخالة, وبعدها, على الفور, على الأم رانيا بسعاد, التي سمحت لأختها بإرسال ابنتها لتلقى حتفها. في صباح نفس اليوم, -أغسطس 2008- أعدت لها الخالة وجبة الإفطار في بيتها, ووضعت في مشروبها مخدرا مشتتا للانتباه. بعدها ألبستها الحزام الناسف, ثم وبرفقة ابنها خرج الثلاثة إلى السوق. هناك خططت لترك ابنة الأخت, ومراقبتها ومشاهدتها بعينها تقوم بتنفيذ المؤامرة.

أهذا أمر بشع؟ على العكس, فذلك روتين عائلي. فقد ألقي القبض في منزل الخالة على الابن رشيد صبار, الذي حمل لقب "أمير" في التنظيم. قتل والد رانيا, إبراهيم, مطلق عنبكي, في عملية انتحارية لتنظيم القاعد في البلدة التي يقيمون فيها. وبقيت أمها الأرملة موالية للحركة, قامت بعد موت الأب بتزويج الابنة لمقاتل شاب في التنظيم, محمد سميط, بأمل أن يساعدهما دخله على المعيشة. لكن رانيا كرهت زوجها, وطقت منه بعد فترة قصيرة. بعدها ألقي القبض على الزوج لقيامه بسلسلة من الاغتيالات لصالح التنظيم, ودخل السجن لسنوات طويلة. حكت رانيا أيضا في التحقيق معها أن الزوج دفعها إلى القيام بعملية انتحارية. قائلة "قال إني سأدخل الجنة بهذه الطريقة," . وبعد أن قامت بتسليم نفسها والتحقيق معها, قدمت للمحاكمة وحكم عليها بالسجن لمدة سبع سنوات.

إن فكرة إرسال سيدة لتفجير نفسها في قلب مجموعة من المدنيين ليس أمرا مسجلا على اسم من يقومون بإرسالها. فقبل ذلك بسنتين قبل اندلاع الحرب في العراق, قامت حركة حماس والجهاد الإسلامي بتجنيد فتيات ونساء من أجل قتل الإسرائيليين. وأشهرهن هي هنادي جرادات, منفذة العملية الانتحارية في مطعم "مكسيم" بحيفا, التي أدت إلى مقتل 21 إسرائيليا. جرادات محامية من جنين انتقمت لموت خطيبها وأخيها اللذين أطلق الجيش الإسرائيلي النار عليهما عشية يوم زفافها وأمام عينيها.

أعلن الجيش العراقي, بعد فترة قصيرة من القبض على عنبكي, إلقاء القبض على ربة منزل قامت بتجنيد 28 امرأة للقيام بعمليات انتحارية, وأعرب80 آخرون عن موافقتهن على ذلك. اعترفت أثناء التحقيق معها, أنها حرصت في بعض الحالات, على أن يتم اغتصاب السيدات, كي تستطيع فيما بعد إقناعهن, بسهولة أكبر, بمقت الحياة. كانت ربة المنزل هي سميرة أحمد جاسم, سنية, تبلغ من العمر 51 عاما من مدينة ديالي. كان اسمها الحركي -للسخرية- "أم المؤمنين" وهو اللقب الذي كانت تحمله زوجات الرسول. وفي التسجيل الذي وثق التحقيقات معها ونشرته الجهات الأمنية في بغداد, كشفت جاسم كيف قامت بتجنيد بعض الانتحاريات. كانت الأولى أم لأطفال, والثانية فتاة لم تتزوج حتى كبر سنها, والثالثة مراسة قاطعتها عائلتها, وتدهورت حالتها النفسية. أخذتهن جميعا لمزرعة, وهناك ألبستهن الأحزمة الناسفة.

وقد قالت "تلقيت الأوامر من مفتي 'أنصار السنة'", "كانت مهمتي دفع النساء المحبطات اللائي يعانين من مشاكل اجتماعية وعائلية للقيام بالعمليات. وكان التنظيم يختار مكان التفجير." كان ذلك بالنسبة لها مجرد عمل ليس أكثر.

إن من يبحث لديها ولدى أمثالها عن الوازع الأيديولوجي, مدعو لسماع قصة أبو نوال, وهو لقب أحد قادة القاعدة في مدينة الموصل. أبو نوال, 28 عاما, يكشف صراحة أنه انضم إلى صفوف التنظيم, أو باسمه الرسمي "دولة العراق الإسلامية", لأسباب اقتصادية. فقد قال "حصلت على 1.300 دولار شهريا," وذلك في مقابلة مع الواشنطن بوست. تم تكليف الشاب العراقي بإدارة أموال التنظيم في بلدته, وكان مسئولا عن توزيع أجور 500 مسلح. وحكى عن تنظيم كبير كان يقوم بحوالي 30 عملية يوميا.

وأضاف "حصلنا على معظم أموالنا من أماكن مثل سوريا, أو من عمليات الخطف,". كان يصل مبلغ الفدية في بعض الأحوال إلى 50 ألف دولار للمختطف, وكان المال الذي يتم جمعه في الموصل فقط يصل في أقصى تقدير إلى ستة ملايين دولار.

وقال أيضا "طبيعي أن نكره الأمريكيين ونرغب في أن يتركوا المكان," , "لكن السبب الذي جعلني أنضم أنا وكثيرون مثلي, إلى "دولة العراق الإسلامية", هو إعالة عائلتي."

شاهدنا في هذا العالم رانيا عنبكي, التي كانت انتحارية من نوع آخر, تركها أبوها, وشجعتها أمها وزوجها على الموت, ودفعتها خالتها للضغط على زر التفجير كي تنتقل إلى العالم الآخر. كانت مطلقة في سن 15, من عائلة فقيرة, يدفعها كل أفراد عائلتها إلى الموت. الله لم يرزقها الأطفال لتستمد قوتها منهم. كان لديها على ما يبدو جميع الأسباب التي تجعلها توافق على طلبهم. لكن رغم كل ذلك, ورغم أن عقلها كان مشوشا, إلا أن غريزة حب الحياة تغلبت عليها في لحظة الحسم. لقد عادت لتصبح فتاة بعقوبة التي حلمت أن تكون طبيبة عندما تكبر.

لا داعي للفخر

أخرجت الحرب الأهلية في العراق بعض الكائنات الظلامية, فأحد الفصول المظلمة في تلك السنوات كان حملة الإساءة التي تعرض لها الشواذ جنسيا. وقفت وراء هذه الحملة مليشيات شيعية وسنية على حد سواء, بزعم دعوة الشعب إلى الأخلاق الحميدة. ولقد تميز بذلك على وجه الخصوص رجال الشيخ الشاب مقتدى الصدر. الصدر من مواليد عام 1973, وهو ابن الزعيم الشيعي محمد صادق الصدر, الذي اغتيل على أيدي رجال صدام حسين عام 1999. قام مقتدى, بعد سقوط نظام حكم البعث, بتشكيل حركة دينية بدعم اقتصادي وسياسي إيراني. وشكلت إلى جانب هذه الحركة ميليشيا قوية ومتشددة تحت اسم "جيش المهدي". وقف رجال هذه الميليشيا في مقدمة النضال الشيعي ضد المحتل الأجنبي وكسبوه خسائر فادحة. وباليد الثانية حاربت الميليشيات السنية التي اعتمدت في معظمها على ضباط وجنود الجيش العراقي المنحل. وقامت, في معاقلها في "مدينة الصدر" ضاحية شرق بغداد, بتشكيل شرطة دينية طارد رجالها النساء اللائي رفضن ارتداء الحجاب, وبحثوا عن المحال التي تبيع الكحوليات, واقتحموا

المستشفيات الحكومية ليمنعوا الأطباء الذكور من معالجة النساء. ومع استقرار الوضع الأمني في العراق مع نهاية عام 2007 وما بعده, بدأوا في مطاردة الشواذ جنسيا.

وصل مسلحو جيش المهدي ملثمين ومسلحين إلى محل في حي الشعب في بغداد, ثم انقضوا على الحارس, ولوحوا بالسلاح في وجهه قائلين: "نعلم أنك شاذ جنسيا," بعدها اقتادوه إلى مكان غير معروف. هناك أخرج أحدهم ورقة وبدأ في قراءة أسماء الرجال الذين اتهمهم بإثم مشابه. عرف الحارس أربعة منهم, وأكد لمختطفيه على ميولهم الجنسية. لقد أدرك أن شخص ما من طائفة الشواذ في بغداد قد أمد الخاطفين بهذه القائمة – سواء عن قصد أو مكرها. وعلى مدى ثلاث ساعات, أثناء الليل, تم التحقيق مع الحارس الساذج وطلب منه الإبلاغ عن أسماء شباب آخرين يعلم بميولهم الجنسية الشاذة. وفي نهاية التحقيق القاسي قاموا بإدخال عصا في جسده.

توجه الخاطفون في اليوم التالي إلى عائلته وبدأوا في التفاوض معهم على إطلاق سراحه. باعت العائلة البيت الذي تعيش فيه ودفعت للخاطفين، واستردته إليها. لم يكن مصير أحد الأربعة الذين وشى بهم أثناء التحقيق معه أحسن حالا, فقد قبض مسلحو المهدي عليه فيما بعد وقتلوه.

لم يهتم أي قانون بالقيام بذلك, لكن رسل مقتدى الصدر ساروا ملثمين في شوارع بغداد باحثين عن الشواذ. وعملوا في بعض الأحوال وفقا لقوائم جاهزة, وفي أحيان أخرى انقضوا على الرجال الذين بدا لهم أنهم يتشبهون بالنساء, وعذبوهم وابتزوهم وقتلوا بعضهم. لا يعلم أحد عدد من تم قتلهم, ويقدره البعض بالمئات. ولقد ذكر تقرير الأمم المتحدة في العراق أنه منذ نهاية عام 2008, كانت حملات الترهيب ضد شباب الشواذ تشمل أفراد عائلاتهم أيضا. فقد تلقوا في بعض الأحوال رسائل تهديد وطالبوهم بتسليم من هو عزيز لديهم. فكانوا يقولون لهم"إذا لم تقوموا بتسليم الولد, سنؤذيكم,".

علمت الشرطة بهذه الظاهرة ولم تستطع فعل شيء. لقد اشتكى نفس الحارس من أن دورية شرطة مرت بالجوار وقت اختطافه, غير أن رجال الدورية لم يحركوا ساكنا. وفي حالة أخرى اشتكى أحد المختطفين بأن رجال الأمن أنفسهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال.

"قالوا لي, نحن نعلم أن الشواذ يحصلون على المال من الغرب." وبعد ثلاثة أسابيع في الأسر, اغتصب خلالها وعذ ِب, نجح أبناء العائلة في جمع المال لافتداءه. "عرفت خمسة آخرين لم ينجحوا في جمع المال المطلوب, وتم قتلهم."

وصلت ذروة مطاردة الشواذ في ربيع 2009, في الفترة التي أظهرت فيها البلاد قدرا من التعافي من الإرهاب الذي ضربها على مدى ست سنوات مضت. فلقد عثر على جثث أربعة شباب مضروبة بالرصاص ، كان قد تم القبض عليهم واقتيادهم إلى مدينة الصدر. وتم إحراق المقهى الذي كانوا يجتمعون عليه. مرت عدة أسابيع وحدثت كارثة أخرى. فقد تم العثور على ثلاثة من أبناء هذه الجماعة تتراوح أعمارهم بين 16-18 سنة, مقتولين على الطريق بجوار مدينة الصدر. عذ ِب اثنان منهما قبل موتهما, ووضعت ورقة بجوار جثثهم كتب عليها كلمة "شاذ". وحدث, قبل عدة أيام من اختطافهم, أن جاء مسلحو الصدر إلى بيوتهم, وضربوهم وكسروا أيديهم، ثم عادوا بعد ذلك ليكملوا المهمة.

ليس مصادفة أن انتظر الإرهاب ضد الرجال الشواذ عدة سنوات, من لحظة اندلاع الحرب, وحتى قرر المتطرفون العمل بأنفسهم. فكانت الميليشيات تقوم, طوال هذه الفترة, بتصفية حسابات مع أبناء الطائفة المعادية, وتخطف أطفال الأثرياء في مقابل الفدية, والانقضاض على الكنائس, وقتل الجنود الأجانب. أما الشواذ فهم فريسة سهلة لا يحميها أحد ويمكنها الانتظار للنهاية.

يكمن تفسير ذلك في سياسة الإرهاب, والقوى التي تحركه. فمنذ بدأت الساحة العراقية في الاستقرار أمنيا, تم تقويض رجال مقتدى الصدر. وانتخب ممثلوه في البرلمان, وكان واضحا للجميع أن المشر ِع الذي تسانده قوة مسلحة ليست بجيش الدولة, فإنه يتآمر عليها. ولقد قام الجيش العراقي الذي أعيد بنائه من جديد, بعمليات مداهمة واسعة لمعاقلهم, ونجح في إضعافهم. واضطر الصدر نفسه إلى الفرار إلى إيران ومن هناك أدار شؤونه في العراق.

أما الميليشيات السنية فقد دفعت ثمنا أكبر بكثير. هي أيضا ذهبت إليها القوات الخاصة الأمريكية, كما قامت كتائب المتطوعين من السنة أطلق عليها "مجالس الصحوة" بمطاردتهم. هذه الكتائب بمثابة شرطة لفرض القانون والنظام شكلها السنة ضد السنة, تحت قيادة الشيوخ

المحليين, وحصلوا على التدريب والتسليح من الجيش الأمريكي. بدأت في نفس الوقت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة في إعادة جنودها إلى وطنهم, كخطوة للتعبير عن الثقة في حكومة بغداد التي اكتسبت الثقة في نفسها وبدأت في شن حرب ضارية ضد الفساد والفاسدين, وعلى المتمردين, والإرهابيين, أو ضد كل من يحاول تهديد مستقبل العراق.

أدرك الشيخ مقتدى الصدر بإحساسه الثاقب أن عصر إظهار القوي يلوم عينيه, وأنه من أجل البقاء قريبا من مراكز اتخاذ القرارات فإن عليه تبني قواعد اللعبة السياسية وتقديم مرشحين له في الانتخابات البرلمانية. شهد حزب الله عملية مشابهة عام 1990, بعد الحرب الأهلية في لبنان؛ حيث قرر في النهاية الاندماج في العملية السياسية, وأرسل, لأول مرة, مرشحين عنه للمجلس التشريعي.

لكن على عكس حزب الله الذي حصل على ثقة كبيرة لدى الشعب لمحاربته المحتل الإسرائيلي, فقد كان في العراق معركة طائفية ضارية. فجيش مقتدى الصدر أراد التخلى عن الصورة المتطرفة والفوز بتأييد الشعب, لكن صعب عليه القيام بذلك بين عشية وضحاها. فقد كان في حاجة إلى راية أخرى يستطيع من خلالها إظهار الاهتمام الكبير بمصلحة الشعب. ولقد بحث رجاله عن ذلك فوجدوا فرسان الأخلاق. وكان الهدف الذي تم اختياره جماعة الشواذ جنسيا.

وفي طريقهم لارتداء عباءة حراس الشريعة, لم يطلب منهم الذهاب بعيدا. فقد قام رجال الدين بالعمل من أجلهم. وأحدهم هو الشيخ جاسم موطيري, إمام المسجد الكبير في مدينة الصدر. الذي اشتكى في خطبة ألقاها في شهر مارس 2008 من "ظاهرة الشذوذ بين الرجال والنساء", مثل ارتداء ملابس الجنس الآخر وأدواته, والعمليات الجراحية من أجل تغيير النوع.

وتساءل الخطيب "أين ذهبت الأخلاق؟ أين الطهارة؟" , ودعا أتباعه إلى منع هؤلاء الرجال من العيش بهذه الطريقة. بعدها بيومين بدأت موجة الاغتيالات.

امتياز في خدمة الله

ماذا قصد الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات عندما دعا جموع المسلمين للخروج للجهاد من أجل القدس؟ لو أننا استطعنا سؤال عرفات نفسه, لقال لنا أنه أراد حث المؤمنين على الدعاء من

أجل استعادة القدس. لكن إذا وجهتم السؤال إلى مواطن عربي في الشارع, يحتمل أن يجيب بأن هذه كانت طريقة الرئيس من أجل حشد الجماهير لمقاومة عنيفة.

مصطلح "الجهاد" له معان مختلفة, بعضها عسكري بالفعل, لكن معظمها ذات طابع دنيوي. المعنى الحرفي للكلمة هو "أقصى جهد". وهو في نظر الغرب وكثير من العرب دعوة إلى القتال أو "الحرب المقدسة". ويرجع أصل هذا التفسير إلى القرون الأولى للإسلام التي نظر فيها المؤمنون إلى الجهاد كوسيلة لمحاربة عابدي الأوثان, أو أبناء الديانات الأخرى. ولقد استخدم القرآن مرات عديدة الجذر "ج, هـ د", وكان السياق في بعض المواضع محاربة الأعداء, وفي مواضع أخرى وصف الجهد الكبير من أجل عبادة الله. ففي سورة البقرة الآية 218 قال الله تعالى: "إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم". وفي سورة التوبة قال الله تعالى: "يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير"[13].

تعتبر بعض الحركات الأصولية الجهاد "الركن" السادس لأركان الإسلام, إلى جانب الأركان الخمسة الأخرى. وحصلت حركات أخرى مثل: الجهاد الإسلامي الفلسطيني, على تسميتها منه. وقالت حركة حماس إن احتلال الأرض المسلمة هو أكبر إثم قومي, وإن الجهاد ضده فرض على كل مسلم ومسلمة. "تخرج المرأة للقتال بغير إذن زوجها, والعبد بغير إذن سيده."

ميز علماء الدين المسلمين, الذين تجادلوا مئات السنين حول مفهوم هذا المصطلح, بين جهاد النفس الذي يجب على كل شخص القيام به للتغلب على شهواته؛ والجهاد الخارجي الذي يهدف إلى مقاومة الاستبداد, والاحتلال, وعبادة الأصنام. ولقد أطلق البعض على النوع الأول "الجهاد الأصغر", والنوع الثاني "الجهاد الأكبر". وقال البعض إن الجهاد هو الدعوة إلى نشر العدل والمساواة بين الغني والفقير, والحاكم والمحكوم, والمتعلم والجاهل, والقوي والضعيف.

قال ابن تيمية -من كبار علماء الدين الإسلامي في القرن 13- إن الجهاد هو أفضل طريق يخلص فيه المرء لربه. ولقد تعمق تلميذه ابن القيم الجوزية في هذه المسألة وأورث الأجيال التالية له دراسة منظمة؛ فقد وضع 12 صنفا للجهاد في مختلف مناحي الحياة, وطبقها على

---

[13] التوبة 73

الفرد ونظام الحكم على حد سواء حسب الموضوع. الجهاد العام, على سبيل المثال, هو أقصى جهد يجب على المرء بذله من أجل إعالة عائلته, وعلى الحاكم أن يبذله من أجل رفاهية شعبه. والجهاد السياسي يبدأ بإعطاء الحق في حرية الحوار, وحرية التعبير, والتعبير عن الآراء على الساحة الشعبية. كما يوجد أيضا جهاد الدعوة, الذي هو الدعوة إلى تبني القيم الدينية, وجهاد جنود الجسد: العينان, والأذنان, والتنفس؛ فعلى المؤمن أن يتبناها كي يبذل أفضل ما عنده. من الصعب تجاهل المقارنة بين هذا التفسير وبين الامتياز, الذي يعتبر في المجتمعات السعي لتحقيق القيم المثلى, على الرغم من أنه غير مرتبط بالدين.

إن جهاد المقاومة, المعروف لدينا بمفهومه العسكري, قسمه ابن الجوزية إلى ثلاثة أقسام: الجهاد ضد الشيطان الذي يدعو إلى القيام بالأعمال السيئة؛ والجهاد ضد الميول الشهوانية للنفس من انتقام وأنانية؛ وجهاد ضد كل ما يهدد حياة الإنسان, وبيته وأرضه. والمؤمن ملتزم ببذل أقصى جهد تجاه كل هؤلاء, وإن اضطر إلى حمل السلاح فإن الله سيرضى عنه.

لا نجد ابن الجوزية يدعو في تراثه إلى قتل الأبرياء أو المواطنين العاديين من أبناء العدو. ولقد صدرت فتاوى بهذه الروح فيما بعد بواسطة رجال الدين الذين فسروا قيمة الجهاد العسكري, وعملوا في معظم الأحوال في حالة مواجهة. فقال شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي إن الجهاد في الإسلام يكون في إطار الدفاع عن النفس – الدفاع عن المال, والأرض, ومن أجل خلاص المضطهد. ونرى في ذلك اشتقاق للمعنى العسكري. كما قال جمال البنا, مصري, إن الجهاد كان على مر الأجيال من أجل أغراض متغيرة.

فقد كتب البنا في كتابه "الجهاد" : "ليس معنى الجهاد, اليوم, الموت في سبيل الله, لكن العيش في سبيل الله" وحسب كلامه, كان استخدام مبدأ الجهاد, في عهد النبي محمد وأتباعه, وسيلة لمحاربة الإمبراطورية الفارسية, والبيزنطية, والنظام الإقطاعي الذي قمع الكثيرين. وفي المقابل "ففي القرن الماضي (القرن العشرين), استخدم الجهاد من أجل عودة الحريات السياسية, وكوسيلة لمحاربة الإمبريالية المقيتة."

إذن ماذا قصد عرفات بدعوته إلى الجهاد من أجل القدس؟ فلو طبقنا كلامه على أقوال بن القيم الجوزية الدمشقي, لفهمنا أن دعوة الرئيس كانت للكفاح المسلح من أجل تحرير الأرض المقدسة. غير أن عرفات نفسه أنكر ذلك فيما بعد.

لقد صدق الإسرائيليون الذين زعموا أن الرئيس استخدم الازدواج اللغوي عن عمد. فلو أنه قصد تحرير القدس بالطرق السلمية لحرص على ألا يعطي الفرصة لوجود تأويلين لكلامه. ولو أنه أراد أن يجعلهم يقومون بالدعاء والصلاة من أجل القدس, لكان عليه قول ذلك صراحة. ولأنه لم يفعل ذلك, فمن الواضح لماذا اعتبر الكثيرون دعوته دعوة للحرب.

مزحة بدون لحية

أصدر وزير الداخلية الجزائري نور الدين يزيد زرهوني, قرارا بحظر إصدار أي وثائق رسمية تحمل صور رجال ملتحين, أو نساء محجبات. وأي رجل أو امرأة سيصر على الظهور في الصور بهذا الشكل فعليه التنازل عن جواز السفر, أو بطاقة الهوية, أو عن رخصة القيادة.

احتجت الدوائر الدينية على ذلك بشدة متهمة إياه بإهانة الرموز الدينية. فتدخل مفتي السعودية, عبد العزيز آل الشيخ, في الأمر وأفتى بأنه حرام على أي مسلم أن يطلب من المرأة خلع حجابها. لم تكن قضية الحجاب بالنسبة للمفتي السعودي, قاصرة على علاقات حكومة الجزائر بشعبها, لكنها مرتبطة بالأمة الإسلامية كلها. غير أن وزير الداخلية الجزائري المسئول عن الأجهزة الأمنية في بلاده, كان له تفسير وتبرير لذلك. فاللحية والحجاب, حسب قوله, هي علامات مؤثرة من شأنها أن تغير من شكل هوية الشخص في الصورة. وفي بعض الحالات, قال, يستطيع الإرهابيون استبدال الصور, ولن يشعر أحد نهائيا أن هذا شخص آخر.

الحظر الذي فرضه زرهوني على صور المواطنين الملتحين ينطبق على ثلاثة أنواع من اللحى: اللحية الغزيرة لدى الأصوليين؛ واللحية التي تحيط الوجه لكنها غير كثيفة؛ والنوع الثالث هو اللحية الصغيرة الملتصقة بالشارب وتحيط الفم من الناحيتين.

في عام 2000, قبل سنوات قليلة من قضية اللحية والحجاب, خرجت الجزائر من حرب أهلية دامية خلفت وراءها حوالي 200 ألف قتيل, وتركت ندبا قوميا عميقا في الدولة. كانت بداية هذه الحرب بعد الانتخابات البرلمانية عام 1992 التي فاز فيها الحزب الإسلامي في أول

عملية ديمقراطية من نوعها في البلاد. غير أن زعماء نظام الحكم السابق بمساندة الجيش, رفضوا قبول قرار الناخب وتمسكوا بالحكم. أعلن الأصوليون العصيان, وبدأ فصل مظلم في تاريخ الجزائر. وكان يوصف الملتحون, خلال فترة الحرب, بالتطرف وتتم ملاحقتهم.

أعلن الرئيس عبد العزيز بوتفليقة, في إطار اتفاق التهدئة الذي أنهى هذه الحرب, عن عفو عام لجميع المعتقلين من بين المتمردين, ومنحهم التراخيص لإنشاء محطة تلفزيونية ذات طابع ديني. تنفس المواطنون في الجزائر الصعداء, غير أنه لم تمر سوى بضع سنوات قليلة, حتى ضربتهم موجة إرهابية جديدة وقف وراءها من أطلق على نفسه "تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي", الذي لم يكن سوى فلول الحركة الإسلامية التي اعتبرت نفسها محرومة في تسوية التهدئة لعام 2000. وكانت ذروة هذه الموجة الإرهابية في ديسمبر 2007؛ حيث انفجرت سيارتان مفخختان بجوار مقر الحكومة في العاصمة الجزائر, وقتل في هذا التفجير 67 شخصا. وكان قبل ذلك بشهرين قد مات 52 شخصا في تفجيرين تم تنفيذهما مع فارق يومين بينهما. كان التفجير الأول موجه ضد مجموعة من المواطنين كانوا في استقبال الرئيس بوتفليقة, والتفجير الثاني في قاعدة لحرس السواحل.

لا عجب في أن الدوائر الإسلامية قد شككت في دوافع وزير الداخلية. وقد حاول متحدثون من قبلهم الشكوى من أن الإرهاب هو مجرد ذريعة, وأن نوايا الوزير الخفية هي محو أي إشارة دينية من الوثائق الرسمية. وفي بداية التسعينيات عشية الحرب الأهلية, حظر رئيس الحكومة آنذاك, بلعيد عبد السلام, دخول المحجبات, أو الملتحين المؤسسات الحكومية. ولقد تم تمديد هذا القانون حتى بعد انتهاء الحرب. إن من يزور الجزائر في سنوات ما بعد الحرب لن يرى في صفوف رجال الشرطة أو الجيش, أو في بعض المؤسسات الحكومية نساء بحجاب, أو رجال ملتحين.

وفي الوقت الذي احتدم فيه الجدل تحديدا, حول مكانة اللحية في الحياة السياسية, تولى في الجزائر أول رئيس حكومة ملتح وهو عبد العزيز بلخادم, ولم تر السلطات في ذلك أي تناقض. فقد قال الرئيس بوتفليقة في أحد خطاباته, "في الجزائر هناك مكان لأصحاب اللحى, وصاحبات الملابس القصيرة." شريطة ألا تظهرهم كقتلة.

أسيرو المؤامرات

هلال العسيري, خطيب في أحد المساجد في مدينة تبوك السعودية, رفض المشاركة في العرض الذي قدمه له صاحبه. فقد عرض عليه الصديق خطة أعدها لتنفيذ عملية انتحارية في أحد أشهر المواقع السياحية في العالم, ساحة جامع الفنا بمدينة مراكش المغربية.

الأيام هي أيام شهر فبراير 2002, والمكان في أفغانستان حيث هاجمت القوات الأمريكية بلا رحمة ولا هوادة مباني, ومغارات, ومعسكرات تدريب رجال أسامة بن لادن. مات في هذه الهجمات المسلحين والمدنيين الأبرياء على حد سواء. فقرر رجال تنظيم القاعدة القيام بعملية انتقامية استراتيجية, واختاروا السفن الأمريكية والبريطانية العابرة في مضيق جبل طارق. أرسل العسيري وشريكه زهير لدراسة ظروف القيام بعملية انتحارية, بأمل أن يقوموا بتنفيذها فيما بعد بزورق متفجر. غير أن العملية الانتقامية واجهت صعوبات. فلم ينجح الثبيتي, أكبر الاثنين, على مدى أيام طويلة في التواصل مع رجال عمليات القاعدة في أفغانستان. ونظرا لأنه تم تدريبه على إعداد العبوات المتفجرة, وكانت لديه قائمة بالمواد والتجهيزات التي يستطيع من خلالها إعداد العبوة الناسفة, فكر الثبيتي أنه من المستحسن الاكتفاء مؤقتا بعملية انتحارية, قد تكون استعراضية لكنها أكثر تواضعا من الناحية الاستراتيجية. هكذا تولدت لديه فكرة قتل سائحين غربيين في مراكش. فقام بعمليات استطلاع واختار بدقة مقهى يطل على الساحة, ومكتظ بالسائحين طوال ساعات النهار, خاصة السائحين الإسبان والفرنسيين.

برر عسيري رفضه بأن المكان مكتظ أيضا بالعمال والمتنزهين المسلمين الذين سيلقون حتفهم في العملية. ولقد رد عليه الثبيتي قائلا إن الشيخ بن تيمية قد أحل قبل 700 سنة قتل المسلمين في أوقات الحرب, إن كان العدو يستخدمهم دروعا.

اعتمد ابن تيمية في فتواه على مبدأ " التترس" أي اتخاذ درع أو ملجأ للحماية. فوفقا لهذا المبدأ فإنه إذا قام الكفار باتخاذ أسرى من المسلمين دروعا بشرية لهم, فمن المسموح لجنود الجيش المسلم بقتل إخوانهم في طريقهم لقتال العدو, خاصة إذا كان هناك تهديدا لحياة المحاربين المسلمين. وقال الفيلسوف الفارسي أبو حامد الغزالي, قبل حوالي مائة عام من ابن تيمية, وهو من كبار رجال عصره, في العصر العباسي, بأن هناك ثلاثة شروط قاسية لقتل

الأسرى المسلمين في المعركة: أن تكون هناك ضرورة تتحقق من وراء القتل مصلحة قطعية؛ وأن تكون المصلحة كلية؛ وأن تكون لمصلحة الأمة كلها.

رغم هذه القواعد الجلية, إلا أن فتاوى هؤلاء الشيوخ حظت في عصرنا بتفسيرات واسعة ومتحررة. فبن لادن وأشباهه قد تمسكوا بفتوى التترس من أجل قتل المسلمين, بل إنهم لم يترددوا في قتل المارة الأبرياء, أو هؤلاء الذين لم يأسرهم الجيش الأجنبي للاحتماء بهم. ما العلاقة بين الأسرى وبين المواطنين المصريين العاملين في صناعة السياحة في سيناء وباعوا الكحوليات للسائحين؛ والشباب الذين تطوعوا للخدمة في الشرطة العراقية بعد صدام وساعدوا الأمريكيين وحلفائهم لإقامة نظام جديد في الدولة؛ سكان حي في العاصمة السعودية الرياض أقاموا بجوار محل إقامة الدبلوماسيين الغربيين؛ وعمال شركات النفط الأجنبية, أو مجموعة جاءت لحضور حفل زفاف في أحد فنادق العاصمة الأردنية عمان – كل هؤلاء ضحايا العمليات الانتحارية التي ليس لها أي سند ديني.

في 17 من شهر مايو 2003 فجر عشرة انتحاريون أنفسهم في خمسة مواقع في مدينة الدار البيضاء, من بينها ملهى ليلي كان به سائحون؛ ومركز ثقافي للطائفة اليهودية؛ والقنصلية البلجيكية. كان وراء هذه العملية أصدقاء "حيدر" و"الثبيتي" في تنظيم القاعدة, وقتل فيها أكثر من 40 شخصا, معظمهم مغاربة. وبعد العملية نشر من قاموا بالتخطيط لها بيانا بروا فيه قتل المسلمين بفتوى التترس.

أما آخرون, أمثال كرم زهدي, فقد حرصوا على فرض قيود على هذا المبدأ. كان الشيخ زهدي عضو "مجلس شورى" الجماعة الإسلامية, وهو تنظيم الجهاد المصري الذين قام رجاله باغتيال الرئيس أنور السادات. تم اعتقاله بعد فترة وجيزة من عملية الاغتيال, وفي سبتمبر 2003 , أطلق سراحه فقط بعد أن أعلن ندمه على عملية الاغتيال, وعلى موت الأبرياء في العملية, ووصف السادات بالشهيد. وكان الصحفيون والباحثون قد سألوه, قبل سنوات قليلة من إطلاق سراحه ويختفى في المجهول, عن رأيه في هذه المسألة. أجاب زهدي أن قتل المسلمين وفقا لمبدأ التترس مسموح به فقط إذا كان تم أسر الضحايا المسلمين للاستخدام كدروع بشرية. أما السكان أو الجيران المسلمين الذين يقطنون بجوار منطقة التفجير فلا يشملهم هذا الوصف,

لذلك يحرم قتلهم. كما أقر إن على قيادة القوة المهاجمة أن تكون واثقة من أن موت إخوانهم سوف يؤدي إلى الحسم, وإنه لا سبيل آخر لتحقيق النصر أو الأمن سوى بقتلهم.

بعد عدة شهور من نفس الحوار الذي عرض فيه الثبيتي على العسيري تفجير مقهى في مراكش, قبضت المخابرات المغربية على السعوديين المتشددين. بذلك تم إحباط المخطط الكبير في مضيق جبل طارق. حكى الاثنان أثناء التحقيق معهما عن ملابسات تجنيدهما في التنظيم, وعن أيامهما في صحبة بن لادن ورجاله في أفغانستان, بجوار إخوانهما من اليمن, والسعودية, والسودان، وسوريا, ومصر.

لقد أثار هلال العسيري, الناشط الصغير من بينهما, فضول المحققين على وجه التحديد. فالعسيري دليل على أن الجهاد ليس بالضرورة شأن خاص بغير المتزوجين أو الفقراء وغير المتعلمين. فقد اتضح من التحقيق معه أنه يحصل من عمله في المسجد على راتب 750 دولار شهريا. وتدر له وظيفته الأخرى في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 1.500 دولار أخرى شهريا. وهو يبلغ من العمر 31 سنة, والده عسكري متقاعد, خريج الدراسات الإسلامية, له من زوجته السعودية أربعة أطفال, ومن زوجته المغربية طفلين. كانت لديه أسباب كثيرة للبقاء في الحياة, لكنه اختار ترك أحبائه وحياته في هذا العالم من أجل القيام بعملية انتحارية ضد سفينة أمريكية.

قال في التحقيقات "تأثرت منذ طفولتي بالخطب الدينية للخطباء في المسجد الذين دعوا إلى الجهاد," "شاهدت تسجيلات الحرب في أفغانستان, والبوسنة, والشيشان. سمعت تسجيلات تحث المؤمنين على الخروج إلى الجهاد في أماكن مختلفة في العالم التي يعيش فيها المسلمون محرومون بواسطة الكفار. وبعد أن اقتنعت بفكرة الاستشهاد, قررت الذهاب للجهاد في أفغانستان."

أيها المتصفح العزيز, لديك رسالة جديدة

بعد سنوات من الهجمات الإرهابية في 11 سبتمبر ومازال أسامة بن لادن وجماعته أحرارا, بل ويداعبون أنصارهم. لقد بالغ الدكتور أيمن الظواهري, مساعد أسامة بن لادن؛ حيث دعا متصفحي الإنترنت من جميع أنحاء العالم إلى التوجه إليه بالأسئلة مباشرة عبر الإنترنت. كان

الإنترنت, حتى ذلك اليوم, بالنسبة له وأصدقائه في التنظيمات الجهادية وسيلة إعلامية, وفصل للتعلم, ومنبرا للقاءات الاجتماعية, ووسيلة لتجنيد المقاتلين, ونافذة لعرض إنجازاتهم. ولقد طور الظواهري من ميزات الإنترنت واستخدمه, بالإضافة إلى كل ما سبق, كمكتب لاستقبال الجمهور.

"كل متوجه لي بسؤال سيتلقى إجابة," اقتبس أحد المواقع الأصولية للجناح الإعلامي للقاعدة. " نحن نعلن عن لقاء مفتوح مع أيمن الظواهري, سيجيب خلاله عن جميع الأسئلة الموجهة إليه من الأفراد, والمنظمات, ومن أي وسيلة إعلامية. فالرجاء الحرص على توجيه سؤال قصير ومختصر, وذكر الاسم في نهاية السؤال. وسوف يتم نقل الأسئلة كما هي بدون تغيير."

الدكتور الظواهري, طبيب مصري ولد في عام 1951, وهو من أعضاء تنظيم الجهاد المصري الذين اغتالوا الرئيس أنور السادات. لم يكن الظواهري نفسه شريكا في عملية الاغتيال, لكن تم اعتقاله بعدها وقضى فترة قصيرة في السجن لحيازته سلاح. وفي منتصف التسعينيات انتقل إلى أفغانستان, وكون هناك مع الثري السعودي اليمني أسامة بن لادن "الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين", أو باسمها المعروف بتنظيم "القاعدة". وبعد تفجيرات 11 سبتمبر أعلن الأمريكيون عن جائزة بمبلغ 25 مليون دولار لمن يسهم في القبض عليه.

يقدر المتخصصون في دراسة الإرهاب أنه في عام 2008 كان في شبكة الإنترنت حوالي 5.600 موقعا مختلفا, تنشر الأيديولوجية الجهادية بشكل أو آخر. ويضاف حوالي 900 موقعا مثلهم كل سنة, تحل محل مواقع أخرى اختفت, أو قوطعت أو هاجمها قراصنة الإنترنت. بدون إنترنت لكانت حياة هذه التنظيمات, أو مؤيديها في أنحاء العالم أصعب بكثير. اعتاد نشطاء الحركات الاحتجاجية العنيفة, في الماضي, استبدال الرسائل عبر اللقاءات, أو الاتصالات البريدية أو الهاتفية, ووجدوا طريقهم إلى وسائل الإعلام بصعوبة, لكن اليوم أصبح الأمر أسهل بكثير. فما عليهم سوى نشر كلامهم على أي موقع على الإنترنت, أو رفعه على اليوتيوب. بل إن البريد الإلكتروني, والمنتديات, وشبكات التواصل الاجتماعي قد وفرت عليهم الحاجة إلى اللقاء. ولقد استطاع رجال بن لادن عبر الإنترنت نقل رسائل إلى أتباعهم في الرباط, وكوالا لامبور, أو لندن, أو إنشاء فروع وتمويلها بضغطة زر. وبفضل الإنترنت يستطيع شخص من سوريا التعرف على آخر

في القاهرة, والتصادق مع شخص ثالث في ليبيا, وأن يضموا إليهم صديق رابع من الأردن, والتخطيط معا لعملية انتحارية في عاصمة أوربية.

بعد أن أصبح الإنترنت بالنسبة لهم منبرا للتعارف, عبر المنتديات, والمواقع الأصولية, فقد "استضافتهم" الشبكة أيضا في معسكر للتدريب. فهناك مواقع خاصة علمتهم فصول من نظريات كبار المتشددين, أو أيمن الظواهري, على سبيل المثال, وحدثوهم عن مشروعية قتل المدنيين الأبرياء. ومن اللحظة التي يتم تأهيلهم فيها, أصبح من السهل عليهم العثور على موقع إنترنت, يتميز بنشر المواد التعليمية لتجهيز القنابل.

هكذا سرعان ما أصبح الإنترنت الوسيلة الأولى لدى التيارات الأصولية لتسويق الأفلام البشعة لتفجيراتهم. كان صدام حسين على ما يبدو آخر المطلوبين, الذي أرسل إلى قناة الجزيرة تسجيلا صوتيا من مخبأه, في الوقت الذي هرب فيه من القوات الأمريكية في عام 2003. أما بن لادن ورجاله أو أبو مصعب الزرقاوي في العراق, فقد نشروا كلماتهم, عبر الإنترنت فقط. وحركة حماس التي أرادت تشكيل ضغط شعبي في إسرائيل من أجل الإفراج عن جلعاد شاليط, أذاعت في يونيو 2007 تسجيلا بصوت الجندي, بمناسبة مرور عام على أسر شاليط. وليس كما هو في الماضي, فقد رفع هذا التسجيل على شبكة الإنترنت ولم يرسل إلى محطة تلفزيونية شهيرة.

يبذل القائمون على موقع اليوتيوب جهدا كبيرا من أجل حجب الأفلام التي توثق التفجيرات, أو وصايا الانتحاريين المسجلة. وكذلك شبكة التواصل الاجتماعي الفسيبوك, التي قام الشباب من أنصار بن لادن باحتلالها. أما آخرون, أمريكيون من أنصار القاعدة, على ما يبدو, فقد أسسوا صحيفة إلكترونية باللغة الإنجليزية تحمل بين صفحاتها إرشادات إعداد القنابل.

فقد كتب الشباب في أحد المنتديات الأصولية "لو أن سياسي أمريكي مثل باراك أوباما, قادر على استخدام موقع إلكتروني من أجل انتخابه للرئاسة, لكنا قادرين على الاستعانة به من أجل السيطرة على العالم.", "سوف نرفع أجزاء تجسد سقوط الصليبيين, التي لا يحكونها للجمهور."

ليس ببعيد اليوم الذي سيسمح فيه الإنترنت لخبراء الحواسب الأصوليين بالقيام بهجمات مؤلمة ضد مواقع العدو الإلكترونية. ورغم محاولاتهم, إلا أن قراصنة الشبكة لم ينجحوا في التسبب في ضرر كبير ضد الأهداف الحكومية في الولايات المتحدة, أو ضد موقع الفاتيكان الذي

تم اختراقه, أو ضد موقع بنك إسرائيل الذي تمت مهاجمته. لكن بقليل من الإتقان من الممكن أن يقوم هؤلاء القراصنة الأصوليون بالتسبب في أضرار بالغة, حتى بدون وجود خسائر في الأرواح. ويكفي أن قاموا باختراق حواسب مراقبة إشارات المرور في نيويورك, وشركة الكهرباء الألمانية, أو البنك البريطاني المركزي.

ساعة القصة

في الوقت الذي تحسس فيه الدكتور الظواهري الطريق إلى أتباعه عبر البريد الإلكتروني, اتجه صديقه, عبود الزمر, إلى مهنة أخرى. فقد شغل نفسه بكتابة قصص الأطفال.

الزمر من مواليد 1947, ويعتبر من مجموعة الضباط التي خططت لاغتيال الرئيس السادات. لكن على عكس الظواهري الذي نجح في الفرار من العقوبة, ألقي القبض على الزمر وحكم عليه بالسجن لفترة طويلة. ولقد أصبح, في أثناء وجوده في السجن, كبير المسجونين الأيديولوجيين, واحتل من داخل السجن مكان الظواهري كزعيم الجهاد المصري.

مع اقترابه من سن 60 أعلنت زوجته, أم هيثم, أن زوجها كتب 15 قصة, يريد نشرها. كان مولد القصص مع زياراتها له في السجن في بداية التسعينيات مع ابن أخيه. وعندما شاهدهما حكى لهما حكايات من تأليفه, وضعها على الورق فيما بعد .

قال صديق السجين, الدكتور ناجح إبراهيم عنها"ليس في القصص أي إشارات سياسية أو أهداف أخرى. والهدف منها هو غرس القيم الإسلامية في قلوب الأطفال الصغار,"

وبالفعل كانت عناوين قصص الزمر مثل "عاقبة الكذب وعقوبة الغدر", أو "ومن المديح ما قتل", كتبها بلغة سريالية فصيحة. قالت زوجته إنها بحثت لفترة طويلة عن ناشر يرغب في نشر هذه القصص, لكنها لم تجد؛ وليس ذلك مصادفة فمن يحصل من الرقابة المصرية على الإبداع على تصريح بنشر مثل هذا الكتاب؟ إن التعليم القاصر على القيم الدينية السلطات معتادة على التعامل معه. لكنها لن تسرع في منح إرهابي كان شريكا في أحد أبشع الجرائم في السياسة المصرية, الحق في تعليم الصغار, حتى وإن كان في ذلك إعادة تأهيل له.

من هو الإرهابي؟

تحدث مفتي السعودية الشيخ عبد العزيز آل الشيخ من أعماق القلب فدعا إلى مواصلة محاربة الإرهاب بكافة السبل, وأعلن عن مساندته لحكومته. قال "يجب التأكيد على أهمية محاربة جريمة الإرهاب بكل أنواعه وصوره في كل العالم وعلى جميع المستويات," وأضاف "يجب القيام بذلك بكل الطرق, والوسائل والأدوات الممكنة. إن الإرهاب عمل إجرامي, يهدف إلى سفك دماء الأبرياء, والإسلام منه براء."

قال عبد العزيز آل الشيخ هذه الكلمات في ورشة عمل في الرياض تحت عنوان "الإطار القانوني لمكافحة الإرهاب ومصادر تمويله". وفي شهر أبريل 2010, بعد أسابيع قليلة من تلك التصريحات, اجتمع في العاصمة الرياض عشرون عضوا من هيئة كبار العلماء في السعودية, وهي أعلى هيئة للفتوى في المملكة, برئاسة المفتي نفسه. وبعد سلسلة من المناقشات, نشر العلماء فتوى رسمية تعرِّف فيها الإرهاب والإرهابي لأول مرة. وقالوا إن هذه المبادئ تنطبق على كل مسلم وليس فقط على السعوديين. ولقد حددت الفتوى أن الإضرار بالممتلكات العامة, والأبرياء، والتخريب, وخطف الطائرات, وتفجير المباني؛ كلها إرهاب. ومن يدعم ذلك بأي صورة من الصور, ومن يقودهم أيديولوجيا, ويساعدهم ماديا أو معنويا, فهو كمن يشتغل في الإرهاب وسيعتبر مجرما. لم يحدد العلماء عقاب هذا الشخص وتركوا ذلك للقضاء, غير أنهم أطلقوا على فتواهم "فتوى تاريخية". وقالوا إنهم وجدوا أسانيد هذه الفتوى في الكتابات المقدسة وعلى رأسها الكتاب والسنة. وقد قال الملك عبد الله بن عبد العزيز ملك السعودية, "إن المتطرفين لا يمثلون سوى أنفسهم, وإن ارتدوا عباءة الإسلام, وهو منهم براء."

إن نشر مثل هذه الفتوى من أعلى قمة المؤسسة الدينية في المملكة السعودية هو بمثابة إغلاق للدائرة. فالسعودية في نظر الكثيرين في الغرب, هي معقل الأصولية الإسلامية, وإن لم تكن تنوي ذلك منذ البداية. فقد دعم آل سعود, على مدى عشرات السنين, الكليات الإسلامية في باكستان, وغزة, وأفغانستان, ومصر, حتى وإن كانت تردد بين جدرانها آراء متطرفة. كما بني السعوديون المساجد في المدن الأوربية, وأسسوا جمعيات الصدقات التي عملت في السياسة, كما أدخلوا على المناهج الدراسية للأطفال في المدارس فصولا دينية بروح المذهب الحنبلي, أكثر

المذاهب الإسلامية تشددا. وفرضوا, في نفس الوقت, الرقابة والإشراف الأمني الشديد على المواطنين, حتى أنهم لم يمنحوا الشعب الحق الديمقراطي في الانتخاب والترشح, لأن البرلمان السعودي يعينه الملك.

كانت النتيجة البائسة لهذه السياسة المتشددة أن بقي أمراء آل سعود متأخرين لكن في قوة كبيرة؛ فنجد أن 15 من 19 إرهابيا قاموا بهجمات 11 سبتمبر كانوا سعوديين. وإن من أرسلهم في هذه المهمة كان أسامة بن لادن. وفي مايو 2003 وصلت التفجيرات التي تحمل بصمة القاعدة إلى أراضي وطنه السعودية. فقد انفجرت سيارتان في داخل مجمع سكني للأجانب في العاصمة الرياض وقتلت 35 شخصا, معظمهم من جنسيات عربية. وبدأ القصر الملكي, من حينها, محاربة الجماعات المسلحة بلا هوادة, واعتبرها كيانا آثما, وخرج في معركة للقضاء عليها. ولقد سقط في هذه المعارك الكثير من الضحايا الأبرياء.

لم يزعج كل ذلك كبار رجال الفتوى في الرياض ليؤكدوا على أن مقاومة الاحتلال ليس عملا إرهابيا. وفي ذلك إشارة للرأي العام الإسلامي, بأن السعودية لم تتخل عن تأييدها النضال القومي الفلسطيني. لقد كان التمييز واضحا, فعندما تنفجر عبوة ناسفة بين مدنيين أبرياء في الرياض فهذا إرهاب. أما إذا انفجرت في داخل حافلة في القدس فذلك مقاومة من أجل الاستقلال.

شهيد أم قتيل؟ هذا هو السؤال

أطلق زعيم حزب الله حسن نصر الله على صديقه عماد مغنية, قائد الجناح العسكري للحركة لقب شهيد. عمل مغنية على مدى 26 عاما مخططا ومنفذا لعمليات إرهابية معقدة جدا لصالح حزب الله. وفي 12 فبراير 2008 خرج من الاحتفال بالعام الفارسي الجديد الذي أقيم في المركز الثقافي الإيراني بدمشق. وفي لحظة جلوسه في السيارة تم تشغيل عبوة ناسفة مخبأة قضت عليه.

قال نصر الله في ذكرى الأربعين لوفاة مغنية "من قتل الشهيد الزعيم يجب أن يعاقب,", "ليس لأننا أمة انتقامية, لكن لأننا أمة مؤمنة. من أجل الحفاظ على أولئك الذين بقوا على قيد الحياة, على القتلة أن يعاقبوا."

لم يتفق الجميع مع كلمات التأبين التي قالها نصر الله عن صديقه بعد موته. بل إن هناك من شمت فيه. حيث قال سعد بن طفلة وزير الإعلام الكويتي الأسبق :" إن مغنية مجرم وإرهابي أرهب المدنيين, وخطف الطائرات, وقتل المدنيين الأبرياء, حتى وإن قتل الجنود الإسرائيليين,".

إذن هل مغنية شهيد أم إرهابي؟ "الشهيد" هو من يقدم روحه في سبيل هدف سامٍ باسم الله. حسب للتراث الإسلامي, إن الله سيجزيه بالحسنى بعد موته, نظرا لتضحيته بأغلى شيء عنده. والشهداء كما ورد في سورة آل عمران الآية 170: " ـ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ".

رغم ذلك فلا دليل على أن النبي نفسه استخدم لفظ الشهيد لمن سقط في القتال[14]. ففي معركة ذي قار ضد الفرس والتي قادها النبي بنفسه عام 628, قتل بعض أتباعه. وفي حديث مشهور يروي النبي لحظات المعركة الصعبة, قال: "عليكم زيد بن حارثة, فإن أصيب زيد فجعفر, فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة".

حتى في الأيام الأولى من الصراع على أرض فلسطين لم يستخدم المصطلح شهيد. وفي الأحداث الأولى التي سبقت إقامة دولة إسرائيل, كانت لغة الصراع علمانية للغاية. قال فؤاد حجازي "سأعدم من أجل بلدي المحبوب فلسطين," وقد أعدمه البريطانيون بتهمة قتل يهود بعد أحداث 1929. أما جريدة الدفاع فقد كتبت في مقالها الافتتاحي عام 1936: "نقولها علنا أن الضحايا الذين سقطوا دفاعا عن وطنهم هم كالعدم ولا شيء في مقابل المستعدون بالتضحية أكثر... ولو قام شخص ما يريد أن يحول فلسطين العربية الأصيلة إلى دولة يهودية فسندافع عن وطننا ونرويه بدم أطفالنا."

ظهر الاستخدام المتكرر لهذا المصطلح خاصة مع تصاعد الأصولية الإسلامية وبداية العمليات الانتحارية التي نفذها حزب الله في لبنان. وبعد أن قامت حماس وسائر الفصائل الفلسطينية بتبني هذا الأسلوب, انجرف الرأي العام وراء هذا الحماس الديني الذي اعتبر العمليات الانتحارية تعبيرا ساميا عن التضحية. ولقد أطلقت قناة الجزيرة لقب شهيد على كل

---

[14] هذه المعلومة غير دقيقة حيث ورد: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: الشهداء سبعة, سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد, والغريق شهيد, وصاحب ذات الجنب شهيد, والمبطون شهيد..." ((المترجم))

قتيل فلسطيني, سواء قتله الجيش الإسرائيلي أو أنه فجر نفسه في مجموعة من المدنيين. في المقابل أطلقوا الضحايا الإسرائيليين أنهم قتلى. لقد شجع زعماء الفصائل الفلسطينية هذا التنوع الديني الذي أحاط المقاومة. حتى العلمانيين بينهم أمثال كتائب شهداء الأقصى التابعين لحركة فتح, فقد صوروا هذه العمليات كعمليات استشهادية, ورفضوا باستنكار المحاولة الإسرائيلية في اعتبار ذلك تعبيرا عن تعبير بدائي سيء.

بدأت الهالة التي أحاطت التعبير "شهيد" في التصدع فقط بعد أن قامت التنظيمات الجهادية, خاصة خارج الأراضي الفلسطينية, بعمليات ضد المواطنين العرب أنفسهم. ولقد كانت نقطة التحول التفجيرات الأولى في المغرب والسعودية خلال عام 2003, وفي شهر أبريل من نفس العام احتل الأمريكيون بغداد وخلقوا ساحة جديدة من الفوضى.

قال مروان المعشر وزير الخارجية الأردني في فبراير عام 2004" لن تعيد العمليات الانتحارية أي شبر من الأراضي الفلسطينية,", "إن مقاومة الاحتلال حق مشروع, لكن تفجير المدنيين أمر مرفوض تماما. لقد تناولنا تفجير الأطفال والنساء والشيوخ, وقلنا "هل هذه مقاومة" ."من وجهة نظرنا هذه ليست مقاومة لكن عمليات ضد المدنيين. إن ثقافة تفجير المدنيين كأهداف سياسية أمر خطير للغاية. ولو سمحنا لها بالتوغل في مجتمعنا فستنتقم منا." وبعد حوالي عام ونصف من هذه التصريحات, قام ثلاثة انتحاريون عراقيون بتفجير أنفسهم في فنادق في العاصمة الأردنية عمان, وقتلى 60 شخصا.

من إلهام منصور, محاضر في قسم الفلسفة في الجامعة اللبنانية, بين الشهيد الموجود دائما في حالة دفاع, وبين القتيل المهاجم. إن الشهيد يدافع عن الخطوط الأمامية, لذلك هو ليس لديه أي خوف ويتمتع بقدر كبير من الشجاعة؛ والقتيل في المقابل, فلا يتمتع بالشجاعة التي يتمتع بها في المقابل من يضحي بنفسه.

كتب الباحث اللبناني قائلا "الأول مقاتل لا يخشى الموت, وذلك سر قوته, والثاني مقاتل مليء بالأمل في العودة إلى بيته سالما معافى, حتى لو هزم,". هذا التمييز سياسي في حقيقة الأمر, ويهدف إلى خدمة الجهود الإعلامية للمقاومة اللبنانية, لكنه مثل آراء الكثيرين في المجتمع العربي. وفي المقابل فقد سخر الدكتور عبد الحميد الأنصاري, باحث إسلامي بجامعة قطر, من

الازدواجية في استخدام هذا المصطلح. "من يقوم بتنفيذ عمليات انتحارية في العراق يلقب بالشهيد, وفي المقابل فإن من يقوم بها في الخليج فيصبح إرهابيا."

يرى الشيخ محمد صالح بن العثيمين, رجل دين سعودي من القرن العشرين, إن مكانة الشهيد غير مرتبطة بظروف المعركة. وحدد أن من يسقط في المعركة لا يعتبر شهيدا, حتى وإن كان قد عمل في أجواء الجهاد. والله وحده, يقول ابن العثيمين, هو من يقرر من صعد إلى السماء شهيدا, ومن قام بالتضحية بحياته مثل أي شخص آخر. ولقد قال تلميذه الشيخ عبد المحسن العبيكان, أنه ليس من حق المنتحر أن يسمى شهيدا.

قال العبيكان "لا يعتبر شهيدا إلا من حارب من هم مسموح بقتالهم في أرض المعركة, المدافع عن الدين, والوطن, وعن المقدسات, والممتلكات" ، "ولو قتله الآخرون, فهو شهيد. لكن من قتل نفسه فمثواه جهنم. وكما قال عليه الصلاة والسلام: من قتل نفسه بشيء عذبه الله به يوم القيامة."

إذن فلماذا يصر الناس على استخدام لقب شهيد؟ من أجل المديح. لقد لقب الصحفيون الشاعر الفلسطيني محمود درويش, الذي توفي بمرض القلب في صيف 2008, بالشهيد. وكذلك المراقبون الأردنيون الثلاثة في قوات حفظ السلام الذين عملوا في هاييتي وماتوا في الكارثة البركانية هناك عام 2010.

قال سالم أبو الحسن, باحث مصري قام بتحليل الظاهرة على صفحات جريدة الحياة, إن الشهيد هو قتيل حسيب. أي أنه شخص يريد الناس التعبير عن كامل تقديرهم واحترامهم له, سواء حارب أو لم يحارب, لذلك رفع لدرجة الشهادة.

كتب أبو الحسن "الكثيرون يحملون مشاعر التقدير العميق لإخواننا في فلسطين,", "ويشعرون بقلة الحيلة حيال عدم مقدرتهم على عمل شيء من أجل وقف المذابح الدامية ضدهم. فيبدو أنهم يعزون أنفسهم بهذه الصورة, فهم يميلون إلى رفع درجة الضحايا الأبرياء من منطلق التعاطف, وبهذه الطريقة يخلصون ضمائرهم."

كلب حراسة الديمقراطية

ماجي كان بلا شك أكثر كلب حسبا في الدول العربية. فهذا الراعي الألماني البشوش كان يعمل في فحص الزائرين على أبواب البرلمان العراقي أيام الاحتلال الأمريكي لبغداد. فلا زائر يدخل إليه دون أن يشتمه, ويؤكد أن الرجل نظيف ولا يحمل متفجرات. لم يكن ماجي في واقع الأمر مجرد حيوان من ذوات الأربع, لكنه كان قاض, فهو الآمر الناهي.

ذات يوم قرر من يقومون بتشغيله إعطائه إجازة, وأخبروا ذلك بالطرق الرسمية, وفي منتهى الجدية الأمريكية, عبر منشور تم تعليقه على حائط في قاعة الدخول إلى البرلمان. سيتغيب الكلب عن العمل لمدة سبعة أيام, كتب في المنشور. ذلك تقديرا لعمله وإخلاصه في الكشف عن المشتبه بهم في هيكل الديمقراطيةولقد خرج معه في الإجازة مشغله سايمون, وهو جندي أمريكي أصبح جزءا من المشهد الخفي في المجلس التشريعي.

غير أن ماجي, على عكس كل منا, لم يكن لديه من يحل محله, ونظرا لعدم وجود من يقوم بعمله, فلم يتم طوال مدة غيابه الكشف عن وجود متفجرات. لذلك لم يسمح لأي شخص بالدخول باستثناء العاملين في المكان ونواب الشعب. أما الصحفيون الذين اعتادوا التواجد في قاعة المناقشات, فقد جاءوا محبطين إلى عملهم فوجدوا أنه محظور عليهم الدخول إلى القاعة لأن الكلب في حاجة إلى راحة. نتيجة ذلك لم يمكن مشاهدتها على شاشات التلفزيون, فلم توجد أي محطة تلفزيونية قامت بتقديم التقارير من البرلمان في هذا الأسبوع.

الفصل السادس

الشيعة

تحطيم النمرة

قبل ثلاثة عقود كان التعامل مع الشيعة باستخفاف. لكن تأسست الجمهورية الإسلامية الإيرانية, وتأسس حزب الله, وتولوا الحكم في العراق. فبعد مئات السنين من الاضطهاد والحرمان, أصبحت أكبر أقلية في العالم الإسلامي العامل الرئيس لتحديد جدول الأعمال اليومي في الشرق الأوسط.

يحكى أن وزيرا في حكومة مناحم بيجن حضر إحدى جلسات الحكومة التي تتناول الوضع في لبنان, وقال صراحة: "لم أعرف نهائيا أن هناك شيعة". هكذا عبر الوزير الذي عمل في هذا المنصب الرفيع في هذا المجلس عن المعلومات الضئيلة التي لديه عن الوضع السياسي في بلاد الأرز, التي احتلها الجيش الإسرائيلي قبل شهور قليلة في شهر يونيو 1982. ومنذ ذلك الحين تدفقت مياه كثيرة في الليطاني, ويعرف اليوم كل وزير في الحكومة شيء أو شيئين عن الشيعة في لبنان, وعن حركة حزب الله التي نشأت منها, وعن علاقاتها القوية بإخوانها في قيادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

ليس هباء أن تشغل إيران موضعا مهما في الحوار الشعبي في إسرائيل والدول العربية. فالإيرانيون لا يخفون طموحاتهم في تحقيق الهيمنة الإقليمية. ويتهمون في العراق ولبنان بالتآمر السياسي والتدخل في شؤونهما الداخلية. وفي دول الخليج, يخشونهم لأنهم يطمعون فيهم, وخاصة في الثروات الطبيعية الموجودة في أراضيهم. والمصريون يزعمون أن إيران توقع بين الأطراف الفلسطينية بعضها وبعض, وبينها وبين إسرائيل. يقول البعض أن هناك تشابه كبير بين إيران وإسرائيل, فكلتاهما دولتان عظميين, غير عربيتين, لديهما قوة عسكرية كبيرة, وبرنامج نووي, وتوجه قديم في التدخل في شؤون الجيران.

يعيش في إيران حوالي 80 مليون نسمة, 90 بالمائة منهم تقريبا شيعة. كما توجد في العراق والبحرين نسبة كبير من السكان -أكثر من النصف شيعة. وهناك أقليات شيعية في لبنان, وسوريا, واليمن, والسعودية, وسلطنة عمان والكويت, وكذلك خارج منطقة الشرق الأوسط, في الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا. هم يشكلون تقريبا ما بين 10-13 بالمائة من إجمالي المسلمين في العالم. وكما هو لدى الأغلبية السنية, فلدى الشيعة تيارات, ودرجات دينية مختلفة؛ وتنوع لغوي بما يناسب الموقع الجغرافي؛ فمنهم من يتحدث العربية والفارسية, وآخرين يتحدثون الأوزبكية أو الطاجيكية.

الشيعة مذهب إسلامي أتباعه هم نسل أتباع علي بن أبي طالب, رابع الخلفاء الراشدين بعد وفاة النبي محمد. كان علي ابن عم النبي, وزوج ابنته فاطمة. حرم ثلاث مرات من حكم الأمة

الإسلامية[15]. وفي عام 661, بعد ست سنوات من توليه الخلافة, قتل وهو في طريقه إلى المسجد. وقتل كذلك, بعد عشر سنوات, ابنه الحسين في أحداث عرفت بمذبحة كربلاء. ولقد أوجدت هذه المذبحة "شيعة علي". وقبر الحسين موجود في كربلاء, وقبر والده, علي, موجود في النجف – مدينتان تعتبران في العراق من أكثر الأماكن قداسة لدى الشيعة.

ومثل السنة, فالشيعة أيضا ليسوا كتلة واحدة؛ ينتمي معظمهم إلى تيار يسمى "الاثنا عشرية", فهم يؤمنون بسلسلة من اثني عشر إماما, اختارهم الله وهم معصومون, على رأسهم الإمام علي بن أبي طالب. أما الإمام الثاني عشر, محمد المنتظر, فيروى أنه اختفى بشكل مفاجئ عندما كان صبيا, إلا أن الشيعة يؤمنون بعودته وأنه سيجلب معه العدل العالمي, ويطلقون عليه "المهدي المنتظر". كما يعتقدون أنه يجب أن يسود الإسلام العالم للتجهيز لظهور المهدي. أما السنة, في المقابل, فلم يتبنوا فكرة ظهور المهدي, ولا يعرفون الدرجة الرفيعة التي منحها الشيعة لعلي. لقد خلقت كل هذه الفجوات العداء الظاهر بين الطوائف, واتهم الشيعة بالكفر لأنهم شوهوا أسس العقيدة الإسلامية. ومنذ عهد علي وتاريخ الشيعة يملأه القمع والاضطهاد. سخر السنة في العراق من جيرانهم "شيعي وفي قدره ذباب" هكذا.

ليس عجيبا أنه عندما أتيحت الفرصة للشيعة للسيطرة بالقوة, تصرفوا مثل أي أقلية حرمت لسنوات طويلة, ورفعت رايتها في استعراض للقوة. ربما لذلك فإنه بعد أقل من ثلاثة عقود من جلسة الحكومة في القدس, أصبح الشيعة أهم عامل في تحديد جدول الأعمال السياسي في الشرق الأوسط.

التهديد الإيراني

يحتل "التهديد الإيراني" مكانة كبيرة في الحوار المجتمعي في إسرائيل, لكن دولة إسرائيل لديها من الوسائل وطرق التأثير ما تتعامل به مع هذا التهديد. لكن بالنسبة لمملكة البحرين الصغيرة, وهي إحدى جارات طهران العربية, فإن الخطر أكبر بكثير. فتعلو من حين لآخر أصوات في إيران تدعو إلى ضم البحرين إليها, كخطوة لتصحيح التاريخ. وتثير هذه الأصوات الفزع في العاصمة البحرينية المنامة.

---

[15] نظرا لعدم خلافته الرسول بشكل مباشر, وكونه الخليفة الرابع.

كان من بين المتحدثين عن عملية الضم هذه حسين شريعتي مداري, رئيس تحرير صحيفة "كيهان" الإيرانية. لم يتردد مداري في مقال نشره في الصحيفة في القول إن المملكة الصغيرة والغنية هي إحدى محافظات بلده, انفصلت عنه في القرن الثامن عشر الميلادي.

كتب شريعتي مداري "للشعب البحريني مطلب أساسي, وهو إعادة المحافظة التي انفصلت عن الأم الأصلية, إيران الإسلامية", "من غير المسموح ومن غير المحتمل التنازل عن حق إيران الكامل, وعن حق أهل المحافظة الذين انفصلوا عنها."

لم تكن هذه الكلمات لتثير قلق البحرينيين لولا كون شريعتي مداري المستشار الخاص للمرشد الإيراني الأعلى, أية الله علي خامنئي. أسرع وزير الخارجية الإيراني, مونوشهر متقي, للتوجه إلى البحرين, وأوضح أن ذلك كان الرأي الشخصي للصحفي الكبير, وليس موقف الحكومة. غير أن البحرين, وكذلك جاراتها العربية, لم تقتنع بكلمات التهدئة هذه.

قال البرلماني البحريني محمد خالد غاضبا "شريعتي مداري شخصية رسمية", "وفي كلامه رسالة واضحة حول الأطماع الإيرانية."

فحوالي70% من سكان البحرين الذين يبلغ تعدادهم حوالي المليون نسمة, شيعة. ذلك وفقا للإحصاءات غير الرسمية. غير أن كعكة الحكم, في المقابل, تتمتع بها مجموعة من العائلات السنية. وبالضبط مثل العراق في عهد صدام حسين, ففي البحرين تحكم الأقلية الأغلبية, وشبح الطائفية يجثم بشكل مستمر للخروج من عنق الزجاجة. كانت علاقات القوى هذه واضحة, على مدى عشرات السنين, لكن بدأت إيران, حينها, في الإكثار من الإشارة إلى المكانة التاريخية للبحرين كمستعمرة فارسية. ولقد عمل حكام المنامة من منطلق الخشية من أن يؤثر ذلك الأمر بشكل سيء على الشيعة البحرينيين, ويثير مشاعرهم الطائفية. لذلك أعلن الملك عام 1999 عن إصلاحات دستورية, تم في إطارها تأسيس أول برلمان بحريني منتخب؛ وذلك لإرضاء زعمائهم[16].

---

[16] المجلس الوطني البحريني: يتكون المجلس من مجلس النواب المنتخب من الشعب و مجلس الشورى بتعيين ملكي على النحو المنصوص عليه في دستور 2002. و يشكل المجلس 80 مقعدا 40 عضوا في مجلس النواب و40 عضوا في مجلس الشورى (الغرفة العليا). (المترجم)

وفي الانتخابات التي جرت في عام 2006 تقدمت القائمة الشيعية "جمعية الوفاق الوطني الإسلامية" وحصلت على 17 مقعدا من إجمالي 40 مقعدا في البرلمان, وأصبحت أكبر تكتل. وبعدها بأربع سنوات, زادت قوتها ووصلت إلى 18 مقعدا. ورغم أن الكلمة الأخيرة في المنامة هي لمجلس الشورى, الذي يعين الملك أعضائه, إلا أن هذه النتيجة أوضحت للجميع توجهات الشعب.

لم يكن حسين شريعتي مداري أول إيراني يهدد الجارة صراحة. فبالنسبة للقصر الملكي البحريني كانت مثل هذه الأحداث هي أكبر بكثير من كونها حدثا دبلوماسيا. فلو رغبت إيران في ذلك, فإنها تستطيع أن تصنع مع البحرين ما صنعه صدام حسين مع الكويت في أغسطس 1990؛ حيث قام بضمها إلى العراق في يوم واحد. لقد كانت البحرين أول دولة في دول الخليج يتم اكتشاف النفط فيها عام 1932, غير أن احتياطي السائل الأسود يتضاءل, وينضب؛ وهو ما دفع الحكومة إلى تطوير قطاعات أخرى مثل: السياحة والبنوك الدولية. وفي محاولة تأمين نفسه بذل البلاط الملكي جهدا كبيرا للتقرب من الولايات المتحدة؛ فاستضافت البحرين قيادة الأسطول الخامس الأمريكي, وقدمت المساعدات اللوجيستية للجيش الأمريكي في حروبه في العراق وأفغانستان.

وبالفعل عندما قام الجيش الأمريكي الكبير باحتلال الجارة العراق, خشيت إيران أن تكون هي التالية. وأكدت شخصيات إيرانية أنه في حالة حدوث أي عدوان أمريكي على منشآتها النووية, فإن أول انتقام لإيران سيكون موجها ضد أصدقاء الولايات المتحدة في الخليج. إن دول الخليج –البحرين, قطر, الكويت, الإمارات العربية المتحدة, وعمان- على ثقة من أن عيون إيران الطامعة موجهة صوب حقول النفط والغاز لديها, وليس لدى هذه الدول وسائل ردع كافية أو جيش قوي يستطيع الدفاع عنها من أطماع جيرانها.

هناك حدود, الرواية الخليجية

منذ أربعة عقود تقريبا ويدور صراع في قلب الشرق الأوسط حول أراض غير مرتبطة بالصراع العربي الإسرائيلي. لب هذه القضية ثلاثة جزر صغيرة قبالة سواحل الإمارات العربية المتحدة, بجوار مضيق هرمز؛ تحتلها إيران, وهي: «طب الكبرى, وطب الصغرى, وأبو موسى. وهي جزر ليس بها عدد كبير من السكان, لذلك فأهميتها سيادية في الأساس. ولقد قوبل كل طلب من قبل الإمارات العربية المتحدة باستعادة الجزر؛ بتجاهل إيراني تام.

كانت بداية النزاع قبل الثورة الإسلامية في عصر الشاه؛ ففي عام 1971 أعلنت بريطانيا انهاء الانتداب البريطاني في المنطقة, وحلى محل البريطانيين ستة حكام محليين, رأس كل واحد منهم إمارة (الإمارات)؛ ثم أقاموا معا دولة الإمارات العربية المتحدة وعاصمتها أبوظبي. غير أنه قبل أيام قليلة من إعلان الدولة في 29 نوفمبر من نفس العام, استولت قوة عسكرية إيرانية على الجزر الثلاث التي كانت في الأصل جزءا من المستعمرات البريطانية.

ومنذ ذلك التاريخ والصراع قائم, على مستوى منخفض, لكنه لم يمنع الإمارات من إقامة علاقات حسن جوار مع إيران. غير أن إيران لعبت دور فتوة الحي. فبفضل الحماس الثوري, وجهود التأثير على الأقليات الشيعية خارج حدودها, وتطوير قدراتها النووية, أصبحت إيران تشكل تهديدا مباشرا لجيرانها. وفي هذه الأجواء ندرك لماذا يخرج كل توتر دبلوماسي, إيران مشاركة فيه, عن إطاره ويصبح قضية ملتهبة على جدول الأعمال الإقليمي.

دعا زعماء الدول العربية, في القمة العربية التي عقدت في مارس 2008, إيران إلى الانسحاب من الجزر الثلاثة. بذلك أصبحت معارضة احتلال الجزر الموقف الرسمي للجامعة العربية كلها. غير أن إيران أصرت على مواقفها السابقة.

رد المتحدث باسم وزارة الخارجية على سؤال أحد الصحفيين حول ضرورة إيجاد حل للمشكلة "لا حاجة لأي وساطة في هذه القضية", "لو أن هناك سوء فهم, فمن الممكن حله بالمفاوضات الثنائية." لكن القوات البحرية الإيرانية قامت بمناورة عسكرية في تلك المنطقة, وصرح محمد بابور قائد القوات البرية في الحرس الثوري, إن الهدف من المناورة هو محاكاة "تسلل العدو للجزر الثلاثة."

غضبت الإمارات العربية من اللهجة الساخرة. وقال عبد الله بن زايد آل نهيان وزير خارجية الإمارات العربية المتحدة "احتلال أي أرض عربية هو احتلال وليس سوء فهم"، "ولا فرق بين احتلال إسرائيل للجولان أو لجنوب لبنان أو للضفة الغربية أو غزة فالاحتلال هو الاحتلال ولا توجد أرض عربية أغلى من أرض عربية أخرى."

لم يصمت الإيرانيون عند سماع هذا التلميح العلني، فتحتفل إيران في شهر أبريل من كل عام "باليوم الوطني للخليج الفارسي". يبدو هذا اليوم كأنه دعوة للعائلات للخروج والتنزه في أحضان الطبيعة، لكنه بالضبط مثل "يوم القدس" الذي تعلنه إيران مرة في السنة، فهو جزء من النضال الوطني من أجل التأثير والقوة.

يصم آذان الإيرانيين سماع جيرانهم يطلقون على هذه المنطقة "الخليج العربي". لذلك تجمع المئات من الشباب الإيرانيين، في نفس اليوم من شهر أبريل عام 2008، أمام سفارة الإمارات العربية المتحدة في طهران وتظاهروا من أجل "فرسية" الخليج العربي. ولقد حمل المتظاهرون لافتات كتب عليها "الخليج فارسي للأبد"، وكذلك "عيوننا صوب البحرين."

ليس مصادفة أن اختيرت سفارة الإمارات العربية المتحدة للتظاهر أمامها، وليس مصر أو السعودية على سبيل المثال. فقد كانت حكومة أبو ظبي في ذلك الوقت الذبابة التي قضت مضجع إيران. فقد أثارت، بمبادرة منها، أزمة الجزر، في الوقت الذي تقيم فيه اتصالات قوية مع الولايات المتحدة وتعتبر أفضل عضو في محور الدول العربية المعتدلة. كما منحت العلاقات مع واشنطن الإمارات هدية غالية؛ ففي صيف عام 2010 أصبحت الإمارات العربية المتحدة أول دولة توقع معها الولايات المتحدة اتفاقية الحصول على المعرفة الأمريكية لبناء مفاعل نووي للأغراض السلمية.

لم تخجل إيران في التمادي في صراعها العلني من أجل تشكيل الخليج لدى الوعي الشعبي. ففي عام 2006 حظرت السلطات في طهران توزيع مجلة "المحيط" البريطانية، لأن محرريها جرأوا على نشر خريطة مكتوب فيها "الخليج العربي". وكانت قد رفضت، قبل عامين، التصديق على دخول طاقم مجلة "ناشيونال جيوجرافيك" إلى الأراضي الإيرانية، ذلك بعد أن نشرت الشركة أطلس ظهر فيه اسم "الخليج الفارسي" بين قوسين بعد الخليج العربي.

رد سني مناسب

قال الشيخ يوسف القرضاوي رجل الدين المصري, ومن كبار رجال الفتوى في العالم الإسلامي السني "أرض الجشع والأحلام". أضاف القرضاوي قائلا في مجموعة من المقابلات الصحفية, أن زعماء إيران يخلطون "الميول الفارسية, والتوجه الشيعي, والتشدد," وأقر أن هذا غزو منظم. تعتبر هذه الكلمات اللاذعة تجديد آخر في طبيعة العلاقات بين إيران وجاراتها. غير أن هذه اللهجة العدائية, حلت لوهلة محل اللغة الديبلوماسية الرقيقة, اللغة التي أخفت التوتر بين العرب والعجم- كما يطلق العرب على فارس.

على مدى سنتين ويتابع القرضاوي السياسة الإيرانية في المنطقة, وتوصل إلى استنتاج أنها تسعى بجد شديد لتحقيق الهيمنة الكاملة على دول الشرق الأوسط, بل وما وراءه. شاهد القرضاوي, من مقر إقامته في قطر, عمل حزب الله في لبنان, وتشاور مع قادة الفصائل الفلسطينية, كما تحدث مع أصدقائه في القاهرة, والعراق والدول الإسلامية في آسيا. بعدها توصل إلى استنتاج بأن الإيرانيين في قمة عملية "التشيع"[17]. وهو مصطلح جديد نسبيا في اللغة السياسية التي تصف الجهود الإيرانية على تشجيع إقامة طوائف شيعية مواليه لها في كل الدول السنية, أو مساندة الأقليات الموجودة بالفعل.

وقال القرضاوي "لديهم صحفيون, ومؤلفون, وأصواتهم مسموعة في مصر, والسودان, وتونس, والجزائر, والمغرب". "هم يعملون كذلك في دول غير عربية مثل: ماليزيا, وأندونيسيا, والسنغال."

تحدث القرضاوي عن دول سنية لم يكن فيها في الماضي شيعي واحد, لكن منذ سنوات وتتمركز فيها طوائف شيعية صغيرة. وقال محذرا "هذه النيران تستعر", واعترف بخوفه من اندلاع حرب أهلية.

"لو جلست في هدوء, ستجد, بعد فترة ما, أن المذهب الشيعي قد تسلل إلى بلاد أهل السنة وأصبح مشكلة كبيرة, وستكون هناك أقلية شيعية تطالب بحقوقها وستصطدم بالأغلبية

---

[17] تحويل الآخرين إلى المذهب الشيعي

السنية. هكذا تشتعل النيران وتندلع الحروب. أنا أحاول منع صراع داخلي كبير. وهذه وسيلة من وسائل الحذر وقراءة المستقبل كي لا نسقط في صراعات بين أبناء الأمة الواحدة."

أضاف القرضاوي متهما إيران بأنها توقع بين الفلسطينيين, بمساندتها لحركة الجهاد الإسلامي, وحركة حماس. وقال "هذه جريمة لا تغتفر, فالفلسطينيون في حاجة إلى التوحد وليس إلى شقاق آخر,".

أصبح القرضاوي, بهذه التصريحات, أشد المنتقدين اللاذعين لإيران بشكل علني. ولقد أدت هذه الكلمات إلى ردود فعل فورية من جميع الاتجاهات. فقد أعرب الشيخ السعودي عائض القرني عن تأييده لكلام القرضاوي, ولذلك هوجم . فقد اتصل مشاهد عراقي باستوديو قناة MBC الفضائية, وقت استضافة القرني, ولقبه, علنا على الهواء, بـ"عميل الموساد". كما اتهمت وكالة الأنباء الإيرانية, "مهر" المحسوبة على النظام الحاكم, التي اتهمت القرضاوي بأن كلماته تخدم إسرائيل.

ألجم القرضاوي منتقديه وطالب بألا يشككوا في ولائه الوطني. وقال إنه كان في شبابه في مصر عضوا في حركة الإخوان المسلمين, التي أرسلت الكثير من أبنائها للقتال في فلسطين عام 1948. ثم قال بعدها إنه نشر, بعد عشرات السنين من البحث والفتوى, العديد من الكتب التي تناولت المشكلة الصهيونية.

وقال "أنا أحارب اليهود والصهيونية منذ كنت في الخامسة عشر من عمري؛ أي منذ 70 سنة تقريبا,"، "في الوقت الذي لم يولد فيه بعد من يهاجمونني."

التفجير الذي ،منع

إلى أي درجة العداء بين الشيعة والسنة, خاصة في العراق, تشهد على ذلك القصة التالية. أمرت الأجهزة الأمنية في بغداد, في أحد أيام شهر أبريل عام 2010, بإغلاق أربعة مطارات في أنحاء العراق. وبعد ثلاثة أيام لمُيد افتتاح ثلاثة منها فقط. وبقي المطار الدولي في مدينة النجف مغلقا لمدة أسبوعين. وسرعان ما اتضح سبب الإغلاق؛ فقد وردت معلومات للأجهزة الأمنية بوجود مخاوف من حدوث عملية إرهابية كبيرة خطط لها السنة؛ حيث كان المخطط خطف طائرة وتحطيمها في داخل قبر الإمام علي بن أبي طالب.

قال حينها عامر عبد الجبار وزير المواصلات العراقي "معلومات خطيرة لا يمكن الإفصاح عنها هي التي أدت إلى إغلاق المطارات العراقية,". ولقد ذكر الوزير في مؤتمر صحفي أن مطار النجف سيظل مغلقا لوجود أماكن مقدسة في المدينة الذي أعلن من واشنطن أن مؤامرة مهاجمة قبر علي وصلت لمراحل متقدمة, غير أن موعد تنفيذ الهجوم غير معروف.

النجف بالنسبة لكثير من الشيعة مدينة مقدسة حتى أكثر من مكة المكرمة. وتعتبر المدينة مركزا للزيارة طوال العام, خاصة بالنسبة للزائرين من إيران, والبحرين ولبنان. وكان الغرض من مؤامرة تفجير قبر علي والمسجد المجاور له هو مساس بأكبر المقدسات الشيعية. ولو وصلت هذه المؤامرة لمرحلة التنفيذ لأشعلت حربا دينية في داخل العالم الإسلامي, حربا تتخطى حدود العراق.

وكان مجهولون قد نجحوا, قبل أربع سنوات من كشف مؤامرة مهاجمة قبر علي؛ في تنفيذ هجوم أكثر تواضعا. ففي 22 فبراير عام 2006, أثناء الصلاة, تم تفجير مسجد العسكرية في مدينة سامراء, المدفون فيها حسب التراث اثنين من أئمة الشيعة: الإمام حسن العسكري؛ وعلي الهادي, العاشر والحادي عشر في سلسلة الاثنا عشريةوقتل في هذا التفجير أكثر من مائة،وصل ، , وتهدمت قبة المسجد الذهبية. ولقد كشفت التحقيقات أن ستة أو سبعة أشخاص مجهولين تنكروا في زي رجال شرطة, وتسللوا إلى داخل المسجد فجرا ووضعوا العبوات الناسفة.

أشعل هذا الهجوم موجة شديدة من العنف بين السنة والشيعة،, قتل فيها حوالي 500 شخص. وهوجم 169 مسجدا سنيا في شتى أنحاء العراق, وتهدمت بعده كليا, وقتل عشرة خطباء على الأقل من شيوخ السنة. فقام الجيش الأمريكي والشرطة العراقية بفرض حظر التجوال على العاصمة بغداد, والبصرة, وسامراء,ومدن أخرى, ونجحت, بعد مجهود كبير, في إعادة استقرار الوضع الأمني. غير أنه لم تتبنى أي منظمة في العراق مسؤولية الهجمات على مسجد العسكرية, لكن أحد في العراق لم يساوره الشك في أن السنة هم الذين يقفون وراء هذا الهجوم.

أظهرت عملية سامراء, وإحباط مؤامرة عملية قبر علي, مدى هشاشة العلاقات بين السنة والشيعة, وكيف أن العالم الإسلامي حساس جدا تجاه المساس بمقدساته. فقد جسد ذلك كيف أن حفنة من مدبري المكائد قادرون بسهولة على القيام بعملية تخريبية بسيطة, توقع بعدها مئات الضحايا.

شيعي في أرض النيل

لفتت اتهامات يوسف القرضاوي حول أطماع إيران الطائفية؛ الانتباه إلى الأقلية الشيعية في وطنه مصر, التي اهتم القليلون بوجودها. هناك توتر كبير سائد بين مصر وإيران منذ سنوات طويلة, تقريبا منذ بداية نشأة الجمهورية الإسلامية. هذا التوتر ليس فقط نتيجة المنافسة التاريخية بين أكبر دولة عربية سنية, وبين أكبر دولة شيعية. فقد وقعت القاهرة على معاهدة سلام مع إسرائيل في 26 مارس 1979, بعد أسابيع قليلة من إعلان الجمهورية الإسلامية في إيران. ولقد اعتبر الإيرانيون ذلك خيانة كبيرة وقاموا بالتحريض ضد إدارة الرئيس السادات. وبعدها بسنتين ونصف, وبعد اغتيال الرئيس السادات في العرض العسكري يوم 6 أكتوبر 1981, "احتفل" الإيرانيون بهذا الحدث من خلال إطلاق اسم قاتل السادات "خالد الإسلامبولي" على أحد شوارع طهران. فقامت مصر بسحب سفيرها من طهران وأبقت فقط على تمثيل دبلوماسي رمزي. وتم وقف خط الطيران إلى إيران, ولم يستأنف عمله إلا بعد مرور ثلاثة عقود.

شهدت العلاقات بين البلدين ,طوال الفترة التي مضت, توترات كثيرة. وكشف المصريون أن تنظيم الجهاد المصري, الذي اغتال السادات, وحاول بعدها قتل خلفه, على علاقة بإيران. وزاد هذا التوتر واحتدم مع مرور السنين؛ فقام رجال من إيران, حسب الشكوك المصرية, باغتيال إيهاب شريف أول سفير مصري في العراق بعد الإطاحة بصدام حسين. وكان شريف قد اختطف وقتل في شهر يوليو 2005, بعد أيام قليلة فقط من توليه مهام عمله. وفي عام 2009 كشف المصريون خلية لحزب الله تعمل على أراضيها؛ وذلك من أجل القيام بعمليات ضد إسرائيليين في سيناء, والمساعدة على تهريب السلاح لحماس في غزة. "سنكشف تآمركم, وقد حذر الرئيس المصري حسني مبارك إيران, في أحد خطاباته بعد كشف الخلية وسنرد كيدكم في نحوركم,".

ربما لذلك لم ترغب الإدارة المصرية في ذكر العدد الحقيقي للشيعة في مصر, كما لو كان من أجل إخفاء وجودهم عن الوعي. وفضلوا بدلا من ذلك القيام ضدهم بحملة ملاحقات. بذلك انضم الشيعة إلى أقليات أخرى في مصر, مثل: المسيحيين, والنوبيين, الذين اشتكوا من تجاهل السلطات لهم.

قدر مركز بن خلدون لأبحاث الديمقراطية في القاهرة عدد الشيعة في مصر بـ670 ألف شخص. أما محمد دريني من زعماء الطائفة فقد قدرهم بحوالي المليون شخص. ولقد قدر خبراء وزارة الخارجية الأمريكية بأن عدد الشيعة في مصر يقارب نسبة الواحد بالمائة من إجمالي الشيعة في العالم, أي أكثر من مليون شخص. ولقد ذكر الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء بالقاهرة أنه ليس لديه بيانات دقيقة عن عدد أبناء الطائفة.

وقال رئيس الجهاز, الدكتور أبو بكر الجندي "في الاستمارات التي استخدمت في إحصاء السكان لعام 2006 كان هناك 3 أعمدة, للمسلمين والمسيحين, واليهود".

قال محمد الدريني إن الأجهزة الأمنية تلاحق كل من يعلن أنه شيعي. "هناك من يخفي اسمه, كي لا يعرف بهم أحد." وأضاف أن الدكتور أحمد راسم نفيس, أحد الشخصيات البارزة من المثقفين الشيعة في مصر, قد طلب من السلطات الاعتراف بهم كأقلية شيعية في الدولة, كما ذكر أسماء بعض النشطاء منهم. لكنهم سارعوا, كرد فعل على ذلك, إلى إنكار حقيقة كونهم شيعة على صفحات الجرائد.

إحدى وسائل البقاء التي اتبعها الشيعة تسمى "التقية" وهو مبدأ يسمح للشيعي المضطهد بالكذب على من حوله, بل وعلى الله, إن كان في ذلك خلاصه من الهلاك. "التقية" متأصلة في تاريخ الأقلية الشيعية, وكان يمكن ملاحظة ذلك في الحرب في العراق, عندما حصل المواطنون لأنفسهم على هوية تحمل اسم سني أو شيعي, وكانوا يستخدموها حسب هوية المليشيا المسلحة التي يقابلوها عند الحواجز الأمنية.

في المقابل, وفي نفس الفترة, أعلنت النيابة العامة للشعب عن إلقاء القبض على "خلية", بقيادة الشيعي حسن شحاتة, خططت على ما يبدو للقيام بعمليات إرهابية على أرض مصر. ولقد زعمت النيابة أن أعضاء الخلية سافروا إلى إيران وعادوا بأحزمة ناسفة. غير أن هناك رائحة قوية من المبالغة تفوح في هذه القضية, وبالفعل لم يصمت زعماء الطائفة الشيعية. فكشفوا إنه كان من بين المقبوض عليهم أطفال يبلغون من العمر 11-12 سنة, وتساءلوا إذا كان من الممكن أن يسمي هؤلاء إرهابيون. كما شككوا في إذا ما كان المسافر بمفرده قادر على تهريب

حزام ناسف إلى داخل دولة ذات سيادة وعبر بوابتها الرئيسية- مطار القاهرة الدولي في هذه الحالة.

أحسن الشيخ أحمد الطيب, مفتي مصر الأسبق وعين فيما بعد رئيسا لجامعة الأزهر؛ وصف الموقف الحكومي فيما يخص الشيعة في بلاده. "هي قضية سياسية, ولو كانت قضية دينية فلا يسعنا إلا التقريب فقط", وقد قال ذلك في مقابلة أجراها مع مجلة أكتوبر في 3 أكتوبر 2009, وأضاف "أن ندعو إلى المذهب السني في قلب طهران هذا مرفوض ولا أقبله على نفسي! وفي ذات الوقت أرفض تماما أن يأتي أي شيعي إلى مصر ليدعو إلى المذهب الشيعي, لأن هذا رجل يحقق خطة سياسية استعمارية, فإذا وجدت قاعدة عريضة من الشيعة ستكون حربا بين الشيعة والسنة!"

فضائل الحجاب

استقر في وعي الكثيرين أن حزب الله هو حركة إرهابية متطرفة تدير لبنان بقوة المصالح الأجنبية. وأطلق عليها الزعيم الدرزي وليد جنبلاط "دويلة". وبالفعل فإلى جانب القوة العسكرية التي لديها فإن لديها جوانب أخرى كثيرة.

حزب الله الحركة الإسلامية الشيعية الوحيدة التي نجحت في غرس وتد لها في داخل دولة ذات سيادة, والحصول على الاعتراف الشعبي والمشاركة في اللعبة الديمقراطية اللبنانية, في الوقت الذي تحافظ فيه على جيش خاص بها وسياسة أمنية مستقلة. كما أنها أول كيان ينجح في إجبار دولة إسرائيل على الانسحاب من أرض عربية بدون الحصول على مقابل لذلك. كما أنها المحامي الأول عن الطائفة الشيعية في لبنان, وبدونها كانت الطائفة لتعود إلى مكانة منحطة مثلما كانت على مدى عشرات السنين. يرفض البرنامج السياسي للحركة الإكراه الديني ويفضل استخدام الطرق الناعمة في التعامل مع الشعب اللبناني.

أنشأ حزب الله في لبنان العيادات الطبية والمستشفيات, ورياض الأطفال, والمجمعات الاستهلاكية, ومكاتب السفر, وصناديق القروض, وجمعيات مساعدة الفقراء, والأيتام ومصابي الحروب. وعمل ممثلوه في نقابات العمال في لبنان وفي النقابات المهنية. ومنذ عام 1991 والحركة

تشارك أيضا في العملية السياسية اللبنانية. وينافس ممثلوها في الانتخابات البرلمانية, بل ووصلوا فيما بعد إلى مجلس الوزراء.

كتب روبرت وورث, مراسل صحيفة النيويورك تايمز, الذي استطاع الاقتراب من العملية التعليمية غير الرسمية لحزب الله, وعلى رأسها حركة "المهدي" الشبابية, وكذلك مراسم الافتتاح السنوية للبنات. رافق مئات الآباء بناتهن اللائي بلغن سن الثامنة أو التاسعة, لحظة صعودهن على خشبة المسرح وحصولهن على الحجاب لأول مرة في حياتهن– هدية الحركة للبنات الصغار. وفي إحدى هذه الحفلات, قال أحد المتحدثين عن الحجاب إنه "تاج على الرأس منحه الله للمرأة كي تزدهر." ولقد ذكر صديقه أن الحجاب كان السلاح السري الذي مكن من تحرير الجنوب اللبناني من إيدي إسرائيل.

الحركة الشبابية لحزب الله هي أكبر حركة من بين 29 حركة في لبنان. تأسست عام 1985, وبها 60 ألف عضو. وهي حركة غير عضو في جمعية الكشافة العالمية التي مقرها سويسرا, لكنها تتمتع بمزايا أخرى؛ فهي تحظى بلقاء مقاتلي الجناح العسكري الذين يحكون لهم عن دورهم في المعارك ضد الجنود الإسرائيليين. عندما يتعلم أعضاء الحركات الشبابية التكبيل والكتابة بالنيران, وعندما يقسمون إلى مجموعتين على ضفة النهر, تمثل المجموعة الأولى حزب الله, والمجموعة الثانية الولايات المتحدة. وعندما يتمون سن 16 سنة يستطيعون الانضمام إلى حزب الله, وأن يكونوا أعضاء أساسيين في مؤسساتها المختلفة.

كما اطلع الصحفي الأمريكي على الكتب التعليمية التي تدرس في المؤسسات التعليمية لحزب الله. يناقش أحد فصول الكتب المخصصة للمرحلة الإعدادية, "الولاء للزعيم", و"الحب والكراهية عند الله" و"اعرف عدوك". وفي فصل تحت عنوان "حقائق عن اليهود" يوصف أبناء موسى بالفاسدين, والجبناء وقتلة الأنبياء. وذكر "مكتوب في تلمودهم أن غير اليهودي هو بهيمة."

هل التعليم المعادي للسامية سيحول دون تحقيق سلام مستقبلي بين إسرائيل والشيعة في لبنان؟ يقول علماء النفس إن من عليه القلق من ذلك أكثر من أي شخص آخر ليس إسرائيل, أو الغرب أو جيران لبنان, لكن الأطفال الذين يرضعون الكراهية من صغر سنهم, وكذلك آباؤهم. إن مصر جمال عبد الناصر هي مثل حزب الله حسن نصر الله بالضبط, الذي علم أبنائه كراهية

الصهيونية. لقد أنهى أنور السادات, خليفة عبد الناصر, حالة العداء بين مصر وإسرائيل. وبدأت الحكومة المصرية منذ تلك اللحظة الدعوة إلى السلام بحجة أن مصر لها مصلحة في ذلك, لذلك كان اختيارها له اختيارا استراتيجيا. كان أطفال عبد الناصر هم جيل الآباء والأجداد في عصر مبارك. حصلوا على جميع معلوماتهم عن إسرائيل مما تعلموه في طفولتهم, وكذلك مما عرفوه من الصحف والقنوات التلفزيونية. وبعد أكثر من ثلاثة عقود من نهاية حالة العداء بين البلدين, مازالت صورة الإسرائيلي في نظر المصري المتوسط صورة المحتل القاسي. ورغم ذلك, يقابل الإسرائيلي بترحاب شديد عند زيارته القاهرة.

نتعلم من الحالة المصرية أن سلام مستقبلي بين إسرائيل وأطفال نصر الله أمر ممكن. لكن إذا كان سلاما دافئا وحقيقيا, فهو أمر سنعرفه فقط بعد جيل أو جيلين. إن للظروف المستقبلية تأثير كبير في مسألتين رئيسيتين: مسألة بقاء إيران الأصولية؛ وحل الصراع الإسرائيلي فلسطيني, والمستقبل السياسي للبنان ومدى الرغبة الإسرائيلية في مشاركتها الجوار.

ربما كان النقص الشديد للمياه هو الذي سيجمع الأطراف معا, وسيذكر الجميع بأن الحرب هي مشروع لا طائل منه, حتى إذا كان سلاح أحد الطرفين هو الحجاب.

سرية رأس الحربة

اختاره القدر ليمنح جماعته بطولة تاريخية في اللحظة الأخيرة في المباراة الأخيرة, فلم يتردد محمد العتيق، مهاجم "العهد", وهو نادي كرة القدم التابع لحزب الله, عندما الكرة, فأوقفها على صدره ووضعها في الشباك.

بهذا النصر الإلهي ستحتفل الجماهير لسنوات طويلة في حواري ضاحية بيروت الجنوبية, وفي القرى الشيعية في البقاع وفي جنوب لبنان. لكن في اللحظة نفسها كان الهدوء يسيطر على أسوار استاد مدينة الصور. أهناك نشوة في المدرجات؟ حمى. فقد كانت المباراة بدون جمهور؛ فالسنة والشيعة حسب رواية الشرطة هي آخر شيء يجب أن يجتمع على منصة واحدة. وفي الحالة اللبنانية في تلك الأيام -نهاية عام 2008- فإن نتيجة ذلك المشاكل فقط.

كانت هذه أول بطولة يحصل عليها النادي. وهو الفوز الذي أنهى موسم كروي عاصف, وكان مبهجا لسببين: ففريق العهد لم يحصل فقط على البطولة, لكنه هزم ناديين كبيرين كانا

مرشحين للفوز حتى اللحظة الأخيرة. وهما فرقتا "الأنصار", و"النجمة" اللتان تساندهما عائلة الحريري السنية, خصم حزب الله السياسي. شغل بهاء الدين الحريري ابن المرحوم رفيق الحريري ووريث امبراطورية أعماله, منصب الرئيس الشرفي لنادي النجمة, أما أخوه سعد الدين, الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء لبنان, فقد كان يمنح الدعم الواضح لفريق الأنصار.

نادي الأنصار هو الامبراطورية التي لا تتزعزع في الدوري اللبناني؛ فمنذ تأسيسه عام 1934 حصل فريقه على 13 بطولة في مقابل سبعة فقط لخصمه على الجانب الآخر من الطريق. وكانت أفضل مواسمه 1988-1999, التي أنهاها جميعا في المركز الأول. مصادفة أم لا, فقد كانت هذه أيام ازدهار رفيق الحريري. فرئيس الحكومة المرحوم قد صنع المليارات في مجال العقارات في السعودية, وتبرع وقتها من ماله الشخصي من أجل إعادة إعمار لبنان. ولقد كان نادي الأنصار هو دميته.

لم يعتقد أحد أن بطولة الموسم 2007-2008, ستكون من نصيب شباب نصر الله, دليل عل ذلك أن اتحاد كرة القدم أرسل الكأس في ذلك اليوم إلى استاد مدينة صور, الذي لعب فيه أقوى فريق مرشح للفوز. غير أن هدف الفوز في الدقيقة 86 جعل فريق سعد الحريري في المركز الثاني.

كرة القدم والسياسة تسيران يدا بيد حتى في بلد حزب الله, لكن في الحالة اللبنانية يصاحبها العنف في بعض الأحوال. فعشية افتتاح الموسم مات لاعبان من فريق النجمة في تفجير عند مدخل النادي. لقد قصد واضعو العبوة الناسفة عضو البرلمان وليد إدو, من المقربين من الحريري, الذي مر بالمكان. وفي بطولة أوروبا في نفس العام انقسم جمهور لبنان بشكل واضح. فالسنة شجعوا تركيا, والأرمن أرادوا فشلها, أما المارون فقد شجعوا فرنسا, والشيعة شجعوا ألمانيا. أما أصحاب الزي البرتقالي, من أتباع الجنرال المسيحي ميشيل عون, فقد شجعوا هولندا. والدروز كعادتهم تنحوا جانبا؛ فإنجلترا التي يشجعونها لم تصل إلى البطولة.

لم يمر موسم بطولة "العهد" بسلام. فقد نشب الشجار بين السنة والشيعة, أو بين الدروز والشيعة, وأصبح ذلك أمرا روتينيا. وفي ذروة الموسم توقفت المباريات لعدة أسابيع بسبب الاضطرابات الدامية التي اندلعت في شهر مايو بين مسلحي حزب الله وبين مشجعي عائلة

الحريري والدروز الذين شكل ممثلوهم الائتلاف الحكومي. اندلعت الاضطرابات في بيروت, وامتدت إلى الشمال وجبال الشوف وأصبحت أعنف مواجهات منذ الحرب الأهلية في لبنان. واتسعت المواجهات لتمتد إلى الشمال, إلى منطقة الجبل وإلى مدينتي صور وصيدا, وحصدت أرواح 81 شخصا.

وفي العام التالي فشل حزب الله في محاولة احتلال المركز الأول في الانتخابات البرلمانية. وبقيت بطولة فريق العهد جائزة تعزية.

مهم من أي طائفة

هل تستطيع إيران الاعتماد على الشيعة في لبنان ليساعدوها حال اندلاع مواجهة عسكرية مع إسرائيل؟ استطلاع تم اجراؤه في لبنان أظهر أن الجواب بالنفي. أجري الاستطلاع في بداية عام 2006 بواسطة "مركز بيروت للدراسات والمعلومات", وهو مركز مستقل لإجراء استطلاعات الرأي. أراد القائمون بالاستطلاع استيضاح مشاعر الولاء السياسية للمسلمين في لبنان. وطرحوا أسئلة على 700 مسلم سني وشيعي.

وصف 70.5% من الشيعة الذين تم استطلاع رأيهم حول العلاقات بإيران بأنه مجرد "تأييد" فقط. و7.7% بالمائة فقط هم الذين وصفوها بـ"الولاء". واعتبر 21.8% أنفسهم "مؤيدين ومشجعين" لإيران.

وفي استطلاع آخر أجري في لبنان عام 2005, طلب ممن تم سؤالهم الإفصاح عن ولائهم الأول- هل للوطن أم للطائفة؟ أجرى هذا الاستطلاع "مركز دولي للمعلومات" بمشاركة 600 شخص من كل الطوائف, يسكنون بيروت وضواحيها. وكان من بين الشيعة 43% قالوا إن ولائهم الأول هو للطائفة, و18.8% قالوا إن ولائهم الأول لوطنهم لبنان.

ضخت الجمهورية الإسلامية الإيرانية على مدى عشرات السنين أكثر من مليار دولار في الاقتصاد اللبناني؛ استخدمت معظمها في تنمية القرى المنعزلة, وفي إقامة العيادات الطبية, ورصف الطرق وبناء المساجد. ولقد ساعد جزء من هذا المال في إعمار لبنان بعد الحروب والخراب الذي خلفته طائرات الجيش الإسرائيلي. لقد لعبت إيران دورا رئيسا في إنشاء حزب الله وتقويته – غير أن الحقيقة هي أن بعض اللبنانيين فقط هم الذين يقدرون ذلك.

كان الغرض من الاستطلاعين في واقع الأمر هو دراسة مدى ولاء الشيعة في لبنان لإيران. فيشير الاستطلاع الأول إلى أن غالبية الشيعة في بلاد الأرز, على الرغم من القاسم الطائفي المشترك, إلا أنهم ليسوا متفقين, خاصة في علاقتهم بإيران. فهم أيدوها فقط, لكنهم لم يعتبروا أنفسهم جزءا من الأمة الشيعية, وبالطبع ليس بالشكل الذي يدفعهم إلى التضحية بأنفسهم باسم الانتماء الطائفي. أما الاستطلاع الثاني فقد أوضح أنه إذا اضطروا إلى الاختيار بين ولائهم لإيران أو ولائهم للبنان, فنصف شيعة بيروت أو أقل, كانوا سيختارون إيران بشكل تلقائي.

كل شيء يمر يا حبيبي

لم يكن من الصعب على وزراء الحكومة الكويتية الاجتماع والإعلان عقب جلسة عاصفة عن إسقاط جنسية ياسر يحيى الحبيب, رجل دين شيعي يعيش في لندن. فمنذ وقت والواعظ الشاب معتاد, منذ أن كان يبلغ من العمر 31 سنة, إثارة الاستفزازات في خطبه الدينية وفي أحاديثه، لكن هذه المرة طفح الكيل.

ففي إحياء ذكرى وفاة السيدة عائشة, الزوجة الثالثة للنبي محمد, وهو اليوم الذي اعتاد المسلمون إحيائه سنويا في السابع عشر من شهر رمضان, اتهمها حبيب بقتل النبي. تعتبر عائشة في التراث الإسلامي أحب زوجة للرسول محمد, ويحكى أنه مات في حجرها.

قال الحبيب عنها "عدوة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام". وأعرب عن رغبته في أن تحترق في نيران جهنم بعد موتها, وأن تطعم عند بعثها بلحم الموتى, وأن تعلق من قدميها ورأسها للأسفل, وهي تأكل "لحم الموتى."

ترجع خلفية العداء مع عائشة إلى القرن السابع الميلادي. فعائشة هي ابنة أبي بكر, أول الخلفاء الراشدين, الذي خلف النبي محمد بعد وفاته. وحسب التراث الإسلامي فإن أباها قد نافس الإمام علي على الخلافة وأبعده عنها. وبعد سنوات فاز علي بالخلافة المنشودة, غير أن عهده كخليفة كان مليء بالاضطرابات الداخلية. وفي إحدى المعارك في مدينة البصرة, خرج عليه معاوية بن أبي سفيان والي الشام, ذلك بمساعدة عائشة التي ركبت الجمل. انتهت "معركة الجمل الشهيرة" بانتصار الخليفة لكن على الرغم من مرور أربعة عشر قرنا منذ ذلك التاريخ, لم ينس ياسر الحبيب لزوجة الرسول حقيقة أنها حاولت تدمير حكم الإمام.

كانوا الحكومة الكويتية على ثقة بأن حبيب فعل ذلك متعمدا من أجل إيقاظ مارد الفتنة الطائفية من سباته. بل هناك من شك في أنه قال هذه الكلمات المستفزة بتحريض من إيران.

رد وزير الدفاع جابر المبارك غاضبا "الكويت أهم من كل قبيلة, وأكبر من كل قبيلة,". "ولن تسمح الحكومة بحرق البلد بعدما وصلت السكين إلى العظام." كان ذلك التصريح واضحا من حكام البلاد الذين هم في أصولهم من قبائل الصحراء, لأن النموذج الغربي للدولة, أحب إليهم من الحياة في إطار القبيلة.

الفضائح هي هواية ياسر الحبيب – فهو الواعظ الذي حول الدين إلى مؤامرة سياسية. ولم يتردد, قبل أن يظهر مكنون قلبه تجاه عائشة, في سب الخلفاء أبو بكر وعمر بن الخطاب. فوفقا للمعتقد الشيعي فإنهما قد تسببا في مقتل فاطمة الزهراء زوجة علي وابنة النبي محمد, في الصراع على كرسي الخلافة. فاطمة في حقيقة الأمر هي أم الاثنا عشر إماما, لذلك لديها مكانة خاصة لدى الشيعة. وأثناء حرب العراق دعا حبيب إلى هدم مساجد السنة موضحا أن ذلك هدفا ساميا أكثر من تخليص القدس من أيدي الإسرائيليين.

في عام 2004, عندما كان حبيب بن 25 سنة, حكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. غير أنه نجح في الخروج بعد ثلاثة شهور فقط وهرب إلى العراق, ومنها إلى إيران. قال للإنجليز إنه مضطهد في بلده على خلفية طائفية, وبذلك حصل على اللجوء السياسي والجنسية البريطانية. وفي لندن أسس جمعية "خدام المهدي" – وهي جمعية متخصصة في تجهيز حملات الحج, خاصة المعوقين وكبار السن, إلى المدن الشيعية المقدسة. ثم افتتح بعدها, بأموال التبرعات, قناة تلفزيونية للطائفة الشيعية.

أثار تهكم الحبيب من المقدسات الإسلامية عاصفة جدلية كبيرة واستنكرته حتى الدوائر الشيعية. فقد نشر "المرشد الأعلى" للجمهورية الإسلامية الإيرانية, آية الله علي خامنئي, فتوى تحرم المساس بالأسماء الطاهرة لعائشة ورموز الإسلام المقدسة لأهل السنة. ولقد زعم نعيم قاسم, نائب الأمين العام لحزب الله, أن أقوال الشيخ حبيب تجاه السيدة عائشة هدفها زرع التوتر بين الطوائف, وأنه ليس لها أي سند من الشريعة الإسلامية. وفي مصر طلبت مجموعة من المحامين بحجب إرسال بث قناته التلفزيونية.

ردّ السعوديون الذين رأوا أنفسهم ليسوا أقل تضررا من أهل السنة في القاهرة؛ بطريقتهم المعتدلة. فقد أمر وزير المحليات كل الهيئات المحلية بإضافة لقب "رضي الله عنه أو عنها" إلى جوار أسماء زوجات النبي وصحابته على يافطات الشوارع.

لكن ياسر الحبيب لم يتأثر, فنشر ردا قصيرا وحادا, وتفرغ لتجهيز نفسه للفضيحة التالية. وقال للصحفيين الذين طلبوا منه الرد "نبينا وأئمتنا, عليهم السلام, دفعوا ثمنا باهظا لقول الحقيقة", "أيحتمل ألا أدفع أنا بجنسيتي من أجل هذا الهدف؟"

الفصل السابع

الشرق والغرب

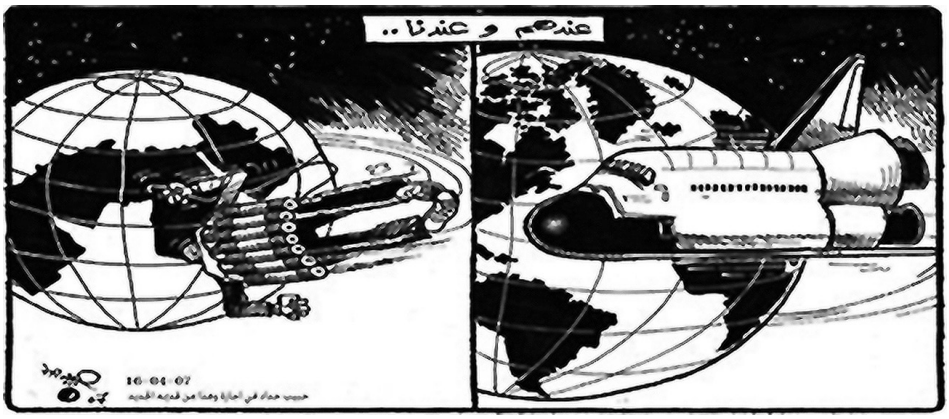

يسكن ملايين العرب والمسلمين في بلاد الغرب, ولا يغضبون عندما تحتل الولايات المتحدة بلدانهم العربية, أو عندما تمنع حكومة أوروبية بناتهم من ارتداء الحجاب. حتى قام ذات صباح مايردداني وقرر أن يرسم رسم كاريكاتيري عن النبي محمد.

وصف الرئيس الفرنسي النقاب بأنه "رمز الطغيان" ، فالنقاب قطعة قماش تغطي بها المرأة المسلمة وجهها, وشعر رأسها تاركة فتحة صغيرة للنظر من خلالها. لم يكتف ساركوزي بذلك, لكنه أمر في صيف 2009 بأن يشكل البرلمان الفرنسي لجنة تدرس إمكانية سن قانون يحظر على النساء تغطية وجوههن في الأماكن العامة. عكفت اللجنة على الأمر لمدة ستة شهور واستمعت إلى عشرات الشهود, من بينهم نساء يرتدين النقاب, وإلى خبراء في العلوم السياسية, ونشطاء سياسيين وكذلك إلى رجال الدين. أوصت اللجنة في النهاية بحظر ظهور النساء في الأماكن العامة بالنقاب, وتبنى البرلمان هذه التوصية وأصدر قانونا بذلك.

كان الفرنسيون قبل ست سنوات قد شهدوا عملية مماثلة -فترة حكم الرئيس جاك شيراك- حيث تم إصدار قانون يمنع استخدام الرموز الدينية في المدارس الحكومية؛ حيث حظر هذا القانون ارتداء الحجاب, أو الكيبا (طاقية اليهود), أو تعليق الصليب. لكن في الوقت الذي تفهم فيه اليهود والمسيحيون الأمر, تعامل معه المسلمون بغضبكان واضحا للجميع أن المشر ِع كان على علم بأن الحجاب فريضة دينية على المسلمات. أما الحظران الآخران فقد جاءا لأسباب السياسة الصائبة. ولقد سبق عملية التشريع ارتفاع في نسبة استخدام الحجاب بين الفتيات المسلمات في سن البلوغ, علاوة على وجود تقارير متزايدة حول رفض النساء أن يقوم الأطباء الرجال بالكشف عليهن. ولقد أدى هذا التغيير, الذي أطلق عليه "قانون الحجاب", إلى اندلاع مظاهرات عنيفة بين المسلمين في المدن الفرنسية.

لم تكن باريس العاصمة الوحيدة التي حاولت تخفيف ظاهرة الرموز الإسلامية في الشوارع. فقد غارت الحكومة البلجيكية من الفرنسيين وعملت على إصدار تشريع مشابه في أراضيها. وبدأ الهولنديون كذلك في دراسة الفكرة, واكتفى الإسبان في البداية بتبني مبادرة محلية؛ حيث حظرت بلدية برشلونة, وبلدية لاردة ارتداء النقاب وفقا لقوانين البلدية. وفي الوقت الذي درست فيه اللجنة البرلمانية الفرنسية القضية من مختلف جوانبها, قرر الشعب السويسري, عبر استفتاء شعبي, حظر بناء المآذن في المساجد.

شهد العقد الأول من الألفية الثانية تفاقم في العلاقات بين أوروبا وسكانها من المسلمين. وكان بداية ذلك مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر التي أدت إلى وجود غربة وعداء بين العرب

والغرب. ووفقا لمختلف التقديرات فإن نسبة المسلمين من بين سكان القارة حوالي خمسة بالمائة, وهي أقلية واضحة ومتنوعة. ففي الدانمارك على سبيل المثال توجد طائفة فلسطينية كبيرة؛ وفي ألمانيا يوجد أتراك وأكراد؛ وفي فرنسا جزائريون؛ وفي إسبانيا مغاربة؛ وفي لندن باكستانيون وعراقيون. فالمسلمون في أوروبا مهاجرون ليس لهم نصيب في المشاركة في الحكم, ويعاني معظمهم من أزمات اجتماعية بأنواعها. ولقد ذكرهم الرسم الكاريكاتيري للنبي محمد, الذي نشرته صحيفة دانماركية, بوضعهم المحبط كمواطنين من الدرجة الثانية, وبأنهم ضيوف على حضارة أجنبية لا تسارع إلى استيعابهم بشكل متساو.

لا عجب في معرفة سبب دفع أوروبا ثمنا باهظا في فترة التوتر التي كانت بعد انهيار برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك. ففي مارس 2004, قتل 191 مسافرا في هجمات إرهابية ضد خطوط قطار مدريد. وفي يوليو 2005 مات اثنين وخمسون شخصا في سلسلة تفجيرات في محطات مترو لندن. التفجير الأول (مدريد) نفذه مهاجرون مسلمون من المغرب؛ والتفجير الثاني نفذه بريطانيون من أصل باكستاني. وبررا هذه الأعمال الشنيعة بالرغبة في معقابة إسبانيا وبريطانيا بسبب مشاركتهما في الحرب الدائرة في العراق.

الوضع مختلف في علاقات المسلمين بالولايات المتحدة, الذين يشكلون حوالي واحد ونصف بالمائة من عدد السكان. إن أرض الأحلام اللامحدودة هي في الأساس مجتمع مهاجرين. ورغم ذلك ففي يوم الحادي عشر من سبتمبر, فتحت صفحة جديدة رمادية وقاتمة, في علاقات واشنطن بالعرب؛ حيث قرر رئيس الولايات المتحدة جورج بوش أن البلد التي يخرج منها إرهابيون للعمل على أرضه, فإنه سيطاردهم في فناء منزلهم. أرسل بوش خيرة قواته العسكرية إلى الشرق الأوسط لمحاربة الأعداء الذين اعتقد أنهم هم من قاموا بإسقاط البرجين. هكذا, ولدت فكرة "محاربة الإرهاب", التي أطاحت في ذروتها بحكم طالبان في أفغانستان؛ وأسقطت نظام حكم البعث الذي يمثله صدام حسين. صاحبت المعركة الأمريكية شعارات متبجحة بتحويل الطابع السياسي للمنطقة إلى ديمقراطية على الطراز الغربي, حظيت في الشارع العربي باسم "الحملات الصليبية". ووصلت كراهية العرب للولايات المتحدة إلى ذروتها, لكنها نجحت في تحقيق هدفها الأول؛ إبعاد الإرهاب الجهادي من على أعتاب الولايات المتحدة ليستقر في البلاد التي جاء منها.

امتنعت واشنطن أثناء حملتها الغاضبة عن المساس بالسعودية, رغم أنها تعلم أن معظم الانتحاريين الذين نفذوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر مواطنون سعوديون. ولقد بقي أسامة بن لادن, قائد هذه العمليات, حرا لسنوات طويلة بعدها.

رغم الاشمئزاز والخوف من رد الفعل الأمريكي لم يسكت العرب على أفكار الحرية التي حملتها معه عملية جورج بوش. فغزو أقوى جيش في العالم قلب الشرق الأوسط وإسقاط نظام حكم عربي بدون أي عائق؛ قد كشف ضعف الحكومات العربية وأثار التساؤلات لدى مواطنيها, تساؤلات مصيرية. وبدأ مشكلو الرأي العام بمختلف أنواعهم, في التفكير بصوت مرتفع حول حال الديمقراطية في الدول العربية؛ ووضع المواطن السيء؛ وفساد حكامه. وشهد العالم كله كيف لم يعد المواطن العربي يخاف الخروج إلى الشوارع, والتظاهر ضد حرمانه حقوقه الأساسية, كما كان في الماضي. بدأ الرأي العام المستقل في التطور ونجح في بعض الأحيان في إخضاع السيد, في قضايا اجتماعية كانت محظورة فيما مضى. فقد جرت في العراق وفي السلطة الفلسطينية أول انتخابات ديمقراطية وفقا للنموذج الغربي. ووصل الأمر إلى ذروته في تونس, في شهر يناير 2011, فلأول مرة ينجح الشارع, في دولة عربية, في إبعاد الرئيس بعد أربعة أسابيع من المظاهرات.

تضاءلت فجوات التواصل بين الشرق والغرب, بفضل الإنترنت والاقتصاد العالمي الذي ارتبطت به الأسواق المحلية في إطار نظام عالمي واحد. لكن لم تكتف بعض القوى العظمى بذلك, وقررت التوجه للعرب بلغتهم. هكذا ظهرت بعض القنوات الفضائية الناطقة بالعربية. فقد أنشأت واشنطن قناة الحرة الإخبارية؛ وأضافت لندن إلى محطة بي بي سي الإذاعية الناطقة بالعربية قناة أخرى تلفزيونية؛ وأنشأت فرنسا قناة فرنسا 24؛ كما ظهرت في موسكو قناة "روسيا اليوم". أما تركيا وإيران فلم تتخلفا عنهم, فقد أنشأت طهران قناة "العالم"؛ وأنشأت تركيا قناة TRT بالعربية. وفي المقابل تخلت إسرائيل, في تلك الفترة, عن فرصة الحوار التلفزيوني مع جيرانها.

رغم الغيوم السوداء التي غطت علاقات الغرب بالعالم العربي, إلا أن المسلمين والعرب هناك مازالوا يتمتعون بجو من الحرية أكثر مما لديهم في بلادهم. فالنساء, والمتدينون, والشواذ,

والصحفيون, وأصحاب الأعمدة الصحفية, ومعارضو النظام – جميعهم يتمتع بجرية الإبداع والتعبير, دون أن يضطروا إلى تقديم تقارير لموظف الرقابة أو لأي رجل أمن.

حول الأمانة والإمامة

أمينة ودود, مسلمة من مواليد بريطانيا, صنعت التاريخ. فقد كانت أول امرأة في العصر الحديث تؤم الرجال في صلاة يوم الجمعة؛ حيث تجمع حوالي ثلاثون رجل وامرأة في نادي ثقافي إسلامي في أكسفورد, بجوار لندن, وصلوا خلفها.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تقوم فيها بذلك. فقبلها بثلاث سنوات ثار جدل كبير في العالم الإسلامي, بعد أن اتضح أن ودود جمعت المصلين في نيويورك وألقت عليهم خطبة الجمعة, وبعدها أقامت الصلاة. لقد خططت ودود ومجموعة من صديقاتها لذلك قبل ذلك بفترة طويلة. ورفضتهن ثلاثة مساجد في المدينة, ونجحن في النهاية, في إقامة الصلاة في الكنيسة الإنجيلية بمنهاتن, وشارك في الصلاة حوالي 150 مسلم أمريكي.

قالت إسراء نعماني, صحفية وناشطة اجتماعية مغربية, والقوة المحركة من وراء هذا الحدث المثير للجدل "أردنا تحدي فكرة أن للمرأة دور هامشي في الحياة الإسلامية", وقالت ودود "لا يوجد في القرآن والحديث ما يمنعني من القيام بذلك", "النبي نفسه عين امرأة لإمامة مجموعة من النساء والرجال في الصلاة."

لم تتأثر معرفة أمينة ودود بالإسلام بسبب منتقديها. فلم تكن الباحثة البريطانية التي أسلمت قبل ثلاثة عقود, إمامة فقط في أوقات فراغها, لكنها, في الأساس, محاضرة معروفة في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة فرجينيا كومنولث, ولها كتاب بعنوان "القرآن والمرأة" قامت فيه لأول مرة بتفسير هذا الكتاب المقدس من رؤية نسائية. وكلمة أمينة بالعربية من "الأمانة", وكلمة ودود هي صفة للشخص المحب, أو المحبوب.

أثار هذا التصرف الشاذ جدلا كبيرا بين رجال الدين في العالم الإسلامي – فهل مسموح للمرأة أن تؤم المصلين؟ إن تعبير "إمام" له معنيان عند المسلمين. فالشيعة يطلقونه على الزعيم المهم, وفي المقابل يطلقه السنة على الشخص الذي يؤم الناس في الصلاة. لقد أثارت مشكلة أمينة الجدل خاصة بين الدوائر الدينية السنية, واستشهد مؤيدوها بحادثة أم ورقة, إحدى

الصحابيات التي عينها الرسول على رأس طائفة المؤمنين. أما معارضوها فزعموا أن الإمامة هي من مهام الرجال.

قال الشيخ يوسف القرضاوي محتجا "لم نعرف في التاريخ الإسلامي أن امرأة ألقت خطبة الجمعة أمام الرجال". ونصح أمينة بالتوبة والتراجع عن هذا الفعل, "يستحسن أن تعود إلى ربها وإلى دينها, وأن تطفئ نار الفتنة, التي لا داعٍي لإشعالها." في المقابل اتهمها مفتي السعودية بأنها "عدوة الإسلام", وزعم أنها تخطت كل الحدود التي وضعها الله.

لم يقم أحد من معارضيها المشهورين بتفسير لماذا مسموح للمرأة بقيادة الدولة, ولكن ليس جماعة المؤمنين. تدخل شيخ آخر لتقديم تفسير, وهو شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي الذي قال: "لا يسمح الإسلام للنساء بإلقاء الخطبة أمام الرجال. فمن غير المناسب أن ينظروا إلى جسدها وهي تركع أمامهم."

حذاء كبير المقاس

أثار حذاء من صناعة عراقية مقاس 44 جنون العالم على مدى شهور طويلة. منتظر زيدي, مراسل قناة بغدادية العراقية, استشاط غضبا في مؤتمر صحفي في بغداد. فقد وقف أمامه رئيس الولايات المتحدة, جورج بوش, في زيارة وداع للعراق قبل أن يترك منصبه. تذكر زيدي مئات الآلاف من الأبرياء الذين قتلوا في العراق في الخمس سنوات ونصف منذ إطاحة جنود بوش بصدام حسين من منصبه.

صرخ زيدي وألقى حذائه الواحد تلو الآخر تجاه الضيف الكبير قائلا "هذه هدية من العراقيين, هذه قبلة الوداع, يا كلب". انحنى بوش, الرجل الوسيم, بمهارة الرياضي المتدرب وأفلت هجمة الصواريخ, بعدها قام با سما وأخبر الصحفيين بأنه لا داعٍي للقلق.

قال الرئيس معزيا نفسه والحاضرين "هكذا تتصرف الدول التي بها حرية تعبير", وعاد إلى المؤتمر. في تلك الأثناء تم اصطحاب الزيدي إلى السجن حيث تلقى هناك ضربا مبرحا على يد رجال الشرطة. من قال إن حياة الصحفيين سهلة؟! وبعد ثلاثة شهور قضاها في السجن حوكم المراسل الغاضب وحكم عليه بثلاث سنوات. قام باستئناف الحكم وتم تخفيف العقوبة. وقال

قضاة الاستئناف في قرارهم إن الحياة أمامه, ولأن ماضيه نظيف, فإنه من الأسلم الحكم عليه بالحبس لسنة واحدة فقط.

قال زيدي بعد إطلاق سراحه : "ما الأسوأ", "الحذاء الذي ألقيته تجاه بوش, أم القنابل التي ألقاها هو على الشعب العراقي؟"

قبل ذلك, منذ اللحظة التي قبض عليه فيها وضرب, أصبح المراسل التلفزيوني الشاب, وكذلك نعلاه, رمزا قوميا. ففي خلال خمسة أيام فقط شاهد نحو نصف مليون شخص الفيلم الذي سجل هذا الحدث, بعد رفعه على اليوتيوب. وعرض محامي صدام حسين, حليل دولديمي, التطوع في تمثيل زيدي في المحاكمة ووصفه بالبطل. كما عرض عشرات المحامين من مختلف الدول العربية خدماتهم عليه مجانا بدون مقابل. تقول إحدى النكات التي انتشرت بعد هذا الحادث, أن بوش غير اسمه رسميا إلى "جورج دابليو شوز".

،غمر زيدي أثناء فترة وجوده في الحبس بالعروض السخية, فنجد أن ثري سعودي وافق على دفع مبلغ عشرة ملايين دولار في مقابل الحذاء. كما اتصل مواطن مصري بعائلة زيدي وعرض عليهم تزويجه بابنته الطالبة في العشرين من عمرها. وفي سوريا أطلق عشرات الآباء على أطفالهم حديثي الولادة اسم "منتظر" أو "زيدي", كما استخدمت متاجر الأحذية هذا الاسم.

وادعت شركة أحذية تركية أن السلاح الذي استخدمه زيدي من إنتاج مصانعها, غير أن أخاه كذب ذلك على الفور وقال "إن الحذاء صناعة عراقية خالصة."

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتحول فيها الحذاء, رمز الإهانة عند العرب, إلى بطل ثقافي؛ ففي بداية عام 1948 تظاهر مئات الآلاف في شوارع بغداد, احتجاجا على اتفاقية الصداقة الموقعة بين رئيس الحكومة نوري السعيد وبين الانتداب البريطاني, الذي منحه حقوق أكبر في العراق. ولقد أطلق المتظاهرون على نوري اسم "كونديرا" – أي حذاء, وعلى وزير داخليته المخلص, صالح جبر اسم "قيطان" – أي رباط الحذاء. ويسود بين يهود العراق معتقد بأنه لا يجب وضع الحذاء مقلوبا في فناء المنزل, ففي ذلك إهانة للإله. وبعد تلك المظاهرات في بغداد بعشرات السنين, أمر ياسر عرفات بإغلاق قناة الجزيرة في رام الله, لأنها أذاعت صورة قديمة له

من فترة وجوده في لبنان, معلق فيها ورائه على الحائط حذاء قديم. غير أن هجوم زيدي على بوش قد أعاد إلى الحذاء ازدهارا عالميا.

لم يخطئ الرئيس بوش, عند قيامه بتهدئة الحضور, بعدما أصبح هدفا للهجوم عليه؛ ففي سنوات الاحتلال الأمريكي للعراق تم غرس قيم الديمقراطية الليبرالية على الطراز الغربي. وحصل المواطنون لأول مرة على حق انتخاب البرلمان الذي يتغير كل أربع سنوات. وأصبح الإعلام, الذي كان في أيام حكم البعث خاضعا للرقابة المشددة, حرا أكثر من أي وقت مضى, وأكثر تنوعا, ومتعدد الآراء. كما اختفت "جمهورية الخوف" التي قادها صدام حسين التي اعتمدت على جهاز الخدمة السرية, وملاحقة المعارضين أو المعارضين الوهميين. ولو أن زيدي هاجم ضيف دولة صديقة, في عهد صدام, لم يكن هو فقط الذي سيختفي في غياهب السجون ويلفظ فيها أنفاسه الأخيرة, لكن جميع أفراد عائلته معه.

لقد كان حادث مهاجمة رئيس الولايات المتحدة بالحذاء حدثا رمزيا, فقد عبر عن مكنون كراهية الشعب العربي للولايات المتحدة, وخلق في يوم وليلة نموذجا احتجاجيا دوليا. فبعد أن هوجم بوش بالحذاء, هوجم في أماكن مختلفة في العالم بعض الشخصيات التي بغضها الناس ، ومن هؤلاء رئيس الحكومة الصينية؛ ثم الرئيس السوداني؛ وسفير إسرائيل في السويد؛ ورئيس المحكمة العليا في القدس؛ وشخصيات أخرى.

أظهرت حالة زيدي طابع المجتمع المدني الجديد في العراق؛ فقد خلق العالم العربي, في العقود الخمسة الأخيرة منذ حصوله على الاستقلال, أشكالا مختلفة من الديمقراطية. فنجد في مصر وسوريا نموذجا مجملا لنظام الحكم الاستبدادي. وفي السعودية نجد الملكية المطلقة, التي تختلف كليا عن الملكيات المتنورة في الأردن والمغرب. أما لبنان والسلطة الفلسطينية فقد كانتا تحت الاحتلال وربما لذلك ظهرت فيها مجتمعات أكثر ديمقراطية.

وفي المقابل ففي عراق ما بعد صدام تطورت الحذاءقراطية- وهي ديمقراطية الهجوم بالحذاء, التي يكون فيها العنف طريقة من طرق حرية التعبير عن الرأي.

حقيقة الإسلام

كثيرا ما امتدحت الدكتورة ستيلا فان دان فترينج, محاضرة في قسم الدراسات الإسلامية من أمستردام, المجتمع الهولندي لتسامحه مع أبناء الطائفة الإسلامية. فان دان فترينج مسيحية أشهرت إسلامها وتعمل محاضرة للغة العربية, والثقافة العربية, اتهمت الكثير ممن يعملون في هذا المجال بأنهم يخوفون الشعب من المسلمين بدون وجه حق. زعمت الباحثة, وربما عن حق, أن الحوار عن الإسلام في المجتمع الغربي سطحي ومشوه. وترسخ هذا التصور أكثر مع تطور القنوات الفضائية, والإنترنت.

وقالت "هذا ما مهد الطريق لظاهرة الإسلاموفوبيا, على الرغم من أنه ليس سوى وهم", "فالأوربيون لا يعلمون حقيقة الإسلام."

كما عارضت الباحثة الهولندية الصحفيين, ورجال السياسة وخاصة الأكاديميين. ساعد المستشرقون, هكذا أطلقت عليهم, في وضع معظم البرامج التعليمية في المدارس والجامعات, بالشكل الذي يصور الإسلام على أنه ديانة يتربى أبناؤها على العنف والإرهاب, بدلا من التركيز على الرزق, وبذل الجهد من أجل التقدم في الحياة.

لكن على الرغم من الحملة المخططة التي تهدف إلى تشويه الإسلام, تعتقد الدكتورة فان دان فترينج أن مواطني هولندا يعلمون كيفية التعامل مع المسلمين كما ينبغي واعتبارهم جزءا من مجتمعهم. "يدرك غالبيتهم أن هذه الفوبيا مجرد وهم ... فمن غير المحتمل أن الشعب الذي يتباهى بالحرية, سيمنع أبنائه من حقهم الذي كفله لهم الدستور."

أشارت الباحثة الهولندية في كلماتها إلى خِيرت فيلدرس, مؤسس حزب "الحرية" اليميني, الذي قام بإنتاج الفيلم القصير المثير للجدل "فتنة". وعلى عكس الباحثة التي هي من نفس بلده, فإن عضو البرلمان الهولندي يعتقد أن الاسلام هو بالفعل دين عنيف, وأراد التعبير عن ذلك بطريقته؛ فقام بجمع العشرات من مقطوعات الفيديو القاسية, في 17 دقيقة, وكذلك الخطابات المعادية للسامية التي ألقاها الرئيس الإيراني أحمدي نجاد, ودمجت كلها في الفيلم مع مشاهد إعدام نفذتها القاعدة في العراق؛ وأجزاء من هجمات 11 سبتمبر؛ والجرحى الغارقون في دمائهم في تفجيرات لندن ومدريد؛ وطفلة مصرية تبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف تقول إن اليهود قردة وخنازير, وإن الله هو الذي قال ذلك.

من بين الصور التي جمعها فيلدرس آيات قرآنية مثل الآية رقم 56 من سورة النساء التي تقول: "إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب". وكذلك الآية 89 من نفس السورة التي تقول: "فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم.."

رفضت القنوات التلفزيونية في أنحاء العالم عرض هذا الفيلم, واضطر منتجوه إلى عرضه على شبكة الإنترنت, وفي عروض خاصة. لكن الغضب الدولي الذي أثاره الفيلم بعد إذاعته خلال عام 2007, قد دعم المخرج. وزعم فيلدرس "ليس في الإسلام أي دعوة إلى الديمقراطية والتسامح", "إن القرآن كتاب فاشي." وحذر من أن وجود 950 ألف مسلم في هولندا هو بمثابة قنبلة موقوتة, وأن بلاده على شفا تسونامي إسلامي, في حال استمرت في السماح بهجرة المسلمين إليها. لم يرتدع المخرج من المساس بما يسبب غضب المسلمين, وهو النبي محمد. وقال "لو كان النبي يعيش اليوم في هولندا لعملت على طرده منها" .

غير أن فيلم "فتنة" نفسه عمل به الكثير من المشاكل من الناحية الفنية والفكرية. فهو مليء باستخدام الوسائل الراديكالية من أجل الاعتراض على الآخر. كما يعاني الفيلم من عدم وجود توازن, ويعرض للمشاهد البسيط الجانب المظلم فقط من المجتمع المسلم. فلم يتعلم مشاهدو فيلدرس منه, على سبيل المثال, أن صوم شهر رمضان هو من أجل منح المسلمين الشعور بالتضامن مع الجوعى. كما لم يعلموا أن أحد أركان الإسلام الخمسة هو الزكاة لمساعدة الفقراء.

النقطة المضيئة الوحيدة لدى هذا الفنان الهولندي كانت إسرائيل, التي يحبها للغاية, ومن نحن كي نطالبه بتغيير رأيه. يبدو أن الرجل في حاجة ملحة للقاء ستيلا فان در فترينج.

القاعدة في مواجهة إيكيا

لوهلة أوشكت قضية الرسوم الكاريكاتيرية ضد النبي محمد على الاندلاع ثانية. فقد أعلن تنظيم القاعدة في العراق عن جائزة قدرها 100 ألف دولار لمن يقتل الرسام الكاريكاتيري السويدي, بسبب رسم له. هذا الرسم نشرته جريدة نريكس ألهندا, وهي مجلة واسعة الانتشار توزع في المناطق الشمالية الشرقية من السويد, رسم فيها النبي محمد على هيئة كلب.

وعد أحد زعماء تنظيم القاعدة بالنيابة عن أبو عمر البغدادي قائلا "سنرفع الجائزة إلى 150 ألف دولار, لو أن الرسام ذبح مثل الخروف". البغدادي هو الاسم الحركي لزعيم "الدولة الإسلامية في العراق", وهي أكبر التنظيمات الجهادية السنية هناك. وفي بيان طوله 31 دقيقة, وصف البغدادي المسئولين عن النشر بـ "صليبيي السويد", وعرض مبلغ 50 ألف دولار أخرى لمن يأتي برأس رئيس تحرير الصحيفة أولف يوهانسون.

وتوجه إلى السويديين قائلا "نحن نحتفظ لأنفسنا بحق عقاب من قام بهذه الجريمة, ونعلم كيف نجبركم على الندم والاعتذار", "لو لم تفعلوا ذلك سنهاجم كبرى شركاتكم," وهنا عدد البغدادي أسماء الشركات: أريكسون, وإيكيا, وسكانيا, وفولفو, وإلكترولوكس. ومرت الأيام والأسابيع, وأبت القضية أن تنفجر, مثلما حدث قبل ذلك بعامين.

هناك مجموعة من الرسومات الكاريكاتيرية نشرت في سبتمبر 2005 في الصحيفة الدانماركية يولدس بوستن, صورت النبي محمد على هيئة إرهابي. أراد الرسام فسترجارد التعبير عن موقف ساخر, غير أن رسومات النبي يمتطي حمارا, أو يخبئ قنبلة تحت عمامته قد أشعلت غضبا كبيرا أكثر مما هو متوقع. ولقد أثار غضب المسلمين أكثر الرسم الذي صور النبي محمد يقف على سحابة في السماء لاستقبال الشهداء, قائلا لهم: "توقفوا, لم يعد هناك المزيد من الحور العين!".

خرج آلاف المسلمين في شوارع العواصم الغربية, وفي الدول العربية وتظاهروا غاضبين ضد معاملة الأوربيين للمسلمين. وهاجموا المؤسسات الدانماركية واصطدموا برجال الشرطة, وطالبوا بتقديم اعتذار صريح بسبب المساس باسم النبي محمد. وتلقى محررو الصحيفة, ورسامو الكاريكاتير تهديدات, وسارعوا إلى الاختباء. وصلت الاحتجاجات إلى ذروتها في دمشق, حيث هاجمت جموع المتظاهرين سفارتي الدانمارك والنرويج وأضرمت فيهما النيران. وقامت ليبيا والسعودية بسحب سفيريهما من الدانمارك كتعبير عن الاحتجاج.

هدأت الاضطرابات بعد أن نشر محررو الجريدة اعتذارا, كما اعتذرت الحكومة الدانماركية. وبعد عامين اكتشف رجال المخابرات الدانماركية خلية سرية تخطط لقتل فسترجارد، وألقي

القبض على تونسي ومغربي. أسفرت القضية التي هدأت أصداؤها بعد ثلاثة شهور عن مولد حوار حول مسألة حرية التعبير والعلاقات بالأقليات المسلمة.

لكن لماذا في الحالة السويدية لم تخرج الزوبعة من الفنجان؟ - بسبب التوقيت على وجه الخصوص. فقد كان عام 2005 عاما سيئا جدا في علاقات العالم الإسلامي بالغرب. فكانت فرنسا قد أصدرت قبلها بعام "قانون الحجاب" الذي يحظر ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية؛ وفي العراق كانت حرب الأمريكيين ضد المقاومة في أوجها- الحرب التي أدت إلى ظهور مناظر قاسية على ساحة العمليات الانتحارية, وأرقام مثيرة للشفقة حول ملايين اللاجئين الذين فروا من منازلهم. كان صعب على العرب فهم أي سبب حقيقي دفع حكومة بوش إلى محاربة صدام حسين, باستثناء رغبته الخفية في السيطرة على مصادر بلاده النفطية. وفي أفغانستان كذلك واصلت القوات الأمريكية معركتها ضد حركة طالبان, التي اعتبرها العرب أيضا تدخلا فظا في شؤون دولة مسلمة. وعلى هذه الخلفية, وكما هو دائما, لم تمح بعد أصداء الانتفاضة الفلسطينية. فتعجب الكثيرون في العالم الإسلامي من وقوف الغرب القوي والمتنور ليشاهد أحد أقوى جيوش العالم يلقي بكامل قوته على سكان فقراء بدون مأوى في غزة, ونابلس, وجنين, ورام الله.

في الحالة الدانماركية خرجت الاحتجاجات من قلب الشارع الإسلامي؛ وفي المقابل حاول تنظيم القاعدة قيادة الحملة ضد المجلة السويدية. ويعتبر معظم مسلمي العراق والعالم هذا التنظيم جماعة شيطانية, وأنهم لم يكونوا ليختاروه للدفاع عنهم, أو لرسم أجندتهم السياسية. كما أن هناك حقيقة مشاركة القوات الدانماركية في الحرب في العراق؛ حيث تم إرسال مئات الجنود للمشاركة في قوات التحالف, وهو الأمر الذي لم تفعله جارتها السويد.

اختبأ الرسام السويدي, لكنه لم يتوقف عن دعوة المسلمين, من مخبأه, إلى تعلم كيفية خلق عالم أفضل. قال بسذاجته الإسكندنافية "أردت فقط اختبار حدود حرية الفن.", "وأدركت أنه لا يجب انتقاد العالم الإسلامي. نستطيع أن نأمل فقط في أن يختار مسلمو أوروبا والغرب النأي بأنفسهم عن مشكلاتنا هنا, وأن يساندوا مبدأ حرية التعبير."

للاستهلاك المحلي فقط

قدم مفتي الديار المصرية الدكتور على جمعة, نصيحة فقهية إلى المسلمات اللائي يرتدين النقاب. "في سفركم خارج البلاد," قال ناصحا, "مسموح لكم بخلع هذا النقاب." هذه الكلمات قالها قبل بدء الرئيس الفرنسي ساركوزي حملته العامة ضد النقاب.

النقاب أو البرقع هو الغطاء الذي يغطي الوجه باستثناء العينيين, قد,وجد في الأساس للنساء الجميلة, التي أراد أزواجهن إخفائهن عن الأنظار. كما اعتاد الرجال الوسام في بداية العصر الإسلامي, وفقا للتراث, تغطية وجوههم هم أيضا. وأصبح النقاب فيما بعد وسيلة للتعبير عن التدين, ويعتبر اليوم رمزا للأصولية المتشددة, وذلك في الغالب عن غير حق.

أصبح للنقاب في العصر الحديث استخدامات شاذة عن الغرض الرئيس منه؛ فالعاهرات, والرجال الذين يخونون زوجاتهم يتسللون به إلى بيوت عشيقاتهم؛ ويستخدمه الإرهابيون والمجرمون للهرب من رجال القانون. لكن الكتابات المقدسة ليس فيها نصا صريحا يلزم المرأة بارتدائه, على عكس الحجاب, الذي هو فرض في رأي معظم رجال الدين.

قالت الدكتورة سعاد صالح, أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة الأزهر بالقاهرة "أشمئز في كل مرة أرى فيها امرأة منتقبة,". "من يفتي بضرورة النقاب, فهو لا يعلم شيئا وجاهل. يتكلم من منطلق الثقافة الذكورية. وفي الإسلام براهين وأدلة لها ثقلها تسمح للمرأة بإظهار وجهها".

قالت الدكتورة سعاد إن حوالي 97 % من النساء اللائي يرتدين النقاب لا يهتممن بأمره كثيرا. فهو بالنسبة لهن للاحتشام أكثر كما يرغب المجتمع الذكوري, في الوقت الذي قد يكون فيه أزواجهن غير متدينين بالمرة. كما تبنت وزارة الأوقاف هذا الموقف فأصدرت كتابا بعنوان "النقاب عادة وليس عبادة" يعرض لآراء الفقهاء في مصر, التي تقول بأنه لا دليل على ذكر النقاب في القرآن أو الحديث. بعدها بفترة قصيرة حظر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي, ارتداء الطالبات للنقاب في فصول البنات. بعدها حظرت حكومة دمشق دخول الطالبات المنتقبات إلى الحرم الجامعي. وقال وزير التعليم العالي السوري غياث بركات, إن هذه الظاهرة تخالف القيم, والعادات الأكاديمية, وأخلاق الجامعات.

قال رجل الدين السوري محمد حبش "تصوروا أنكم تسيرون في طرق مدينة كل نسائها يرتدين النقاب, ونظارات غليظة"," هذا منظر غير مقبول, ومن حق ولي الأمر منع ذلك."

في أحد الأيام زار الشيخ طنطاوي, الذي كان معروفا بلسانه اللاذع, إحدى مدارس البنات في القاهرة. وشاهد في الصف الثاني الإعدادي فتاة منتقبة, فقال لها "لا علاقة بين النقاب والدين, فلماذا ترتدينه؟" رفت الفتاة النقاب في خضوع. لكن شيخ الأزهر لم يتركها وطالبها بالامتناع عن لبس النقاب طول حياتها. ردت الفتاة "أنا أرتديه كي لا يرى الرجال وجهي,". "قلت لك," صرخ فيها, "هو عادة فقط, ولا علاقة له بالإسلام. أنا أفهم الدين أكثر منك, ومن الذين سيأتون من بعدك."

خلق الإعفاء من ارتداء الحجاب خارج البلاد, الذي قال به المفتي علي جمعة للمرأة المصرية؛ مشكلة منطقية بالنسبة لها. فإذا كانت ترتديه في بلدها بين شعبها, فماذا عليها أن تفعل بين الرجال الأجانب عليها. غير أن المفتي استعان في فتواه بالقاعدة القديمة التي تقول "في روما تصرف مثل أهلها". وقال إن عادات أصحاب المكان هي التي تغلب عادة المسلمين بتغطية وجه المرأة.

غطاء رأس بال

عرضت شركة أغذية نرويجية على العاملات المسلمات المهتمات بذلك, حجابا للاستخدام لمرة واحدة فقط في خطوط الإنتاج. لم يكن الاختراج الجديد سوى غطاء رأس مصنوع من الورق على شكل الحجاب. الغرض منه إعفاء العاملات من ضرورة تغطية رؤوسهن حسب الشريعة؛ ويسمح لهن من ناحية أخرى بتنفيذ تعليمات صاحب العمل بضرورة تغطية رأس العاملة كي لا يسقط شعرها في المنتجات الغذائية.

أصبح الحجاب, في فترة التوتر بين العرب والغرب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر, علامة على التواجد الإسلامي في شوارع أوروبا. واستخدم المحللون, والسياسيون الغربيون الذين أرادوا الإشارة إلى تزايد قوة الإسلام في بلادهم, "معيار الحجاب" في الشارع. فقبل سنوات من الاختراع النرويجي خرج آلاف المسلمون في شوارع فرنسا واصطدموا برجال الشرطة ذلك بعد تصديق البرلمان على حظر ارتداء الحجاب في المدارس والجامعات الحكومية. غير أن الفرنسيين ليسوا هم من أوجدوا معارضة الحجاب.

ففي عام 1982 أصدرت وزارة الثقافة التونسية القرار رقم 108 الذي حظر ارتداء الحجاب في المؤسسات العامة. امتد الحظر بعدها ليشمل الوزارات الحكومية والشركات الخاصة, خاصة تلك التي تخدم السائحين. ويبدو أن هذه الحملة العامة قد تم استيعابها جيدا. ففي عام 2006 تم استبعاد طالبة من مدرسة تونسية لأنها تجرأت على الذهاب للعمل مرتدية الحجاب. احتاجت بعدها إلى مساعدة المحكمة لتعود إلى عملها. وفي نفس العام داهمت قوات الأمن المحال التجارية في المدن الكبرى وصادرت ألعاب الدمية "فلة", وهي الإصدار العربي للدمية "باربي". فقد رأت أن حجاب الدمية يعتبر تشجيعا للأطفال على ارتداء الحجاب. وقد قال وزير الشئون الدينية الأسبق, أبو بكر أحوزري, إن الحجاب هو رداء "ظاهر وغريب".

كما منعت مؤسسات عامة كثيرة في الدول العربية, وبالطبع الشركات الخاصة, العاملات من تغطية رؤوسهن. ففي مصر منع اتحاد الإذاعة والتلفزيون ظهور المذيعات المحجبات على الهواء. وهو ما أحدث ضجة كبيرة, لم يظهر بعدها كثيرون على الشاشة, غير أنه تم تطبيق القرار. حظر مشابه فرضته شركات تأجير السيارات, والفنادق, ووكالات السفر في المغرب, والإمارات الخليجية على العاملات, وبررت ذلك بالقول: "كوني متدينة في بيتك".

القليل من يرى في الحجاب وسيلة لتعبير المرأة عن عفتها وقربها من الدين, سواء كان ذلك حقيقيا أم مصطنعا. فالفتاة التي يشك الأب في قيمها الأخلاقية, والمرأة المتزوجة ويخاف زوجها عليها في مكان العمل, والعروس التي تريد أن تعجب عائلة الزوج, وبالطبع النساء اللائي يحترمن الدين والتراث بالفعل – كلهن سيخترن الحجاب. يعتبر الرجال هذه النساء متدينات ويبتعدون عن مضايقتهن. والحجاب بالنسبة للمرأة في الشارع الغربي وسيلة لإظهار انتمائها للقومية الأجنبية.

في النرويج طائفة مسلمة قوامها حوالي مائة ألف شخص – حوالي واحد بالمائة من إجمالي سكان الدولة. وفي عام 2008 عينت امرأة, الدكتورة لينا لارسن, في رئاسة المجلس الإسلامي – أعلى هيئة إسلامية في النرويج. لارسن مسيحية اعتنقت الإسلام في سن 17, وتزوجت من أردني وعملت في جامعة أوسلو كباحثة في الإسلام.

لقد عمل في مصانع "نورتورا" للأغذية المسئولة عن هذا الاختراع, حوالي سبعة آلاف عامل. خمس هذا العدد, من العمال الأجانب من بينهم مئات المسلمين. تم تصميم الحجاب المستخدم لمرة واحدة فقط للمسلمات منهم, وقالت الشركة إن الهدف من إدخاله العمل هو "المزج بين نظافة العاملين وبين تقاليدهن."

إنها بالفعل كلمات محفزة, لكن من الصعب تجاهل أن مصممي هذا الحجاب قد حاولوا منحه الطابع العلماني, وبذلك تشويه شكله التقليدي. فمن في حاجة إلى عاملة ترتدي الحجاب إذا كان من الممكن أن تستبدله بغطاء رأس للاستحمام.

,خطبة اللحم المكشوف

"نساء بلا حجاب مثل اللحم المكشوف أمام الناظرين. لو وضعتم اللحم المكشوف في أي مكان, ستأتي القطط والكلاب فيما بعد وتأكله؛ فأين المشكلة؟ هل في القطة أم في اللحم المكشوف؟ الإجابة بالطبع اللحم المكشوف."

كلمات قالها تاج الدين الهلالي, مفتي أستراليا, وجعلته يتصدر عناوين أهم الصحف العالمية. حدث ذلك في خطبة يوم جمعة من شهر رمضان/ أكتوبر عام 2006. واقفا أمام مئات المصلين في أحد مساجد مدينة سيدني توجه هلالي إلى الآباء, والأخوة, والأزواج, وطالبهم بحث نسائهم على ارتداء الحجاب.

لم يفسر الشيخ كلماته, لكن الإشارة كانت واضحة. فالمرأة التي لا تغطي رأسها عند خروجها من بيتها, تشجع المغتصبين, أو المتحرشين. كان من المفترض أن تمر تلك الكلمات بهدوءٍ نسبي لولا أنه يعيش في دولة غربية. الحكومة الأسترالية هي التي عينت تاج الدين الهلالي في هذا المنصب. هو مصري الأصل هاجر إلى قارة أستراليا عام 1982 واستقر فيها وحصل على الجنسية. يوجد في أستراليا ما يقارب 300 ألف مسلم, من بينهم حوالي 55 ألف حاصلين على الجنسية.

, شرت بعض أجزاء من خطبة اللحم المكشوف في وسائل الإعلام المحلية, وسرعان ما تطايرت إلى وكالات الأنباء العالمية. زعم الهلالي أن كلامه قد أخرج من سياقه, وطلب سماح المسلمات أينما كن. تنكر المسلمون في أستراليا لأقواله, وطالب الرأي العام الحكومة الأسترالية

بطرده من البلاد, غير أن سلطات سيدني رفضت التدخل في الأمر. وعندما سأله الصحفيون متى سيقدم استقالته أجاب "بعد أن يتم تطهير العالم من البيت الأبيض."

قبل أن يكشف لسامعيه أن الحجاب من شأنه أن يشكل عائقا أمام المغتصبين, نجح هذا الخطيب من مدينة سيدني أن يثير غضب الأستراليين بطرق أخرى. فقد قال عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر إنها مشيئة الله, غير أن كلماته فسرها الغرب العلماني على أنها تأييد لما حدث, بسبب توقيتها. كما نجح مرة أخرى في إثارة غضب الرأي العام عندما قال إن للمسلمين في أستراليا حقوق أساسية أكبر من التي لدى الأنجلوساكسونيين الذين جلبوا كعبيد مكبلين الأيادي.

وأوضح الفارق بقوله "لقد وطأ المسلمون الأراضي الأسترالية أحرارا, بحثا عن فرص أفضل للحياة.".

وفي الوقت الذي استمرت فيه قضية اللحم المكشوف في الاشتعال, وتظاهرت الناشطات النسائيات أمام المسجد في سيدني مرتديات لباس البحر (البكيني), كانت هناك سيدة واحدة فقط حاولت حل هذه الأزمة بقوة المنطق. سلمى أيهرم, نائبة رئيس الهيئة القومية للمسلمات في أستراليا, وهي هيئة دينية تجمع مسلمات أستراليا. ذكرت أيهرم للجميع أن مستمعي للهلالي لم يكونوا الرجال والنساء في الغرب لكن المسلمين أينما وجدوا, وأن اللغة التي استخدمها ليست غريبة على المجتمعات المحافظة في العالم الإسلامي. علاوة على ذلك أبرزت مواقفه الليبرالية.

وقالت "لقد اعترضت على الأفكار التي اقتبست من هذا الخطاب,", "لكن كانت هناك أيضا مضامين أخرى. فالشيخ تاج الدين الهلالي من أوائل من دافعوا عن حق المرأة في التعليم, وحرية اختيارها لزوجها, حتى إن كان من طائفة أخرى. لقد وجه كلماته للآباء الذين يخافون على بناتهم, وطالبهم بمراقبتهن, وحملهم مسئولية تعليم بناتهم كيفية التصرف. لا خطأ في ذلك, لأنه تحدث إلى جماعة ذات خلفية ثقافية عربية – أناس أصحاب عائلات."

هدأت القضية فقط بعد أن أعرب الهلالي عن اعتذاره أمام الجمهور. فقال "كان هدفي الحفاظ على كرامة المرأة, لكني لم أنجح في توضيح ذلك,". ولم يكتف بذلك, بل اعتزل لمدة ثلاثة شهور, عاد بعدها إلى العمل.

تايفون مع فنجان شاي

تثير السعودية في العالم الكبير الكثير من الفضول المتزايد, فسرعان ما أصبحت هذه المملكة التي نشأت من لا شيء على أسس المجتمع القبلي المحافظ؛ أكبر منتجة للنفط في العالم, ودولة ذات تأثير إقليمي كبير. هناك العديد من الكتب والأبحاث التي كتبت عن العائلة السعودية المالكة, وعن ثرائها, وعن المجد والفساد الذي يسيطر عليها, لكن في حالات نادرة فقط استطاع الشعب معرفة ما يدور فيها.

هذه الفرصة وفرتها الحكومة البريطانية للمفاجأة, وعن غير قصد, , فإذا كانت التفاصيل التي سربت حول هذه القصة صحيحة, فإننا أمام فساد عظيم للغاية. بطل القصة الأمير بندر بن سلطان. شغل بندر منصب سفير السعودية في واشنطن على مدى 22 سنة. فقد خدم بلاده في فترة حكم الرؤساء جورج بوش الأب, وبيل كلينتون, وجورج بوش الابن, وأثار غيرة نظرائه من السفراء الأجانب لعلاقته المباشرة مع البيت الأبيض التي لم يحظ بها الكثيرون. ثم عمل بعد ذلك سفيرا لبلاده في لندن, وبعد مسيرة دبلوماسية طويلة تم استدعائه ليشغل منصب مستشار الملك عبد الله بن عبد العزيز لشؤون الأمن الوطني. كان بندر بن سلطان خلال فترة التسعينيات وبداية الألفية الجديدة, رجل القصر عبر البحار. ولقد نسبت له منشورات إسرائيلية وجود علاقات سرية بين إسرائيل والرياض, من خلاله, في فترة حرب لبنان الثانية.

من هنا يتضح أن المنصب الدبلوماسي للأمير السعودي لم يكن سوى هواية يغطي بها مهنته النشطة كرجل أعمال. فقد كشف تحقيق لقناة البي بي سي نشر في صيف 2006 أن بندر كان يتعامل في مبالغ تصل إلى مليارى دولار, وهي أموال رشاوى من الصناعات الأمنية والعسكرية البريطانية من صفقات تمت بوساطته, حاول, في مقابلها, تفضيل منتج معين على منافسه في صفقات شراء السلاح البريطانية لصالح الجيش السعودي.

حدثت أعمال الفساد تلك في إطار "مشروع اليمامة", وهو الاسم الذي أطلق على سلسلة من صفقات السلاح بين لندن والرياض في فترة الثمانينيات. وكانت تقدر قيمة هذه الصفقات بنحو 40 مليار جنيه استرليني, ونفذت على مراحل. كشفت التحقيقات أن المال الذي حصل عليه بندر بن سلطان حولته شركات السلاح البريطانية BAE Systems التي تعتبر أكبر منتج

للسلاح في أوروبا. وحسب ادعاءات محققي القناة فإن هذه المبالغ الطائلة قد دفعت بعلم تام لوزارة الدفاع البريطانية. وكان يتم كل عام تحويل حوالي 120 مليون دولار لحسابين يخصان السفارة السعودية في واشنطن. واستمرت هذه التحويلات على مدى عشر سنوات, المدة التي شغل فيها بندر منصب السفير. وكان هو الشخص الرئيس الذي يستطيع التعامل مع هذه الحسابات.

أهم جزء في القضية كان تصرف الحكومة البريطانية. ففي اللحظة التي بدأ فيها السكوتلاند يارد التحقيق في اتهامات الفساد, هدد البلاط الملكي السعودي بإلغاء المرحلة التالية من الصفقة, لو لم يتم وقف التحقيق على الفور. لقد حوصرت حكومة توني بلير؛ فقبل عدة شهور قررت لندن والرياض بيع 72 طائرة مقاتلة بريطانية من طراز "تايفون" لسلاح الجو السعودي. وكان من المفترض أن توفر هذه الصفقة 9000 فرصة عمل للشركة البريطانية. وكان من الواضح أنه إذا استمر التحقيق, فإن مصير هؤلاء العمال سيكون التسريح من العمل. فكر بلير في المسألة مليا وقرر أن مصلحة عائلات عمال شركة BAE Systems أفضل من كشف القضية. فخضع للتهديد السعودي وأمر رجال الادعاء بإيجاد طريقة لحفظ التحقيق.

مر عام, وقرر شخص ما في القيادة تسريب اسم المتهم الرئيس في القضية, وظهر دور بندر بن سلطان في القضية أمام العالم كله, فأضر ذلك بصورته بشكل كبير خاصة في الغرب. كان هذا هو انتقام القيادة البريطانية المتأخر. هكذا أصبح هناك ثلاث جهات أخرى متورطة في هذه القضية إلى جانب شركة السلاح الفاسدة؛ أجهزة التحقيق البريطانية: الادعاء العام, والشرطة, ومكتب رئيس الحكومة.

مطلوب شخص راشد مسؤول

رفضت الفنانة سارة مايفل الصمت. هي مسلمة وهاوية للجنس, ولسبب ما بدا لها أن هناك شيء يجب عمله هو المزج بين الاثنين. كانت النتيجة سلسلة من الأعمال الفنية من إنتاجها, من النوع الذي يثير رجال الدين في كل مكان.

صورت في إحدى هذه الأعمال نفسها مرتدية الحجاب وتمسك بخنزير. وفي عمل آخر ارتدت الحجاب ووضعت على نفسها صدرا عاريا لعارضة الأزياء كيت موس Kate Moss. وفي العمل الثالث تصورت بالحجاب وكتبت عليه: "ليتني أملك عضوا ذكريا". إنها تظهر في صورها ممسكة على خصرها بأشياء بارزة, من فنجان الشاي, وحتى فرع الشجرة. كما رسمت امرأة مرتدية النقاب – وسمت اللوحة " أنا أحب الشق". وفي رسم آخر تظهر امرأة مسلمة على رأسها أذني أرنب, وأخرى ترتدي الحجاب وتمسك ببطيختين كما لو كانتا نهديها.

ولدت مايفل لأب بريطاني مسيحي وأم مسلمة من أصل كيني, وهي تعتبر نفسها مسلمة. ويبدو تفسيرها لأعمالها المثيرة للاستفزاز منطقيا, لكن المشكلة أن هذا المنطق يسحر الآذان الغربية فقط.

لقد فسرت أكثر أعمالها استفزازا قائلة "فكرت في كيفية تعلم المسلمين كراهية الخنزير, على الرغم من أن القرآن لم يدعو إلى ذلك, بل حرم أكله فقط لأسباب منطقية,". "لقد أمسكت الخنزير بشكل ودود لأوضح أني لا أحمل الضغائن. واستخدمته كرمز لقبول ثقافة الآخر." وعن عملها الذي يجمع بين الصدر العاري والحجاب قالت مايفل, إنها أرادت أن تظهر وجهي الإنسان – كما هو في الخارج, وكما هو في البيت.

لم تكن الفنانة لتحظى بمثل هذه الحرية في الإبداع في العالم العربي. واستطاعت مايفل, لحسن حظها, العمل بحرية نسبية لأنها تعيش في لندن. ورغم تهديد بعض المجهولين لها, عبر البريد الإلكتروني, بأنهم سيؤذونها, هي والمعارض الفنية التي تعرض أعمالها, إلا أن المنظمات الإسلامية في بريطانيا اكتفت بالاحتجاج الهادئ على اتجاهها للمزج بين الرموز الكريهة في أعمالها.

وقال أنيس التكريتي, المتحدث باسم المبادرة الإسلامية البريطانية, إحدى المنظمات الإسلامية في لندن "الإسلام منفتح بالفعل لمناقشة الأمور كافة,". "لكنه الآن في وضع دفاع متواصل. ولو كان الوضع أفضل لكان من الممكن الحديث فيه عن كل شيء, بدون خطوط حمراء, شريطة أن يكون ذلك على مائدة الحوار وعبر الحوار الثقافي."

أعلنت مايفل إنها لا تنوي الاستسلام للتهديدات, وأن رد فعل الجمهور على أعمالها كان إيجابيا. وفكرت في أن أعمالها تغضب الآخرين لأن في داخلهم انتقاد لحوار الثقافة الغربية والثقافة الشرقية في صورة حوار الطرشان.

"ترى الثقافة الشرقية في الحرية الجنسية قيمة غربية," وتقول شاكية "علموني في صغر سني أن الجنس حرام ومخجلذلك أتساءل اليوم لماذا تحر ِم الثقافة الإسلامية الحديث عن الجنس, في الوقت الذي يرى القرآن فيه حقيقة حياتية؟"

الخط الأحمر, يعلمه الجميع, هو الاستخدام المستفز لصورة النبي محمد. وستخبرنا الأيام إذا ما كانت محظورات من هذا النوع ستردع سارة مايفل, أم أنها في حاجة إلى شخص راشد ومسؤول إلى جوارها.

الفصل الثامن

شرق أوسط قديم

صعب أن تكون عربيا

تقارب احتمالات أن يصبح حوالي ثلاثين بالمائة ممن يولد في دولة عربية عاطلا أو جاهلا. الفساد في كل مكان. لقد اختفت أموال النفط في جيوب الأمراء ، التي كان من المفترض أن توفر الحياة الكريمة للمواطنين. أين الخطأ، وكيف يرتبط ذلك بالشرطي البسيط في الشارع؟

في مرحلة ما من الرحلة ستأتي اللحظة التي سيتوجه فيها سائق التاكسي المصري إليك ويسألك عن فرصة عمل في إسرائيل. هذه هي اللحظة التي تختفي فيها الكراهية لإسرائيل؛ لسلبها أرض فلسطين, مع وجود فرصة للسفر إلى إسرائيل والعيش فيها. يعاني معظم سكان الدول العربية من أزمة اقتصادية ولا يتوقفون عن البحث عن فرصة من أجل تحسين أحوالهم. وتعتبر إسرائيل "وادي السيليكون" بالنسبة لجيرانها في البحث عن عمل, رغم أنها ليست محبوبة سياسيا.

الصعوبات اليومية التي يواجهها المواطن العربي متنوعة, ولا ترتبط فقط بمشكلات العيش الأولية. فحاول أن تنشئ مدونة في سوريا تنتقد فيها النظام الحاكم, أو أن تقول كلمة سيئة عن ملك الأردن. احتج على طريقة تشكيل البرلمان السعودي الذي يعينه البلاط الملكي, أو نادي علنا بإقامة علاقات مع إسرائيل. في أفضل الأحوال ستثير ضدك المتهمون. وفي أسوأ الأحوال ستقابل ممثلي النظام الحاكم في غرف التحقيقات.

"الواسطة" أو "المحسوبية" كلمتان عاديتان في لغة الشارع العربي, معنى الأولى التوسط من أجل الحصول على خدمات جيدة, أو معرفة الشخص المناسب في الحكومة ليساعدك على تحقيق أمر ضروري. أما الكلمة الثانية: "المحسوبية" فهي المساعدة على الحصول على مكان عمل جديد, أو القبول في جامعة محترمة, ودفع المال لشخص معين هو الفاصل بين الرفض والقبول. كما أن الرشوة ليست بالكلمة السيئة. فورقة الخمس جنيهات ستسهل عبور الكمائن, أو ستمنع حصولك على مخالفة مرورية من شرطي مرور لا يحصل على الراتب الذي يستحقه.

نسبة البطالة في المجتمع العربي مرتفعة للغاية قد تصل إلى 30 بالمائة, رغم أن البيانات الرسمية تذكر رقما أقل بكثير. حددت منظمة العمل العربية التابعة للجامعة العربية, في شهر ديسمبر 2009, أن 40 بالمائة من العرب يعيشون تحت خط الفقر. وتصل نسبة البطالة بين الشباب في الدول العربية وشمال أفريقيا إلى 25.7 %, أي بزيادة 8 % تقريبا عن المعدل العالمي. رغم أمر النبي محمد المؤمنين ," اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد", لكن أزمات الحياة تصعب عليهم تنفيذ هذه الوصية في عصرنا هذا. والقليل فقط من الشباب هم الذين نجحوا في

الحصول على مصاريف التعليم الكاملة, في الوقت الذي يحصلون فيه من آبائهم هم وأخوتهم الصغار على المساندة الاقتصادية.

يذكر تقرير الجامعة العربية لعام 2008 أن نسبة الأمية لدى العرب 29.7%؛ أي أنه من بين 330 مليون عربي, هناك حوالي مائة مليون تقريبا لا يعرفون القراءة والكتابة, وتصل نسبة النساء من بينهم إلى 46.5 بالمائة. كما أن المعاش, أو التأمين الصحي ليس بالخدمة التي يتمتع بها كل مواطن.

يحصل الوضع الاجتماعي السيء للفرد على قليل من الاهتمام والتضامن بين الحكومات العربية. لقد وصف الرئيس السوري بشار الأسد نظرائه في القمة العربية بـ "أشباه رجال", الذين تمنوا انهيار حزب الله في حرب لبنان الثانية. لم تكن هذه هي السبة الوحيدة التي أطلقها زعيم عربي تجاه إخوانه. ففي الستينيات وصف الرئيس المصري جمال عبد الناصر حسين ملك الأردن بأنه "لا يساوي بيدوس على الذنب في عمان ، ينبح الكلب (الوزير أنطوني إيدن) من لندن." أما ملك السعودية سعود بن عبد العزيز فهوى النساء, وأطلق عليه عبد الناصر "ملك الجواري والحريم".

لم تكن الدول العربية موحدة أبدا في كيان سياسي واحد, لكن يظهر هذه الأيام الاختلاف فيما بينهم حول كل شيء مشترك. فعندما اجتمعت جيوش التحالف لمهاجمة العراق عام 1991, وبعدها في 2003, لم يحاول أشقاؤها منع ذلك لكنهم قدموا المساعدات للمعتدي. لذلك وصف الرئيس العراقي صدام حسين نظيره المصري حسن مبارك بـ"الفأر". ورفض مبارك من جانبه مطالب المتظاهرين بمحاربة إسرائيل, التي استخدمت كل قوتها ضد الفلسطينيين في الانتفاضة الثانية. كما رفضت لبنان منح الجنسية لـ250 ألف لاجئ فلسطيني بعد عشرات السنين من اللجوء. أما مئات الآلاف من العراقيين الفارين إلى الأردن, وسوريا بعد سقوط نظام حكم البعث, فقد حصلوا على تأشيرات للبقاء لفترة مؤقتة فقط, وطلب من بعضهم تقديم ضمانات مالية قبل الحصول على وضع لاجئ.

بدون خيار آخر هناك من تعامل مع المصير المر بإطلاق النكات على الحكام. "حافظ الفساد" لقب أطلقه السوريون على رئيسهم في حياته. كما كانت هناك أيضا سخرية من الرئيس المصري

حسني مبارك حيث قال " هذه ليست سوزان التي قصدتها", حسب النكتة, بعد أن أرسل صديقه رجل الأعمال الملياردير شخصا كي يقتل عشيقته السابقة المغنية اللبنانية سوزان تميم؛ وكانت النكتة تشير إلى زوجة الرئيس سوزان مبارك.

لماذا جاء العرب في القرن الحادي والعشرين وهم متخلفين اقتصاديا, وسياسيا, وعلميا بعد العالم الغربي؟ رغم أن أموال النفط قد ضمنت تقليص الفجوة بينهم وبين الغرب, إلا أن جزءا من الإجابة يكمن في حسابات بنوك الحكام, التي وضع فيها معظمهم أموال الذهب الأسود. غير أن هذا الأسلوب تطور في دول الخليج والعراق, إلى تحالف مع الشعب وأصبح قرصا مهدئا. فقد وعد الحكام المواطنين وعائلاتهم بالرفاهية, وحصلوا منهم في المقابل على عدم السؤال والانتقاد. هذه هي العصا والجزرة, أو حسب الرواية العربية سياسة "السيف والمنسف" والمنسف أكلة شعبية معروفة مكونة من اللحم والأرز, وتعتبر من الأكلات اليومية لدى أبناء القبائل.

غير أن هذا الأسلوب بدأ في التزعزع بعدما اتضح أن النفط ليس موردا مستقرا, وأن الأزمة الحادة في أسعاره تخفض من ميزانية المالية بشكل ملحوظ, وتدفعها إلى درجة التقشف. كما شجع الحاكم على الاستهزاء بالمواطن؛ فإذا كان عرشه مضمونا, وإلى جانبه جيش شرطي أصم, حراسه أوفياء كي لا يهتز عرشه, فإن الخطر الداخلي الذي من الممكن أن يتعرض له ليس بالكبير.

غير أنه في العقد الأول من الألفية الجديدة بدأ أمن الحاكم, في مكانه على القمة, في التصدع. ورغم تحسن وضع الحريات, فإن المواطن البسيط ينتظره طريق طويل حتي مجيء اليوم الذي يسعى فيه الحكام إلى عتبته وليس العكس.

البدون

يحكي دائما سعد بدر النسيم للسائلين عن سبب تعليقه جواز سفره على زجاج فاترينة محل البقالة الذي يملكه. فهو عربي استقر في أوكلاند, حصل في العقد الثالث من حياته على جنسية دولة ما؛ نيوزلندا, ذلك لأول مرة منذ مولده.

كان بدر في الماضي "بدون", وهي كلمة عربية معناها بدون جنسية. وهو لقب يطلق على المواطنين الذين لا يحملون جنسية رسمية, من أبناء القبائل الذين لا تظهر أسماؤهم في سجلات

سكان الدول التي يعيشون فيها. يعيش معظم البدون في الكويت, والبعض في السعودية, والإمارات العربية المتحدة. وعلى أعتاب القرن الحادي والعشرون قامت الدولتان الأخيرتان بمنح سكان البدون الجنسية وتقلص عددهم بشكل ملحوظ. لكن الكويت التي يعيش فيها ما يقارب المائة ألف بدون, مازالت ترفض الاعتراف بوجودهم, وتمنحهم الحكومة إقامات فقط, لكنهم لا يحصلون على بطاقة هوية, أو جواز سفر, وليس لهم حق الاقتراع. حتى إذا,ولدوا أو ماتوا, لا تقوم الدولة بتسجيلهم بشكل منظم. كما أنه محظور على خمسين ألف من أبنائهم الالتحاق بالمؤسسات التعليمية.

بعد أن اتضح له أن المستقبل لا يدخر له الخير في بلده, حصل بدر النسيم على جواز سفر مزيف, سافر به إلى هونج كونج, ومنها إلى نيوزلندا.

"اقتربت من الموظف في مطار أوكلاند, وقلت له "أنا من البدون, وجواز سفري مزيف". لم يصنعوا بي شيئا. كانت تلك أول مفاجئة بالنسبة لي, في المطار. ثم قال " وبعد أسبوعين منحوني وضع مقيم, ثم وجد عملا لدى تاجر فلسطيني, بعدها تزوج بفتاة مسلمة من أهل المكان, وبعد أقل من ثلاث سنوات حصل على الجنسية النيوزلندية. "وجدت دولة تقبلني,".

بدر النسيم حالة استثنائية؛ فمعظم أشقاؤه من البدون يكافحون من أجل الحصول على حقوقهم الأساسية في الدول التي ولدوا بها, لكن بدون فائدة. 14 مرة تم تغيير فيها القانون المدني الكويتي, كلها من أجل منع البدون من الحصول على الحق في أن يكونوا مواطنين عاديين. هم ليسوا مهاجرين من أجل العمل, أو متسللين. أصل معظمهم مثل السكان من أبناء البلاد. غير أن الحكومة تزعم أن معظمهم يحمل جنسية عراقية أو سعودية, ورثوها عن آبائهم وأجدادهم, وهم يرغبون في الحصول على الجنسية الكويتية فقط من أجل التمتع بخيرات الإمارة والانفتاح النسبي بها. وتزعم الدولة أن بعضهم من أبناء التجار القادمين من إيران, ومن الدول الآسيوية واستقروا بها قبل إعلان استقلال الكويت عام 1961.

ونظرا لكونهم مواطنين غير معترف بهم, تطاردهم الشرطة , ويصعب عليهم الحصول على أماكن عمل منتظمة. يعيش بعضهم بصعوبة بفضل مساعدات الجمعيات الخيرية. وخدم بعضهم في الماضي في الجيش والشرطة, لكن الدولة لم ترد لهم الجميل. ومنهم من هم من نسل

العمال السود الذين ساهموا بعرقهم في بناء اقتصاد الإمارة في سنوات ما بعد اكتشاف النفط. كذلك منهم من شارك في المعارك مع الجيش العراقي الذي قام بغزو الكويت في أغسطس 1990. وبعد نصف العام تقريبا, بعد طرد الاحتلال, تم إلقاء الكثير منهم في السجون بتهمة التعاون مع جيش صدام.

قال يوسف العنزي, كويتي بدون "التحق أبي بالجيش عام 1960 وخدم فيه حتى عام 1993", "شارك في عدة حروب, من بينها حرب تحرير الكويت, وحصل على نياشين, أحدها من الأمير الراحل. لقد اعتبر نفسه كويتيا ابنا للصحراء, لكنه اليوم يقضي أيامه هاربا من أماكن ارتكاز الشرطة, خوفا من القبض عليه."

يعتقد الباحثون ونشطاء حقوق الإنسان الكويتيين أن البدون هم ضحايا الإهمال الوظيفي. فقبل سنوات قليلة من حصولها على الاستقلال عن الانتداب البريطاني, وكذلك بعده, جمعت الدولة البيانات الشخصية لمواطنيها ووضعتها في سجل السكان. لكن موظفي تلك الأيام تركوا عن غير قصد عدد صغير من السكان الذين سكنوا في مناطق صحراوية نائية. كانت هذه هي قبائل الرحل, وفي تلك الأيام لم تكن الحدود قد تم ترسيمها بعد بين الدول. وهم من ناحيتهم لم يعلموا بعملية التسجيل, حتى وإن علموا, لم يقدروا جيدا أهمية ذلك لمستقبلهم. وبعد أن أفاقوا بعد عدة سنوات, كان قد فات الأوان. فالدولة تشك في أن يكونوا مواطني دولة أخرى يريدون استغلالها؛ وهم من ناحيتهم لم يكن لديهم الأوراق التي تثبت عكس ذلك. ظهر اسم "بدون" في نهاية الستينيات, بعد أن اتضحت أبعاد المشكلة. ومنذ ذلك الحين وهم يكافحون ليصبحوا مواطنين طبيعيين.

أصبحت مشكلة البدون واحدة من المشكلات الصعبة في مجال حقوق الإنسان في دول الخليج. وفي محاولة لحلها أعلنت دولة الإمارات العربية المتحدة عن منح الجنسية لعشرة آلاف منهم. بعدها قامت السعودية بتجنيس 45 ألف بدون. لكن الكويت, في المقابل, فقد كان العدد أكبر بكثير لذلك ترددت الحكومة في حل المشكلة بجرة قلم.

عدد سكان الكويت حوالي ثلاثة ملايين نسمة,ثلثهم فقط هم المواطنون الكويتيون. أما البقية, باستثناء البدون, فهم من العمال الأجانب, أو أصحاب الإقامات باختلافهم. ولو منحت

الحكومة الكويتية الجنسية للبدون, فإنها ستزيد العدد الرسمي للسكان بعشرة بالمائة وأكثر, وذلك بين عشية وضحاها. وهذه نسبة زيادة كبيرة من شأنها أن تثقل على البنية التحتية لأي دولة.

زيادة الدخل

لا يستطيع حماة القانون في بلاد النيل إنهاء الشهر؛ فهم لا يحصلون على المال في مقابل ساعات العمل الإضافية, لأنه محظور عليهم تأمين مباراة كرة قدم في مقابل أجر, أو الحصول على دخل إضافي من العمل في أماكن البناء أو البنية التحتية والحصول على بعض الجنيهات الإضافية خارج العمل الأساسي. فما الذي يمكن عمله بمبلغ 700 جنيه هو الراتب الشهري لرجل الشرطة.

طور رجال الشرطة المصريين, في ضائقتهم هذه, أساليب خاصة من أجل زيادة الدخل. فمن يزور المدن المصرية الكبرى سيلاحظ بالطبع وجود شرطي على كل رأس شارع. فهم يقفون هناك فرادى أو جماعات, في الغالب غير مسلحين, يرتدون الزي الأسود, أو الأبيض, يبتسمون للسائحين, حتى وإن لم يفهموا لغتهم. ودخلهم الإضافي يكون على حساب سائقي التاكسي. فعندما يرغبون في ذلك, يقومون بإعطاء مخالفة لسائق التاكسي, وسرعان ما يقوموا بإلغائها بعد أن يضع سائق التاكسي علبة سجائر في يد الشرطي.

قررت القيادة الشرطية في أحد الأيام فرض النظام في المدينة, وبذلك أيضا زيادة دخل العاملين فيها بشكل منتظم؛ حيث أعلنت الحرب على الباعة الجائلين الذين يقفون في شوارع المدينة المختلفة, خاصة في الأحياء الراقية مثل مصر الجديدة, وأحياء الجيزة الشعبية. هم أولئك العاطلون والفقراء الذين وضعوا بضاعتهم على جوانب الطريق, ويعرضون فيها للمارة مختلف البضائع من قهوة وشاي, وبعض المأكولات البسيطة, ولقد قارب عددهم نحو 3000 بائع, يعملون جميعا بدون ترخيص. زعمت الحكومة أنهم يضايقون حركة مرور السيارات, والمارة من المواطنين.

وفي صباح يوم صيفي خرج الآلاف من رجال الشرطة إلى الشوارع معهم أوامر الإخلاء. دفع لهم كل بائع المال "بقشيش", ليبقي على الرصيف, مع بضاعته. لقد وجد رجال الشرطة سببا رسميا من أجل تبرير وجودهم هناك. أما الذين لم يدفعوا, كما هو منتظر منهم, تم تطبيق أمر الإخلاء عليهم.

المحبط من سماع المصير البائس للبائعين الذين تم إخلائهم بالقوة, سيسعد بأن يكتشف أن جميعهم تقريبا عادوا إلى نفس المكان بعد أسبوع. ولم يكن رجال الشرطة هناك ليطردوهم ثانية, كما أنهم لم يهتموا بذلك في حقيقة الأمر؛ فهم مشغولون بعد المال الذي حصلوا عليه.

العرسان يحصلون على تسهيلات

ليس في إسرائيل فقط تملأ الجمعيات الأهلية الفراغ الذي تهمله الدولة. فقد قامت جمعية خيرية دينية بتزويج 600 رجل وامرأة من الأسر المعوذة في حفل جماعي أقيم في مدينة جدة السعودية. جلس الشباب جنبا إلى جنب مرتدين العباءات التقليدية, مع خنجر صغير في غمده, وجاءوا رجلا رجلا لعقد مراسم القران. الزوجات لم يظهرن على الكاميرات, لكن جلسن في قاعة أخرى مع أفراد العائلة الذين يحتفلون بهن. قامت الجمعية بتمويل الحفل, وأعطت الأزواج الجدد هدايا, ومبلغا من المال ليبدأوا به حياتهم. أنفقت الجمعية على الحفل مبلغ 184 مليون ريال. وكان الغرض من هذه المبادرة مساعدة الرجال على التغلب على نفقات الزفاف وشراء المستلزمات الأساسية للبيت؛ التي تعتبر عائقا يضطر الكثيرون بسببها إلى تأجيل الزواج. وصلت قيمة الهدايا التي حصلت عليها العروس فقط, لمن يهمه الأمر, إلى 18 ألف ريال.

حفلات الزواج الجماعي ظاهرة جديدة نسبيا في الدول العربية؛ ففي السنوات الأخيرة جرت العشرات من هذه الحفلات في الأردن, ومناطق السلطة الفلسطينية, ودول الخليج. وفي لبنان أشرفت حركة حزب الله على بعض هذه الحفلات. "ألف ليلة في ليلة واحدة" هكذا سماها الصحفيون في السعودية.

هناك قلق متزايد, وراء هذه المبادرات, من تصاعد ظاهرة تأخر سن الزواج في المجتمع العربي. ووجد في إحصائية جرت في السعودية أن 1.8 مليون امرأة, عشر السكان تقريبا, عانس, وهي كلمة تطلق على الفتاة التي تأخرت في الزواج. ولقد ذكر من شاركن في هذه الإحصائية أن السبب الرئيس لتأجيل الزواج هو رغبتهن في استكمال دراستهن. أما الرجال, في المقابل, فقد ذكروا أن الضائقة الاقتصادية, والتضخم, والبطالة, هي الأسباب الرئيسة لتأخر زواجهم. والواضح من أولئك وهؤلاء, أن تأخر سن الزواج يؤخر الإنجاب.

متى تعتبر الفتاة عانسا؟ هذا العمر ليس حسابيا بل نسبيا يتغير من مكان إلى آخر حسب المكان وروح العصر؛ ففي مصر تعتبر الفتاة التي بلغت 25 سنة ولم تتزوج عانسا, إذا كانت من سكان القرى, لكن يرتفع هذا السن إلى 35 سنة إن كانت من سكان المدينة. وصل عدد الفتيات التي لم تتزوج في بلاد النيل حسب هذا التعريف؛ إلى تسعة ملايين, من إجمالي 40 مليون امرأة. ولقد أعلن المركز القومي للسموم في بداية عام 2010 أنه يسجل في مصر شهريا بين 50-60 حالة انتحار في المتوسط, بسبب عدم العثور على زوج, أو الخيانة الزوجية.

"العنوسة" ليست ظاهرة تتميز بها مصر لكنها موجودة أيضا في كل من الكويت, وقطر, والبحرين, والجزائر, والإمارات العربية المتحدة. ولقد وجدت الإحصائية التي أجرتها وزارة الشؤون الاجتماعية والصحية في بيروت أن 83.2 بالمائة من العوانس اللبنانيات هن ما بين سن 25-30 سنة. وصلت نسبتهن في سوريا إلى 60 بالمائة. وفي الأردن,وجد أن 65 بالمائة من الرجال في سن 24-29 غير متزوجين, في مقابل 67 بالمائة من النساء أعمارهن ما بين 20-24 غير متزوجات.

أدى تأجيل سن الزواج والأزمة الاقتصادية لدى لأزواج إلى ظهور مشكلات أخرى فرعية. فبالإضافة إلى حفل الزواج الجماعي, اضطر الشباب إلى التوجه إلى "الزواج العرفي". وهو زواج حلال, غير أن فترته تكون أقصر نسبيا ومن الممكن أن يكون في السر. ورغم أن الزوجين متزوجان شرعا إلا أنه ليس بالضرورة أن يقيما معا, وبذلك يتم توفير بعض النفقات الاقتصادية. ولأنهما متزوجان فمسموح لهما بإقامة علاقات زوجية كاملة. وعند الانفصال يتطلقا وبعدها يذهب كل منهما إلى حال سبيله. إلى جانب ذلك بدأ في الازدهار قسم "الخاطبة". وفي دولة الإمارات أنشأت الحكومة هيئة حكومية للتزويج اسمها "علاقة حب". كما بدأت المجلات ومواقع الإنترنت بنشر إعلانات التعارف للرجال والنساء.

"فتاة, 29 عاما, طالبة, صاحبة قوام ممشوق," كتبت فتاة أردنية في باب الزواج في مجلة زهرة الخليج, "جذابة, مناسبة للحياة الزوجية, تسكن في العراق, ترغب في الزواج بفلسطيني, لبناني, أو سوري يعيش في الإمارات, لا يزيد عمره عن 40 سنة, مؤدب, ظريف, مثقف, ميسور, يقدس الحياة الزوجية, ويحترم المرأة."

أدت النوايا الطيبة إلى ظهور نباتات شيطانية. فقد تسلل الوسطاء معسولو اللسان وأصبح مشروعا تجاريا. وأصبح يتراوح متوسط أجر وسيط الزواج السعودي العادي ما بين 5.000 ريال, و5.200 ريال. أما المتشددون فقد حصلوا على مبالغ مضاعفة. ووصفوا أعمالهم أنها لوجه الله, لكنهم استغلوها لمصلحتهم الشخصية. أيبدو ذلك مألوفا؟ فكلنا نعيش في الشرق الأوسط.

الأطفال فرحة الآخرين

الدولة توزع الواقي الذكري مجانا, ألم تكونوا لتأخذوه؟ أمام هذا التخبط وقف الأزواج الأردنيون بعد أن قررت حكومتهم توزيع وسائل منع الحمل على نفقتها الخاصة. لم يكن ذلك جزءا من برنامج مكافحة مرض الإيدز, لكن حملة شعبية لتخفيض عدد المواليد. حوالي مليون ونصف المليون واقي ذكري للاستخدام المتكرر تم توزيعها مجانا في المؤسسات الحكومية, والجامعات. ولقد كلفت هذه المبادرة دافع الضرائب الأردني عشرات الآلاف من الدنانير , وهو مبلغ ضئيل بالنسبة لهذه المهمة القومية الكبيرة.

تحيرت الحكومات العربية لسنوات طويلة حول إذا كان من المفترض أن تتدخل في التخطيط الأسري. فنصيحة الأب والأم بإنجاب عدد أطفال أقل مما يريدانه هو تدخل في الصلاحية التقليدية للأب. كما إنها تفتت من عضد قيمة اجتماعية مهمة ترى في العائلة كثيرة الأطفال حصنا منيعا. فلا توجد في معظم الدول العربية إعانة الشيخوخة, لذلك يكون الأطفال بمثابة ضمان اجتماعي بالنسبة لآبائهم. فعند سن الشيخوخة, ينتظر من الأبناء أن يساندوا الأب, ويراعوه, ويحرصوا على تلبية احتياجاته. وكلما زاد عدد الأبناء ستكون المهمة أسهل بكثير. غير أنه في العقود الأخيرة تبلورت لدى الزعماء فكرة أنه لا مفر من السيطرة على الزيادة الطبيعية للسكان, لأنها تؤثر على النمو الاقتصادي. ولو استطاعت الدولة أن تطعم أفواها أقل, فسيتم توجيه الميزانيات التي سيتم توفيرها إلى التعليم والتنمية.

تصل الزيادة الطبيعية في الأردن في سنوات ما قبل هذا المشروع إلى خمسة بالمائة في المتوسط. وهي نسبة مرتفعة للغاية, لكن عدد سكان الدولة حوالي خمسة ملايين نسمة فقط. لذلك فهناك فرصة في أن تنجح هذه الحملة في تقليص عدد المواليد مع الوقت. وحسب إحصاء حكومي أجرته عام 2007, فإن أكثر من خمس سكان المملكة يعيشون تحت خط الفقر, يعاني

14 بالمائة منهم من نقص في متطلبات الحياة الأساسية, مثل السكن. وتم تخصيص مبلغ 420 ألف دينار من ميزانية عام 2008 لهذا المشروع من أجل تمويل ندوات, وورش عمل في المراكز الصحية بأنحاء المملكة, وكذلك الإعلانات التلفزيونية, والمواد الدعائية.

,كتب على الملصقات " ِ خطط الآن لأسرتك الصغيرة والسعيدة. تخطيط الأسرة يساعدكم على الحياة بصورة أفضل بكثير,".

حاولت مصر أيضا الحد من الزيادة الطبيعية للسكان, لكن هذه المهمة فيها أصعب وأعقد بكثير. ولقد كشف وزير التضامن الاجتماعي الأسبق الدكتور على مصيلحي أن الحكومة درست إمكانية منع العائلات, عن طريق القانون, من أن يحصل الطفل الثالث وما بعده على الدعم الحكومي. وهو نظام يقوم بدعم الأسر كثيرة الأطفال بالمنتجات الأساسية بأسعار مخفضة للغاية, عبر بطاقات تموينية خاصة. كما أشار الوزير إلى أن دعم المواليد قد سمح للعائلات الفقيرة بأن تحول إنجاب الأطفال إلى أداة للحصول على مال الدولة. وإن الميسورين في المجتمع المصري, على حد قوله, يكتفون بطفلين في المتوسط. أما العائلات من الطبقة المتوسطة فتنجب ثلاثة حتى خمسة أطفال, والفقراء ينجبون ما بين سبعة وتسعة أطفال.

كما استشهد الوزير المصري بحديث للنبي محمد عليه الصلاة والسلام قال فيه أن العلم هو أن "لا الكم, ولا الجهل, ولا المرض, لكن العلم"[18].

شهدت مصر أوقات كانت فيها الزيادة السكانية هدفا قوميا. فقد اعتاد الرئيس جمال عبد الناصر تهدئة المصريين بقوله إن الزيادة الطبيعية للسكان ستعمل من تلقاء نفسها ضد إسرائيل, وإنها ستبتلعها في منطقة الشرق الأوسط. ومرت السنون, وأصبحت نصيحة عبد الناصر القومية لعنة. ففي كل 23 ثانية يولد مصري, ومصر أكبر دولة عربية على الإطلاق, ويبلغ عدد سكانها حوالي 80 مليون نسمة, وعلى الرغم من أن الزيادة الطبيعية تبلغ 2 بالمائة سنويا, إلا أنه يصعب على الحكومة تلبية كافة احتياجاتهم الأساسية, ومن حين لآخر يظهر نقص في الخبز, أو الوقود, أو اللحم, وتوفيرها بأسعار متساوية لجميع السكان.

---

[18] لم أجد أصل هذا الحديث. (المترجم)

حذر الوزير مصيلحي قائلا "إن نسبة الزيادة السكانية قنبلة موقوتة, من شأنها أن تؤثر على مستقبل مصر,". "هكذا يتسرب الأطفال من التعليم إلى سوق العمل. وهذه جريمة قانونية وإنسانية. فالتعليم أهم شيء. وهو سبب تقدم الأمم. وبدونه لن يحدث تقدم في المجتمع."

نشرت أقوال الوزير على المواقع الإخبارية المصرية على شبكة الإنترنت, وحصلت على ردود فعل متنوعة. ومن بين هذه الردود رد لشخص يدعى عبد الله, لم يتردد في توجيه الانتقاد الشديد لوزير التضامن الاجتماعي.

"ليحرمك الله من الأطفال, سيدي الوزير, وقتها ستشعر بالفارق. أنت وأمثالك سبب الفساد. البلاد غنية بالموارد الطبيعية ولا ينقصها شيء سوى الضمير, والرغبة الطيبة في الإدارة السليمة. أزمة السكان ذريعة يستخدمها كل فاسد للسرقة والنهب ولإبعاد الرزق عن الشعب المسكين."

المخرج والغسيل القذر

سبعة ملايين برميل نفط تنتجها يوميا الآبار السعودية, وتدر على خزينة الدولة عشرات المليارات من الدولارات سنويا. بالإضافة إلى تمتع المملكة بدخل إضافي من قطاع السياحة, خاصة موسم الحج. فعلى مدى أيام الحج, التي تبدأ مع نهاية العام الهجري, يزور مكة حوالي مليونان ونصف المليون مسلم من جميع أنحاء العالم. بالنسبة لهم هم يؤدون فريضة لكن بالنسبة للحكومة السعودية فذلك مصدر آمن للدخل. يعيش حوالي عشرة بالمائة من سكان المملكة, حسب المعطيات الرسمية, تحت خط الفقر, ومتوسط راتبهم الشهري حوالي 1.200 ريال سعودي. وهذا دليل على نسبة الفقر المرتفعة في الدولة الغنية بالنفط.

لا تنجح الحكومة في تخفيض هذه النسب, ويبدو في بعض الأحوال أنها لا ترغب في ذلك. إليكم قصة قصيرة. بعد عامين من حرب العراق ارتفعت أسعار الأرز في المملكة بنسبة ثلاثين بالمائة. وكانت الأسعار في العالم كله قد شهدت ارتفاعا, لكن في السعودية وسائر الدول العربية تم الإحساس بذلك على وجه الخصوص بسبب ارتفاع نسبة الفقر والاستهلاك الزائد للسلع الأساسية. فالأرز على سبيل المثال مكون أساسي على كل موائد المجتمع القبلي؛ فهو يستخدم في مأكولات اللحم, والسمك, والطيور وكذلك لحم الجمال. ويباع في السعودية حوالي 19 نوعا من الأرز, أشهره المستورد من الهند والولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ظل ذروة أزمة ارتفاع الأسعار التي شغلت الجميع, ظهر وزير التجارة والصناعة عبد الله هاشم يماني في التلفزيون الحكومي, وفي رد على سؤال: ماذا تنوي الحكومة فعله مع ذلك الأمر؟, نصح الوزير المواطنين بشراء أنواع أرخص من الأرز.

وفي محاولة لتجميل الوضع الذي أصاب المجتمع السعودي, زعم ترك بن خالد السديري, رئيس هيئة حقوق الإنسان, أن الفقر موجود في القرى النائية فقط. أراد السديري الدفاع عن الحكومة لكنه أساء لها. فيظهر من كلامه أن الفلاحين الكادحين الذين يعيشون حياتهم ببساطة يربكون بيانات معدلات الفقر؛ أما المدينة والحضر في المقابل, فإنها تضمن لساكنيها فرص أفضل للعيش, لو جاءوا فقط ليقطفوا ثمارها.

سعودي يدعى طراد أسمري اعتقد أن النجاح ليس فقط مسألة جغرافية, وقرر دراسة إذا كانت المدينة توفر حقا لأبنائها جميع احتياجاتهم. فقام بتصوير فيلم وثائقي قصير عن صديقه أحمد, حارس أمن في أحد مراكز المدينة التجارية في مدينة جدة. أحمد راتبه الشهري 1,200 ريال, عليه أن ينفقها على والديه, وزوجته وأطفاله الخمسة. أعطى أسمري الفيلم اسم "راتبي ألف ريال", ثم رفعه على موقع الملفات يو تيوب.

وفي الفيلم المصور على هيئة تقرير صحفي, أوضح المخرج الهاوي كيف يقضي صديقه 12 ساعة في العمل يوميا, وكيف يناور براتبه الصغير بين الحاجة إلى شراء ملابس, والتأمين الصحي, والكتب الدراسية لأطفاله.

قال أسمري, "أنتجت هذا الفيلم من منطلق الشعور بالمسؤولية تجاه وطني," "أردت أن أظهر أن الفقر ليس قاصرا فقط على المناطق النائية. هناك فقراء في المدن, وبنسب مرتفعة."

إذا لماذا يصور السعوديون على أنهم مبذرون أصحاب جيوب منتفخة؟ لأن العالم يلاحظ, عن خطأ, السعودي المتوسط مع أمرائه الذين يبلغ عددهم حوالي سبعة آلاف من أبناء العائلة المالكة, معهم مال كثير وينفقون على الموضة البراقة في لندن, وباريس ونيويورك. وصورهم وهم يفرغون أرفف كاملة في فرع فيرزتشي, أكثر جاذبية من تلك التي يحاول أحمد فيها البحث عن أسعار رخيصة لإطعام أطفاله. هذا هو الفقر: يعاني من قلة الاهتمام, ولا يتم تصويره بشكل جيد, وأسوأ من ذلك ليست لديه علاقات عامة طيبة.

بين الدم والدم

مائتان عراقي على الأقل, معظمهم من الشباب ماتوا منذ منتصف الثمانينيات وما بعدها, ذلك بعد أن حصلوا على جرعات دم ملوثة بفيروس الإيدز. هذه الجرعات اشترتها وزارة الصحة, في حكومة صدام حسين, من شركة فرنسية. كان الضحايا في ذلك الوقت من الأطفال أعمارهم بين نصف السنة و12 سنة, كانوا يعانون من مرض الهاموفيليا (نزيف الدم), وكانوا في حاجة إلى تبرع بالدم. ولقد أرسلت عبوات مشابهة إلى كل من تونس والجزائر وليبيا.

كان صدام حسين في سنواته الأخيرة, خاصة منذ حرب الخليج عام 1991, عدوا للغرب؛ لذلك عانت بلاده من عقوبات اقتصادية صعبة فرضها عليه المجتمع الدولي. لم تضر هذه العقوبات عائلة صدام لكنها أضعفت الاقتصاد العراقي للغاية, وأضعفت مستوى الخدمات المقدمة للمواطنين. ولم يكن هناك من يراعي العائلات التي حلت بها هذه المصيبة.

ومع سقوط نظام صدام هبت عناصر شعبية في بغداد للمطالبة بتعويضات عن هذه الكارثة. هكذا وجد سعيد إسماعيل حقي -رئيس الهلال الأحمر العراقي- أنه يخوض بمفرده هذه المعركة من أجل اعتراف الشرطة الفرنسية بالمسؤولية عن موت الأطفال. كان أمل المرضى في تمويل علاج مرض الإيدز الذي أصيبوا به من جراء هذه الجرعات من التعويضات الفرنسية, وطالبوا بدفع مليون دولار لكل مريض, لكنهم تلقوا وعدا مخزيا بمبالغ تتراوح بين خمسة آلاف دولار وخمسة وعشرين ألف دولار للمريض.

قال حقي غاضبا "أهذا ما يساويه الإنسان؟ لأنه عراقي؟", "على العالم المتحضر, خاصة فرنسا, أن تعترف بمعاناة المرضى وأبناء عائلاتهم. هل هذه هي الحضارة الغربية؟"

تحدث سعيد حقي الذى عاني الكثير في السنوات الأخيرة منذ بدأت القضية, من أمراض القلب. كان من حصل على الجرعات في البداية 186 طفلا فقط. غير أنهم كبروا وتزوجوا, وأصابوا بعض أزواجهم وأطفالهم بالعدوى, بذلك أصبح عدد المرضى 238 بريئا. ويموت كل عام في المتوسط طفلان أو ثلاثة أطفال من الذين أصيبوا بالعدوى. والثمن الباهظ دفعه خالد علي جبر, أب لطفل مريض بمرض الهاموفيليا حصل على الدم الملوث؛ حيث فقد خمسة من أبنائه أصيبوا بالعدوى من بعضهم البعض.

دكتوراه للبيع

سوق المريدي في بغداد الذي يعرض وثائق مزيفة للطالبين, يعج بالزبائن بشكل يومي. من الممكن الحصول هناك على بطاقات هوية, جوازات سفر, رخص قيادة, بل وحتى على شهادة دكتوراه. الحصول على أي وثيقة تحمل اسم صاحبها وصورتها هو مسألة ثمن. شهد المزورون مع اندلاع الحرب الأهلية في العراق, بعد الإطاحة بنظام حكم البعث, ازدهارا كبيرا. فواقع الحياة الصعب كان يلزم المواطن البسيط بالتسلح بوسائل مختلفة للبقاء على قيد الحياة. فالهوية المستعارة من الممكن أن تنقذ حياة إنسان في الحواجز الأمنية التي تنصبها الميليشيات المسلحة. فلو أجاب شخص مثلا أن اسمه علي أو حسين, أو عثمان فذلك يثير الشك على الفور بأنه شيعي, ومن الممكن أن يلقى حتفه في حاجز أمني تقيمه إحدى الجماعات السنية.

غير أن الاسم لم يكن المشكلة الوحيدة. فمن المتبع في العراق ذكر المهنة في بطاقة الهوية. ولقد كان الإرهاب يستهدف ليس فقط أبناء الطوائف الأخرى لكن أيضا كل من يمكن أن يسهم مستقبلا في بناء الدولة. هكذا وجد الأطباء, والمهندسون, والأكاديميون والصحفيون أنفسهم على قائمة اغتيالات الفصائل المتمردة, إلى جانب المدنيين من الشيعة والجنود الأمريكيين. لذلك سارع البعض إلى أرصفة سوق المريدي. وكانت المهن التي عليها إقبال كبير بين زبائن مزيفي السوق هي: سائق, طالب, أو صاحب عمل صغير.

حسين عبد الخالق, على سبيل المثال, سائق شاحنة يبلغ من العمر 26 عاما من بغداد. ونظرا لأن المتمردين وقفوا في تلك الفترة متخفيين في زي عسكري, فقد حصل السائق الصغير على وثيقة تأمين له.

قال "لدي وثيقة لحاجز الشرطة العراقية, ووثيقة للعصابات الإسلامية, ووثيقة للميليشيات. كل واحدة حسب الحالة والمنطقة,".

هكذا تنقل الشاب السني بوثائق تحمل اسم حسين موسوي, تظهر بشكل واضح أنه من الطائفة الشيعية. وكذلك وثيقة باسم أحمد عمر الضليمي, أي سني خالص. وعندما كان يلاحظ وجود حاجز للميليشيات الكردية, كان يخرج وثيقة ثالثة, اسمه فيها فريد خالد. بعد ذلك بسنوات, عندما هدأت الأمور قليلا, عاد ليحمل وثيقة هوية باسمه الأصلي.

نبات أخضر, خط أحمر

قررت حكومة اليمن الخروج في معركة شعبية ضد نبات القات, واكتشفت أن الواقع أقوى بكثير من أي قانون. فاستخدامه لم ينخفض لكنه شاع بين النساء والأطفال.

, يعتبر نبات القات منذ مئات السنين عنصرا رئيسا في الحياة الاجتماعية اليمنية, خاصة في الأعياد والمناسبات. فهم يعتادون التجمع في بيوتهم مع الأصدقاء, وتدخين النرجيلة ومضغ النبات الأخضر لساعات طويلة. تسمى هذه العادة "تخزين", أو "تخزينة", حيث يقوم من يستخدمها بالاحتفاظ بالنبات في فمه لفترة طويلة, ذلك بعد مضغه. هذا في الواقع نوع من إدمان شعب كامل لمنتج يعتبر من المخدرات. استخدام هذا النبات, في إسرائيل كذلك, موجود بين المهاجرين من يهود اليمن. وتباع هذه النباتات في الأسواق بأسعار منخفضة وبشكل قانوني.

بينما يقتصر الاستخدام في إسرائيل على بضعة آلاف من مهاجري اليمن, فهو يعتبر في موطنهم الأصلي رياضة وطنية. فوفقا للتقديرات في صنعاء فإن حوالي 90% من الرجال يستخدمون القات بكميات مختلفة. وجعله حوالي سبعة ملايين مواطن (من إجمالي 20 مليون نسمة) جزءا من عاداتهم اليومية. وتتراوح تكاليف الاستخدام اليومي له للفرد, بين 500 ريال يمني (حوالي 18 جنيها مصريا), و5.000 ريال يمني (حوالي 180 جنيها مصريا). ومن الممكن أن يصل سعر أفضل الأنواع, ويسمى "همداني", إلى 120 جنيها للربطة. وينفق اليمنيون سنويا حوالي أربعة مليارات دولار أمريكي على شراء هذا النبات الأخضر.

يحتل نبات القات حوالي 1.2 مليون فدان من الأراضي الزراعية في اليمن. وينمو فيها 40 مليون نبات على الأقل في أراضي الدولة. ويباع النبات في كل مكان تقريبا – في الأسواق, على الأرصفة, في السيارات المتنقلة بين الأحياء, وكذلك في البيوت الخاصة. ذلك قطاع كامل يعول الفلاحين, والتجارة بل والمهربين من السعودية والصومال المجاورتين. كما أن الحصول عليه أمر متاح وسهل ولا يتطلب أي خبرة من أصحابه. ويعتاد الشباب العاطل وكذلك الشيوخ الذين لا عمل لهم تجربة حظهم في بيع القات في الأروقة والنواصي. لكن رغم الشعبية الكبيرة للقات لدى الشعب إلا أن استخدامه ليس من المصلحة الوطنية لليمن. فالأراضي التي يزرع فيها تستهلك كميات كبيرة من المياه. ونسبة الإصابة بمرض السرطان بين اليمنيين كبيرة وفي تزايد مستمر,

ذلك على ما يبدو بسبب الأسمدة الكيماوية المستخدمة في زراعة النبات. ولقد أشار العلماء إلى وجود علاقة بين استخدام القات وسرطان الفم. وزعم أطباء وزارة الصحة في صنعاء أن عادة المضغ والجلوس معا حتى الساعات الأولى من الصباح, رغم أنها تشجع على الصحبة, إلا أنها تضر بأداء الجسم في اليوم التالي. استخدمت جارات اليمن القات لتبرير رفضها ضم اليمن ضمن أسرة مجلس التعاون الخليجي, الذي يضم في عضويته كل من السعودية والإمارات الخليجية المجاورة لها؛ التي تعتبر القات من المواد المخدرة.

قرر الرئيس علي عبد صالح المساهمة بنفسه في الحملة الشعبية ضد النبات الأخضر. أعلن صالح أنه توقف عن مضغ القات. وقال مقربون منه إن الأطباء الألمان الذين درسوا تأثيرات القات قالوا إنه مخدر يؤدي إلى الإدمان ونصحوه بالتوقف عن استخدامه. وحسب قول المقربين منه فإن الرئيس تخلى عن العادة المعروفة بأن يحل ضيفا على بيوت المواطنين في مختلف المحافظات ويتناول معهم القات, ويدخن النرجيلة ويستمع إلى مشكلاتهم.

وقالوا نيابة عن الرئيس "لن تقام هذه الاجتماعات إلا في حالات الضرورة," "ذلك بغرض الحفاظ على وقت الرئيس الثمين." كما أكد مستشاروه أن بابه سيبقى مفتوحا أمام الجميع.

لكن هناك شك في ما إذا كانت تستطيع الحملة الإعلامية التي لا يصاحبها إصدار تشريعات وفرض للقانون؛ أن تستأصل هذه العادة القديمة من قلب (فم) الشعب. لم يصغ الشعب لمحاولة الحكومة تحديد بيع القات في الأسواق فقط. فقد أشارت معطيات تلك الفترة أن زراعة القات ترتفع سنويا بنسبة 12%. ويعلمون في اليمن جيدا أنه لا توجد حملة قادرة على وقف هذه العلكة الوطنية.

نيران الثورة

خرج محمد البوعزيزي, في ذلك اليوم, إلى السوق ليبيع الخضروات والفاكهة. البوعزيزي, شاب جامعي تونسي, لم يحصل على عمل يعول به أمه وأخوته الخمسة. قام في هذه الضائقة بشراء عربة وتوجه لبيع بضاعته في سوق بلدته, سيدي بوزيد. لكن جاء المشرفون على السوق وطلبوا منه رخصته. لم يكن بوعزيزي يملك رخصة, فصودرت بضاعته. غضب غضبا شديدا, وكرد فعل على ذلك تلقى صفعة على وجهه من المشرفة. ذهب بعدها ليطالب بالبضاعة المصادرة لدى المحافظ, لكن أحد لم يستجب لتوسلاته. لم يشعر البوعزيزي بنفسه من شدة الغضب والإحباط فقام بإشعال النيران في نفسه, أمام أعين الموظفين في المحافظة, وأصيب إصابات بالغة في جميع أنحاء جسده.

اندلعت الاضطرابات في المدينة. واصطدمت جموع الناس بقوات حفظ النظام, وهاجمت مكاتب الحزب الحاكم في المحافظة, وأضرمت النيران في سيارات الشرطة, وعربات القطارات. محمد عامر, متظاهر عمره 18 سنة, تلقى رصاصتين في صدره ومات على الفور, بعد أن ألقى زملاؤه الزجاجات الحارقة تجاه رجال الشرطة؛ بعدها بعدة أيام تسلق حسين ناجي, عاطل 25 سنة, عامود كهرباء, وصرخ بصوت مرتفع "كفي للقمع! كفي للبطالة!" ثم صعقه التيار الكهربي ومات.

هدأت عاصفة العنف, التي اندلعت في الأسبوعين الأخيرين من عام 2010 في المدن التونسية, بعد أن سقط فيها في شهر واحد عشرات القتلى وهرب الرئيس التونسي إلى خارج البلاد بعد 23 سنة قضاها في الحكم. في "ثورة الياسمين" التونسية أطاح الشعب لأول مرة بزعيم عربي. فقد كان ذلك احتجاجا شعبيا, أساسه الضائقة الاقتصادية, لم يقم به الضباط أو الحركات الجهادية. وليس فقط أن الدوائر الأصولية –أقوى معارضة في العالم العربي- لم تسانده لكنهم شاهدوها من بعيد.

كانت الإطاحة ببن علي قمة نضال العالم العربي من أجل الحصول على حقوقه الأساسية المسلوبة. فكان من النادر, حتى تلك الأيام العاصفة, مشاهدة تظاهرات في الشوارع التونسية, ناهيك عن انتقال العنف إلى المحافظات الأخرى. وسرعان ما كان يتم قمع أي تعبير عن

الاحتجاج, وكانت تفرض الرقابة على الإعلام. وكان يتم استبعاد الصحف التي حاولت توجيه أي انتقاد لنظام الحكم.

كان ما أبعد الرئيس التونسي عن وطنه في نهاية الأمر المتظاهرون الشباب, واجه الكثير منهم -متعلمين أمثال محمد البوعزيزي- صعوبة في الحصول على عمل واضطروا إلى البحث عن عمل غير مناسب لقدراتهم. كان هؤلاء الشباب في بداية عهد حكم بن علي أمل تونس وأكثر طبقة ساندته. لكن الوضع الاقتصادي تدهور في ذلك الوقت, وقيدت الحريات, كما لو لم يكن كل ذلك كافيا, فظهرت حالات فساد بشكل كبير من قبل أفراد عائلة الرئيس. وكانت الرشوة في قلب أجهزة الخدمات العامة وسيطرت على التعاملات بين الجهات الحكومية والمواطنين.

كشف موقع التسريبات ويكيليكس, الذي قام بنشر برقيات دبلوماسيين أمريكيين خدموا في أماكن مختلفة في العالم, أن السيدة الأولى, زوجة الرئيس, ليلى طرابلسي, قد نقلت إلى ملكيتها أراض وباعتها بعد سنوات بأسعار مرتفعة. كما قام صهر الرئيس بشراء 17 بالمائة من أسهم أحد البنوك التي تملكها الدولة, وبعد فترة قصيرة بيع البنك في السوق الخاص, وباع صهر الرئيس نصيبه وحقق مكاسب كبيرة.

كانت هناك سنوات أحسن فيها بن علي لمواطنيه, وهم أطاعوه في المقابل. ساهم بن علي كثيرا, منذ أن خلف سابقه الحبيب بورقيبة عام 1987, في تطوير البنية التحتية في جميع أنحاء البلاد. وحقق الاقتصاد, في بعض الأوقات, نسب نمو تصل إلى خمسة بالمائة في المتوسط, رغم ارتفاع نسبة البطالة. كان بن علي, كسابقه بورقيبة, تلميذ التنوير الفرنسي, عمل على تقوية العلمانية في بلاده. وشعر النساء بالحرية في ارتداء ما يرغبن من ملابس, والخروج وقتما يشئن, وحظرت الدولة أي تعبير سياسي عن التشدد الديني, كما اعتبرت الحركة الإسلامية خارجة على القانون.

ومع اندلاع الاضطرابات في سيدي بوزيد, توجه بن علي إلى الشعب واتهم جماعات هامشية في المجتمع بإشعال النيران بدون داع. بعدها تفرغ لتصفية الحسابات, فأقال في البداية وزير الإعلام, الذي لم يحرص, على حد زعمه, على التغطية الإعلامية المناسبة للأحداث. ثم أطاح بالمحافظ, الذي فشل في علاج الاضطرابات. ثم تفرغ بعدها للإعلام نفسه. فأرسل رئيس البرلمان,

ورئيس المكتب السياسي للحزب الحاكم عبد الله القلال, ليتهم قناة الجزيرة بمعاداة تونس. فالقناة, على حد زعمه, تنشر الأكاذيب وأنصاف الحقائق أثناء عرضها للأحداث.

لم تكن هذه المرة الأولى التي اصطدم فيها القصر الرئاسي بهذه القناة واسعة الانتشار؛ ففي عام 2006 أغلقت السلطات استوديوهات الجزيرة في تونس, التي قد سمحت, قبلها بفترة قصيرة, للمعارض الدكتور المنصف المرزوقي, طبيب منفي في باريس, بالتحدث من على منبرها. ولقد دعا المرزوقي الشعب, على الهواء, إلى الخروج للتظاهر سلميا ضد النظام الحاكم. ومر عامان حتى سمح لقناة الجزيرة بالعمل في تونس من جديد. ومع اندلاع الاضطرابات أكثر المرزوقي من الظهور على الجزيرة وشجع الموجة الاحتجاجية.

سادت الفوضى في فترة ما بعد فرار الرئيس التونسي, وهب الجيش لقمعها. فقد خرجت عصابات المجرمين عن القانون وقامت بأعمال السلب والنهب للمتلكات الخاصة والعامة. وسارعت القناة المحظورة إلى مساعدة قوات الجيش, والشعب. وهكذا شاهد الرئيس الهارب زين العابدين بن علي من مقر إقامته في جدة بالسعودية, أرقام الطوارئ التي أعلنها الجيش للمواطنين الذين أرادوا الإبلاغ عن أعمال سلب ونهب, ذلك لمساعدة ممثلي القانون. لم تمر سوى بضعة أيام, وظهر الدكتور منصف المرزوقي من جديد على قناة الجزيرة, بعد أن عاد إلى موطنه من المنفى, وأعلن نيته المنافسة في الانتخابات الرئاسية.

مات محمد البوعزيزي, الشاب الذي أشعل النيران في نفسه, وأشعل شرارة الثورة, بعد ثلاثة أسابيع. مات في سن 26, متأثرا بحروقه, ولم يعلم أن العمل الذي قام به قد منح المواطن العربي فرصة جديدة – في وطنه وفي الدول المجاورة.

كيف يجرؤ أحد النجوم

كانت القاهرة في حالة غليان, فقد سافر عصام الحضري حارس مرمى النادي الأهلي سرا إلى سويسرا باحثا عن مستقبله في نادي "سيون". لقد سلك طريقه إلى هناك خفية لأن مدير الفريق لم يسمح له بالسفر لأداء الاختبارات. وفي الوقت الذي توجه فيه إلى جنيف أقيم في القاهرة احتفال كبير بمناسبة فوز المنتخب الوطني بكأس أفريقيا, بمشاركة رئيس الحكومة أحمد

نظيف, والنجمة اللبنانية نانسي عجرم. لقد كان ذلك أحلى فوز لمصر منذ سنوات بعد سلسلة من السقطات في قطاع الرياضة.

وفور أن اتضح أن حارس المرمى سافر ليبحث عن حظه في بلد أجنبي هبت عاصفة شعبية في القاهرة؛ فاتهمه البعض بالخيانة الوطنية وتساءلوا عن ماذا يبحث خارج البلاد, خاصة بعد حصوله على مبلغ ثلاثة ملايين جنيه مصري, مكافأة فوز المنتخب.

قال الصحفي حسين يوسف غاضبا "من حق مشجعي جمهور الأهلي اعتبار عصام الحضري خائنا, أجرم في حق مشجعيه وباعهم من أجل شهوة المال,". "أكثر الناس تشاؤما لم يكن ليتصور أنه سيهرب سرا ويبيع ماضيه, وحب النادي من أجل حفنة دولارات."

إن اختفاء النجم المصري (الذي عاد بعد أسبوع), ليس فقط قصة عن كرة القدم؛ ففي سفره للبحث عن حظه في الغربة, أثار الحضري العديد من التساؤلات, على رأسها حول حياة النخبة الفاخرة, التي تترك المواطن البسيط يتشاجر في طابور العيش. ولقد ذكرت قصة بحثه عن عمل أفضل فيما وراء البحار بنسبة البطالة المرتفعة, خاصة بين الشباب. تصل نسبة البطالة بين الشباب في عمر 18-29, وفقا لإحصاءات رسمية, إلى 22 في المائة, لذلك يحلم الكثيرون في العمل في الخارج. كم تسود مصر البطالة المقنعة. ويعيش ثلث سكان القاهرة تقريبا –حوالي سبعة ملايين نسمة- في منازل مؤقتة وعلى أسطح المنازل. كما أن حوالي مليون مبنى في جميع أنحاء البلاد, حسب دراسة قام بها المهندسون, معرض للسقوط في حالة حدوث زلزال متوسط القوة.

" لا إله إلا الله!" تعجب الصحفي حسنين كروم, "بينما الآلاف يموتون لعدم مقدرتهم على شراء دواء أو إجراء عمليات جراحية, ولا تجد آلاف الأسر المسكن, ولا يجد ملايين الشباب العمل, وقتلى وجرحى بسبب التزاحم على طوابير العيش, فلم تتحرك من أجلهم قلوب أشقاؤنا العرب أو الرأسماليون المصريون الذين أسرع كل منهم للتبرع بمليون أو اثنين لأفراد المنتخب والإداريين. أهذه أمة تعرف معنى الرحمة والإنسانية؟"

هذه لنا, وهذه أيضا

لم تكن تتوقع قوات الشرطة المغربية التي دخلت إلى المخيم من أجل إخلاء سكانه بالقوة؛ هذا الكابوس المروع الذي ينتظرها فيه. فقد استقبلهم مئات المتظاهرين بالسكاكين والزجاجات الحارقة معترضين على عملية الإخلاء. وصل رجال الشرطة, غير المسلحين, إلى المنطقة, وكان من الصعب عليهم الرد على هذه الحرب الدامية. امتدت الاضطرابات إلى شوارع المدينة؛ حيث قام المتظاهرون بإضرام النيران في السيارات, والبنوك, والمحال التجارية.

نجحت القوات, بعد يوم كامل من المصادمات, في استكمال مهمتها, وأخلي المخيم من السكان الفقراء الذين استوطنوه, لكن الثمن الذي دفعته قوات الشرطة كان باهظا. فقد سقط منهم عشرة, في المعركة مع المتظاهرين الغاضبين معظمهم من جراء حروق في أجسادهم من الزجاجات الحارقة. وقتل أحد الضحايا بعد أن سقط من دورية الشرطة فهجم عليه المتظاهرون وذبحوه.

حدثت هذه المواجهات في شهر نوفمبر 2010 في منطقة العيون, أكبر مدن الصحراء المغربية. ولقد أرسلت قوات الشرطة إلى المخيم بعد شهر من استقرار سكان القطاع فيه احتجاجا على ظروف معيشتهم الصعبة وإهمال السلطات لهم. كما استقرت معهم في المخيم عناصر من جبهة البوليساريو, الحركة الاحتجاجية لأبناء الصحراء المغربية, التي تقاتل من أجل حصول أبناء القطاع على الاستقلال. قام مسلحو الحركة, حسب ادعاءات الشرطة, بالسيطرة على المقيمين في المخيم, من بينهم شيوخ, ونساء وأطفال, ومنعتهم من ترك المكان رغم رغبتهم في ذلك؛ في الوقت الذي حاولت فيه الحكومة التوصل إلى حل مع زعماء القبائل في العيون.

الصحراء المغربية منطقة صحراوية في شمال غرب أفريقيا تطل على سواحل المحيط الأطلنطي, على الحدود مع المغرب وموريتانيا, والجزائر. مساحتها حوالي 12 ضعف مساحة دولة إسرائيل. قامت المغرب بضمها وتعتبرها جزء لا يتجزأ منها. وفي المقابل, تتهم الزعامة المحلية الرباط باحتلال المنطقة, وتناضل من أجل التخلص من هذا الظلم.

كانت المنطقة, حتى عام 1975, تخضع للسيطرة الإسبانية, التي تنازلت عنها بعد أن أصبح جنودها هدفا لهجمات جبهة البوليساريو, باسمها الرسمي "الجبهة الشعبية لتحرير الساقية

الحمراء ووادي الذهب". وفي عام 1979 أعلنت الجبهة استقلال القطاع من جانب واحد. وحصل الكيان الجديد على اعتراف منظمة الوحدة الأفريقية, لكن رفضت منظمة الأمم المتحدة قبولها بين أعضائها, إلا إذا قامت بتسوية أوضاعها مع المغرب. كان مقر البوليساريو في الجزائر مما جعل الجزائر, برغبة منها, طرفا فعالا في الصراع. وحصلت الجبهة, في العقد الأول لنشأتها على تأييد عسكري ومالي من ليبيا.

أصبحت مشكلة الصحراء المغربية جرحا ينزف في جسد المغرب, وأثقل على العلاقات بين دول المغرب العربي. وسقط, بعد ثلاثة عقود من المواجهات, أكثر من ألف رجل من رجال الأمن المغربي في هجمات مقاتلي البوليساريو. قامت المغرب, عام 1983, ببناء جدار عازل بطول ألفي كيلومتر حول المدن الثلاثة الكبرى شمالي الصحراء المغربية التي كانت هدفا أساسيا لهجمات الجبهة. وقام الملك الحسن الثاني برعاية مشروع توطين مناطق في القطاع, وتم حث المواطنين المغاربة على الاستيطان في منطقة الصحراء المغربية, فقد كان هناك مكان للجميع: فعدد سكان المنطقة 300 ألف نسمة فقط, والكثافة السكانية بها من أقل الكثافات في العالم – شخص لكل كيلو متر مربع.

أعلنت الأطراف, في عام 1991, وقف إطلاق النار وبدأ الوسطاء في الوساطة, لكن صعب عليهم التوصل إلى حل, وفشلوا, على وجه الخصوص, في القيام باستفتاء شعبي بين سكان القطاع الذي سيحددون مستقبلهم فيه. فقد أرادت المغرب إشراك كل سكان منطقة الصحراء المغربي في الاستفتاء, لكن زعماء البوليساريو طالبوا بحذف المستوطنين المغاربة من سجل الناخبين.

بحث الوسطاء الأمر ووجدوا بدائل أخرى: فاقترح مبعوث الأمم المتحدة, جيمس بيكر, إقامة منطقة حكم ذاتي في القطاع تحت السيادة المغربية, لكن زعماء البوليساريو رفضوا. كما رفضت المغرب, من جانبها, مقترح لسكرتير عام الأمم المتحدة, كوفي عنان, إقامة دولة مستقلة لسكان الصحراء المغربية على ثلث أراضي القطاع, رغم حصول المغرب على الثلثين الآخرين. لكن الأمم المتحدة لم تستسلم, وبدأت مباحثات مباشرة بين الجانبين في نيويورك تحت رعايتها. وفي هذه الأثناء, وفي ظل غياب حل – ظهرت النبتات الشيطانية. "تنظيم القاعدة في بلاد المغرب

الإسلامي" ضد الجزائر والحكومة المغربية, الذي قام بتحويل المناطق الصحراوية الشاسعة إلى قاعدة لنشاطه.

اندلعت مصادمات في منطقة العيون بالضبط في الفترة التي استعد فيها ممثلو الجانبين لجولة ثالثة من المفاوضات في نيويورك. في المغرب بحثوا عن متهمين ووجدوا ذلك في الإعلام الغربي المعادي. فقامت حكومة الرباط بتوبيخ الصحافة الإسبانية لأنها قدمت تقارير خاطئة عن سقوط مئات القتلى.

قال وزير الداخلية المغربي, الطيب الشرقاوي, غاضبا "نشروا صورا لمصابين في حوادث الطرق, وعرضوها على أنهم مصابون في المصادمات, مثلما فعلوا ذلك مع الأطفال الفلسطينيين من غزة, الذين يعالجون في مستشفيات المغرب,".

أما زميله في الحكومة,وزير الإعلام خالد الناصري, فقد أراد التعبير عن موقف وطني صارم فقال الشيء وضده.

قال الوزير "لن تتنازل المغرب عن أي شبر من أراضي هذه الصحراء,", وأضاف في نفس الوقت: "وهذا الأمر لا يتعارض مع الجهود التي تبذلها من أجل حل الصراع."

سفيرة النجوم في حاجة إلى المال

بعد ثمانية وثلاثين عاما من ظهور فيروز على خشبة مسارح دمشق في مسرحيتها الغنائية "صح النوم",قامت بذلك مرة أخرى. هذه المرة ليست كنجمة الغناء اللبناني, لكن كسيدة تبلغ من العمر 72 عاما, أكثر احتراما وتقديرا, صوتها كصوت فتاة شابة. "صح النوم" مسرحية غنائية تسخر من ضعف الزعماء, ومن استخفافهم بالمتطلبات اليومية للشعوب. هذا العمل الذي يضم حوالي ثلاثين ممثلا, كتبه ولحنه الأخوان عاصي ومنصور رحباني, زوج فيروز وشقيقه, ويعتبر من أحب أعمالهما.

عرضت المسرحية لأول مرة على خشبة المسرح في عام 1970 ولاقت انتقادا شديدا من حكومات الدول العربية. وكان الزعيم المصري جمال عبد الناصر, الذي كان يهوى الشعارات ويعد بالكثير ويفعل القليل, هو النموذج أمام مؤلفي المسرحية. لكن مات عبد الناصر, بعد شهور قليلة من عرضها على المسرح بعد هزيمة بلده في حرب الأيام الستة (1967). فقرر الرحابنة -

لقب شعبي يطلق على الأخوان رحباني- عدم عرض المسرحية مرة أخرى, كي لا تعتبر سخرية من الرئيس الراحل.

تحكي قصة المسرحية عن حاكم يقضي معظم أوقاته نائما, ويستيقظ مرة واحدة في الشهر عند اكتمال القمر, ويقوم بختم ثلاثة طلبات فقط يتم عرضها عليه أمام مواطني المملكة. وبدون هذا الختم لن يتم تنفيذ أي قرار ولو كان صغيرا جدا. وكان هناك امرأة يسرب سقف منزلها مياه الأمطار أرادت الحصول على ختم الملك من أجل صيانته, وسئمت من حماقة جلالته. تسللت ذات ليلة إلى القصر, وفي أثناء شخيره الذي هز الجدران, سرقت الختم واستخدمته لصالح الشعب.

عرضت "صح النوم" على المسرح من جديد في شتاء 2008, في الفترة التي كانت فيها علاقات لبنان مع الجارة السورية في أسوأ حال. فقد قتل قبل ثلاث سنوات ونصف في بيروت رئيس الحكومة اللبنانية الأسبق رفيق الحريري, في تفجير غامض. وقتل بعده الواحد تلو الآخر ساسة وصحفيون لبنانيون انتقدوا نظام الأسد علنا. ولقد عجل الغضب الشديد الذي خلفته عمليات الاغتيال تلك من انسحاب الجيش السوري من بلاد الأرز, بعد 29 عاما مكثها هناك. وها هي فيروز, فخر لبنان, تأتي وتختار العودة ثانية في مهرجان دمشق الثقافي.

استغل هذا التوتر معارضو سوريا في لبنان في ذلك الوقت, وعلى رأسهم زعيم الدروز وليد جنبلاط الذي طلب من فيروز عدم الصعود على خشبة المسرح, وبهذه الطريقة الرد على السوريين لتدخلهم الفظ في السياسة اللبنانية.

وزعم وليد جنبلاط في مقال له نشره في صحيفة حركته "هناك تحالف بين إسرائيل والنظام السوري,", "سياستهما متشابهة. فإسرائيل, من ناحية, تقمع الشعب الفلسطيني على مدى عقود. والنظام السوري, من ناحية أخرى, ينتهك حقوق شعبه المحبوس في سجن كبير. فما الفارق بين الاحتلال المتجهم, وبين الديمقراطية المظلمة؟"

كما كتب صديقه في الحزب, أكرم شهيب, لفيروز: "يا سفيرتنا إلى النجوم، أنت رسمت لنا الوطن - الحلم فلا تبددي أحلامنا فيه كما يبدد طغاة دمشق أحلامنا بالوطن والدولة والديموقراطية والحرية والحياة."[19]

ابتعدت فيروز طوال أيامها عن السياسة, وقامت بذلك بنجاح كبير. لم يرتبط اسمها أبدا بأي تيار سياسي أو نظام, على عكس الأسطورة أم كلثوم, التي كان يبدو أنها كانت تجلس بجوار مكتب جمال عبد الناصر. لذلك كان من الطبيعي ألا تجيب نداءات جنبلاط وصديقه. "فيروز أكبر من مثل هذا التناول. فهي رمز أعلى من السياسة."[20] فقد أوضح ذلك ابن العائلة غسان رحباني, وأغلق هذه القضية.

مشاهدة الإصدار الحديث من مسرحية "صح النوم" تدل على أنها تطورت مع السنين. وعرضت بنجاح كبير على مسارح دمشق ثم انتقلت لتعرض في العاصمة الأردنية.

وفي داخل قاعة جامعة عمان كان من الممكن مشاهدة الآلاف من عرب إسرائيل, الذين أتيحت لهم الفرصة, ربما لآخر مرة, لمشاهدة فيروز. أراد كثير من الأردنيين الحصول على تذكرة, لكنهم لم ينجحوا في ذلك. فقد بيعت أرخص التذاكر بـ 20 دولارا, وأغلاها بـ 175 دولار. وهذه الأسعار لم تكن لتناسب البسطاء من الشعب, لكن الأثرياء منهم فقط. ورأت فيروز, التي لم تجمع في حياتها الكثير من المال, كما تستحق نجمة في مكانتها؛ رأت في ذلك فرصة لن تتكرر في جمع بعض المال. والثمن دفعه المعجبون.

الموطن القومي

لا يجب أن نأخذ مناشدات وليد جنبلاط لفيروز على محمل الجد؛ فالزعيم الدرزي حاول إثناء النجمة عن رغبتها في الغناء في دمشق. ولقد سارع هو نفسه, قبل أقل من عامين من فشل جهوده تلك, إلى الارتماء في أحضان ماما سوريا. لم يفاجأ أحد في بيروت, فالولاء في السياسة اللبنانية هو قيمة مائعة للغاية, خاصة عندما يكون الحديث عن كبار الزعماء, وأكثر من ذلك عندما يتعلق الأمر بزعيم الدروز.

---

[19] http://www.alarabiya.net/articles/2008/01/11/44080.html

[20] http://archive.aawsat.com/details.asp?article=453729&issueno=10637#.VS9qKNKsXX4

كانت هناك أيام في السياسة, ليس في لبنان فقط, اعتبر فيها انتقال الشخصيات إلى معسكر الخصم بمثابة خيانة حقيقية. وفي إسرائيل أوجدت اللغة الحزبية مصطلحات استنكارية لمن اعتادوا تعدي الخطوط. ولقد لقب مثل هذا الشخص "كلانتريست", وهو تعبير مشتق من اسم رحاميم كلانتر, عضو حزب المفدال في بلدية القدس.

عام 1956 انتقل كلانتر إلى حزب عمال أرض إسرائيل (مباي), في مقابل وعد بشغل منصب نائب رئيس البلدية, بذلك أنقذ الائتلاف بزعامة رجل مباي جرشون إجرون. ومنذ ذلك الحين ظهر في السياسية الاسرائيلية الكثير من الكلانتريين, لكن تطورت أيضا لدى الجارة في الشمال نماذج مختلفة من الالتواءات السياسية, سنطلق عليها اسم الجمبلاطية-الكلانترية اللبنانية.

يعتبر وليد جنبلاط قبل أن يرتمي في أحضان المعسكر المؤيد لسوريا في مارس 2010, من أشد المعارضين قولا لبشار الأسد. فقبل خمس سنوات اغتيل في بيروت الزعيم والملياردير اللبناني رفيق الحريري, ومنذ ذلك الحين زادت حدة انتقاد جنبلاط الذي اتهم دمشق علنا بالتخطيط لعملية الاغتيال, ونعت رئيسها "بالمريض النفسي المعتطش للقتل" و"زعيم عصابة". ولم يكتف بالرئيس السوري فقط لكنه هاجم حلفائه أيضا. وأطلق على حركة حزب الله مستهزئا "ميليشيا", واتهم طهران بأن رجالها يتحكمون في لبنان من بعيد.

قال جنبلاط في الذكرى السنوية الأولى على اغتيال الحريري "حان الوقت يا بشار يا إرهابي", "شعب لبنان النبيل سيطردك. يا حاكم دمشق يا طاغية الشام. أنت عبد مخلص للعبد المخلص."[21]

رأي الكثيرون في كلمات جنبلاط تصفية حساب متأخرة مع النظام السوري لاغتيال أبيه كمال – مثقف وزعيم, قتل في 1977. كانت تلك الفترة فترة الحرب الأهلية في لبنان, ولقد خشيت دمشق من أن تسيطر القوات الدرزية المسلحة تحت قيادة الأب, على الدولة, بعد أن قامت بذبح حلفائهم المسيحيين وطردهم من جبل الشوف. خلف وليد أباه في زعامة الطائفة الدرزية وبدأ في إجراء مباحثات سرية مع إسرائيل من أجل إقامة حكم درزي ذاتي في جبل الشوف, رغما عن سوريا. وبعد أن أدرك أن القدس تفضل المسيحيين عليهم, تخلى عن فكرة الحكم الذاتي, وتقرب

[21] http://www.al-akhbar.com/node/148975

من حكام سوريا؛ فقضى سنوات الحرب المريرة في القصر العائلي في دمشق, تحت رعاية الحاكم الذي قتل أباه. وبعد انتهاء الحرب الأهلية أحسن السوريون مكافئته, وعينوه وزيرا في الحكومة التي شكلوها في بيروت.

لم يكن وليد جنبلاط الوحيد الذي غازل الإسرائيليين في تلك الفترة الضبابية من الحرب الأهلية. كذلك كان الجنرال ميشيل عون, قائد الجيش اللبناني, من أحباء جنرالات الجيش الإسرائيلي, خاصة في الفترة التي قاد فيها التمرد ضد المحتل السوري. فشل التمرد, وقتل معظم رجال عون, وهي إلى باريس. هناك حافظ على اتصالاته مع إسرائيل بل وأجرى لقاءات مع الصحافة الإسرائيلية, وهو عمل غير معتاد من قبل الشخصيات اللبنانية. كل ذلك حتى خرج السوريون من وطنه بعد اغتيال رفيق الحريري, بعدها عاد إلى الوطن, وبدلا من أن يدير معركة سياسية ضد خصومه السابقين في دمشق انضم إلى حزب الله وأصبح أحد زعيمي التحالف المسيحي-الشيعي, الذي ساندته دمشق.

في المقابل, كان من المعقول أن يجد جنبلاط بعد اغتيال الحريري وانسحاب السوريين من لبنان, مكانا له في المعسكر المعادي لسوريا, بجوار سعد الحريري, ابن المرحوم رفيق الحريري, والمسيحي سمير جعجع. وهذا ما حدث بالفعل. فقد فاز التكتل الحزبي الذي قام الثلاثة بتشكيله, في الانتخابات البرلمانية وعين جنبلاط وزراء من قبله في الحكومة. وساندت الدول الغربية وكذلك السعودية - التي تشارك جيدا في الشؤون اللبنانية الداخلية- المعسكر الذي رأسه سعد الحريري. غير أنه يوما ما, وبشكل مفاجئ, قرر الزعيم الدرزي أنه اكتفى بالمكانة التي يشغلها, وأجرى لقاء مع قناة الجزيرة وأغدق من كلمات التهدئة والعفو تجاه الحاكم السوري.

" صدر مني في لحظة غضب كلام غير لائق وغير منطقي بحق الرئيس بشار الأسد في لحظة من التوتر الداخلي الهائل في لبنان" قال جنبلاط معتذرا عن هجومه العلني على الرئيس الأسد "اليوم بداية طريق جديدة."[22]

لم يفاجئ الرئيس السوري؛ فالكلمات التي سمعها من الزعيم الدرزي في المقابلة التلفزيونية قد تم الاتفاق عليها من البداية في تفاهمات تم التوصل إليها بوساطة حزب الله. وبعد أسابيع

---

[22] http://www.arab48.com/?mod=articles&ID=69455

قليلة من الاعتذار على الهواء هبط جبنلاط في دمشق كضيف على الرئيس. ولم يتوقف منذ ذلك الحين وحتى إشعار آخر عن مدح الأسد لجهوده في الحفاظ على أمن واستقرار لبنان.

ربما لا يمكن اتهام جنبلاط بالانتهازية, بل منحه نيشانا على قدرته المبهرة على البقاء. فمنذ أن ألقي ابن كمال جنبلاط الموقر إلى مياه السياسة الباردة, كانت لبنان بلد أنهارها من الدماء, مجتمعه فقد صوابه. فالدروز, والمسيحيون, والشيعة, والفلسطينيون, والسنة, والإسرائيليون يقاتلون جميعا بعضهم البعض, والدول العظمى تحرك هذا الخليط بلا هوادة. وكانت عمليات الاغتيالات سواء لأشخاص أو جماعات, جزءا من صورة الواقع. حتى بعد الحرب الأهلية استمر الاستخفاف يسيطر على السياسة. وكان اسم اللعبة البقاء, وأراد الجميع الاحتماء في ظل "الجدار الصامد". وهو اللقب الذي أطلق على الراعي الثري- الدولة الأجنبية التي تتدخل في شؤون لبنان أو ميليشيا مسلحة. باختصار, هو كل ما يستطيع أن يمنح الإنسان الحماية أو التقرب من مراكز القوة. وإذا إنهار هذا الجدار, أو تمايل, استبدلوه بآخر. وجنبلاط لم يفعل ذلك لمصلحته الشخصية, فهو يحمل على عاتقه عبء أقلية مكونة من مئات الألوف من الدروز في دولة مضطربة تتحكم فيها المصالح الأجنبية. ولقد توقعت هذه الجموع منه أن يعرف جيدا كيف يجد الجدار الذي يساندهم.

وبعد أن اجتاز الخطوط قالوا عنه أن السعودية- الداعمة الأكبر لمعسكر سعد الحريري- قد تخلت عنه وأوقفت إمداده بالمال لكي يعبر عن مواقف معادية لسوريا, مثلما فعل في السنوات السابقة. كما قالوا أيضا أنه خاب أمله من مواقف السنة وعلى رأسهم سعد الحريري أثناء أحداث مايو 2008؛ حيث كانت هناك معارك دامية بين المعسكرين انتهت بانتصار حزب الله, وموت حوالي مائة لبناني. فقد هاجم مقاتلو حزب الله المدربون جيدا رجال جنبلاط في جبل الشوف, ومات بعضهم. لقد نزف أصدقاؤهم في الائتلاف أمام أعينهم, في مواجهة مقاتلي الحركة الشيعية, ولم يهبوا لمساعدتهم. على خلفية كل ذلك كان جليا لماذا كان كثير من اللبنانيين, وليس فقط أبناء الطائفة الشيعية, يكنون الاحترام لحسن نصر الله. فزعيم حزب الله يعتبر شخصية نظيفة, تتبع أسلوب حياة متواضع, متمسك بقيم وضعها لنفسه. لكن بالنسبة له أيضا كانت هناك طرق للمناورة في السياسة اللبنانية, أكثر حنكة من الآخرين.

بعد اغتيال رفيق الحريري أبنه حسن نصر الله بكلمات رقيقة, ولقبه بالشهيد. وفي الفترة الأخيرة من حياة الحريري, حكى نصر الله في أحد خطاباته بعد عملية الاغتيال, أنهما اعتادا اللقاء في حوار من القلب للقلب, حول الوضع في لبنان. لكن لجنة التحقيق الدولية التي شكلت بعد عملية الاغتيال, أزاحت القناع من على نظرة نصر الله الحزينة. واتضح أنه في الفترة التي كان يلتقي فيها بالحريري في هذه الحوارات, توجه إليه صديق مهم ليسدي له معروفا. كان الصديق هو الرئيس السوري بشار الأسد, وكان الطلب هو إزاحة رفيق الحريري من على الساحة. استجاب نصر الله وكلف أفضل رجاله بالمهمة. وفي 14 فبراير 2005, هز تفجير كبير العاصمة بيروت, والبقية تاريخ معروف.

الفصل التاسع

الدين والشريعة

قال أحد الحكماء

الإسلام يطل من كل اتجاه: من شاشة التلفزيون, ومواقع الإنترنت, وفي الشوارع, وفي السياسة. لكل سؤال جواب لدى رجال الدين, حتى الذبابة التي تسقط في كوب الشاي. لكن صورة دين محمد مهزوزة في العالم الكبير؛ ولن يستطيع رجال الدين التغلب على ذلك بسهولة.

خاف رجل الدين عبد الحميد الأطرش من نتائج إحصائية حول أسباب الطلاق بين المتزوجين في مصر. ولقد اتضح من الإحصائية أن واحد من كل خمسة أزواج حطم عائلته بسبب طرف ثالث, اقتحم الحياة الزوجية عبر موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك. سارع الشيخ المصري بنشر فتوى تقول إن تصفح هذا الموقع حرام لأنه ثبت أنه يمكن أن يضر بسلامة الحياة العائلية.

الإسلام على غرار اليهودية ديانة تشريعية. والديانتان توفران لأتباعهما أدوات التعامل مع المشكلات اليومية البسيطة, والمعقدة. مصادر التشريع في اليهودية هي التوراة وأدب الحاخامات. كذلك المسلمون لديهم كتابهم المقدس والشريعة الشفهية المسماة "السنة النبوية". وهي مجموعة روايات, انتقلت من جيل إلى جيل, توثق حياة النبي محمد وأقواله كما دونها أصحابه. كما أن لدى المسلمين مذاهب متساهلة مثل بيت هليل في اليهودية, ومذاهب متشددة مثل بيت شماي, كما أن هناك تيارات ومذاهب ومدارس متنوعة ومختلفة ومتصارعة, ورجال دين يمثلون النظام الحاكم وآخرون معارضون له, وكذلك منهم من يمثلون أنفسهم فقط. وجميعهم أبناء الأمة الإسلامية التي تشكل حوالي ربع سكان العالم تقريبا.

الإسلام في معظم الدول العربية هو المصدر الرئيس للتشريع. ومنذ تأسيس حركة الإخوان المسلمين في مصر, عام 1928, دخل الدين في السياسة بشكل منظم. ويعتبر المتدينون من المعارضة القوية التي تفرض الكثير من التحديات في الشرق الأوسط. لقد تحول ممثلوها في بعض الحالات, مثل في غزة ولبنان, وإيران, وتركيا, إلى عامل رئيس في إدارة الدولة أو تحديد أولوياتها. "الإسلام هو الحل", شعار التيارات الدينية بمختلف أنواعها المتشددة والمعتدلة على السواء. ومن هنا مسمى "الأصوليون", أنصار العودة إلى الأصول. يعتقد غالبيتهم أن الحكومات العربية فاسدة, وخانعة, لا تكن الاحترام الحقيقي للدين, وأنه انهارت معها الأفكار والممتلكات التي وعدوا بها الشعوب في عيش حياة أفضل- مثل القومية العربية, والاشتراكية على غرار النموذج السوفيتي, وأرباح النفط. ونظرا لفشل الحكومات في مهامها السامية في تحسين وضع الشعوب, فالطريقة المثلى لتخليص الأمة من ضعفها يكمن في العودة إلى كلام الله.

رغم ذلك فالكثير من المبادئ الاجتماعية لدى رجال الدين ذات طابع علماني خالص. آية الله روح الله خوميني, مؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران, يكن الكثير من التقدير للضعفاء والمقهورين, وقال إن مساعدة الفقير واجب ديني. كما أن النبي محمد قدر جدا عرق العامل مثلما قدر دم الشهيد. لكن من أين هؤلاء الضعفاء إن لم يكونوا من طبقة "عمال الإنتاج" التي لاحظها قبله آباء الماركسية بمائة عام تقريبا. قال خوميني ونظراؤه إن الواجب الأسمى للأمة هو التطلع إلى إقامة نظام إسلامي في العالم كله, سيسود العدل العالمي بعدها. العدل للجميع هو الطموح العلماني الذي أحسن المثقفون الغربيون صياغته حتى قبل ظهور أوائل الإصلاحيين الإسلاميين.

منذ تزايد استخدام الإنترنت والمحطات الفضائية, كثر رجال الدين الإسلامي, وتطورت مسألة الرد على التساؤلات. حصل بعض رجال الدين على برامج خاصة بهم في القنوات الفضائية؛ وحصل البعض على أبواب خاصة في الصحف, ولن تجدوا رجل دين مشهور, سواء سني أو شيعي, إلا وهو يتفاخر بموقع الإنترنت الخاص به الذي يستخدمه كقناة مفتوحة أمام الجمهور لطرح أسئلتهم الدينية عليه. ورغم تميز معظمهم بالرؤية المعتدلة تجاه الدين والحياة اليومية, إلا أن الإسلام مازال يعاني من سوء السمعة. فالحركات الأصولية استغلته لصالح أيديولجيتها المتشددة, واستخدمته كوسيلة للقتل ووضعوا لدين محمد صورة راديكالية بما يخالف الواقع.

الطلاق عبر التليفون المحمول

كل ست دقائق في المتوسط يقوم رجل في مصر بتطليق زوجته؛ فليست هناك طريقة أسهل من ذلك: يذهب الزوجان إلى المأذون, ويقول الرجل لزوجته "أنتِ طالق" ثلاث مرات. ولو المرأة ليست في صحبته لأسباب معينة, ذهبت على سبيل المثال إلى بيت والديها, فمن المتبع الاستعانة بالشرطة. فعلى رجال القانون تحديد مكانها وتسليمها ورقة الطلاق. وهذا الإجراء أمر متبع في اليهودية أيضا.

غير أن العصر الحديث قد جلب على المؤسسة الإسلامية مشكلة جديدة. فقد بدأ الرجال يستغنون عن خدمات القوة التنفيذية وفضلوا إرسال الطلاق لزوجاتهم عبر الرسائل القصيرة

(sms). وخوفا من قسوة هذه البدعة ألغى القضاة حالتي طلاق حدثتا بهذه الطريقة في كل من قطر, والإمارات العربية المتحدة, وألزمت الأزواج بالتطليق بالطريقة المعتادة. لكن عند وصول هذه الحالة إلى مصر, تحير المشرعون في المسألة. فقد علموا أن القرارات التي ستخرج من القاهرة ستكون نموذجا للآخرين, كما أن المسألة نفسها في حاجة إلى فحص دقيق.

عرضت على المحكمة في القاهرة حالة شيرين, 25 سنة, أم لطفل 4 سنوات, أرسل لها زوجها المتذمر رسالتي طلاق عبر التليفون المحمول. الزوج, ضابط قوات مسلحة متقاعد, رفض أي محاولة للصلح وأصر على عدم الذهاب للمحكمة لتطليق زوجته بالطريقة المعهودة. هكذا بقيت شيرين مع طفل صغير, وخاتم زواج لكن بدون زوج. أصبحت معلقة بقرار مؤسسة تشريعية كانت هي نفسها في حالة تخبط بصورة لا تختلف عنها.

وقالت للقضاة "أنا منزعجة للغاية,", "لا أعرف هل أنا متزوجة أم مطلقة."

قررت المحكمة بعد عام من التخبط والجلسات اتباع نظرائها في الخليج والقول أن شيرين امرأة متزوجة. وقالت إن أسلوب الرسائل القصيرة, ليس دليلا أكيدا على أن الزوج نفسه هو الذي أرسلها.

إعادة الفتوى إلى مكانتها

مشكلة أخرى خلقتها التكنولوجيا التي تؤرق المؤسسة الدينية. فالجمهور يكثر من التوجه إلى رجال الدين الهواة, الذين يظهرون في كل حدب وصوب, ويحصل منهم على إجابات فورية على المسائل اليومية الملحة.

تفاقمت المشكلة خاصة بعد دخول الإنترنت والقنوات الفضائية. فقد منح العالم متعدد القنوات ظهور الكثير من رجال الدين بمختلف توجهاتهم, بعضهم من الشباب؛ لكن لديهم مقدرة رائعة على التعبير, حولوا نشر الفتاوى إلى قطاع تلفزيوني حقيقي بعد مئات السنين؛ بعدما كانت تصدر الفتوى بعد دراسة متأنية من كبار رجال الدين.

قال الدكتور علي جمعة مفتي مصر " أصبحت الفتوى مصدرا سهلا للرزق", "يستغل البعض حاجة المسلمين الذين لا يفهمون معنى الأمر."

إلى أي درجة هذا الأسلوب الجديد شائع بين الناس, أمر ممكن ملاحظته من متابعة الفتاوى المذاعة التي أصدرها رجال الدين في الربع الأول من عام 2010 فقط. تابع محررو الموقع السعودي "الفقه الإسلامي", 11 محطة فضائية عربية, أذاعت خلال تلك الفترة 244 برنامجا يهتم بشؤون الدين والشريعة. ووجدوا ما يقارب خمسة آلاف إجابة في هذه البرامج ردا على أسئلة جمهور من سبعة عشر دولة.

لم تمر سوى بضعة شهور من هذا البحث, إلا وأعلنت قناة "الدليل" السعودية" عن تقديم خدمة خاصة للمشاهدين خلال شهر رمضان. ففي كل ساعة سيتم استضافة متخصص ما في الاستوديو, على مدى عشر دقائق, ويستطيع المشاهدون توجيه الأسئلة له في الشؤون الدينية والشرعية. ومن يصعب عليه الاتصال,يستطيع إرسال رسالة قصيرة من تليفونه المحمول, وسيتم الرد عليه في رسالة قصيرة.

خشي المفتي المصري وزملاؤه من أن الوقت الضيق لدى شيوخ القنوات الفضائية قد يؤثر على جودة الفتوى ويعوق دراستها بشكل دقيق. كما أعربوا عن قلقهم من أن يقوم الشيوخ بالتصرف بانفتاح أكبر لم يكن معتادا في الماضي, كي لا يظهروا كمتشددين في نظر الجمهور.

يعتبر مفتي مصر المفتي الرسمي للمؤسسة الدينية في القاهرة. ورغم أن لكل دولة إسلامية مفتيها الخاص, إلا أن أصداء المفتي المصري أكبر بكثير. ففتاواه تقبلها المؤسسات والأفراد في العالم الإسلامي كله, ويتلقى المفتي يوميا ما يقارب 3000 سؤالا على موقعه الإلكتروني في القاهرة. وفي محاولة لمكافحة هذا التيار غير المتوقف من الفتاوى السريعة, قرر علي جمعة القيام بمبادرة. وفي إعلان رسمي للجمهور نشر في جميع الصحف المصرية, أنه تم تخصيص خمس قنوات لتوجيه الأسئلة من خلالها: عبر الرسائل, أو البريد الإلكتروني, أو بالفاكس, أو عبر مكالمة هاتفية. ولقد تم الوعد بتقديم الإجابات بأربع لغات على حسب الطلب: العربية, الإنجليزية, الفرنسية, الألمانية.

ليس فقط المفتي المصري, لكن انضم كذلك ملك السعودية , الملك عبد الله بن عبد العزيز, إلى محاربة فتاوى الفضائيات. قال الملك, في أمر ملكي, إن هيئة كبار رجال الدين السعودية هي الجهة الوحيدة المناطة بالرد على الجمهور في الأمور الشرعية. وهذه الهيئة عبارة عن مجلس

أعلى مكون من عشرين من رجال الدين يقوم الملك نفسه بتعيينهم. وبعد هذا الأمر الملكي حظر على رجال الدين الآخرين الذين يشغلون مناصب رسمية في المملكة نشر أي فتوى للجمهور. وينطبق الأمر كذلك على الإعلام الحكومي, الذي توقف منذ تلك اللحظة عن توفير أي منبر لرجال الدين الذين لا ينتمون إلى هيئة كبار رجال الدين. لكن كانت لديهم –رجال الدين- الحرية في التعبير عن آرائهم في الإعلام الخاص, أو في المحطات الفضائية والصحف خارج المملكة.

عودة إلى القاهرة: على الرغم من المكانة الرفيعة التي يشغلها المفتي على جمعة, إلا أنه سقط مرة أو مرتين في فخ الفتوى الفاضح. زعم جمعة في كتابه "الدين والحياة – الفتاوى العصرية اليومية", أن أتباع النبي محمد اعتادوا شرب بوله للتبرك. ولقد حدد بالاسم أم أيمن – من المقربات من الرسول, كمن اعتادت القيام بذلك. لم تساعده مكانته الرفيعة, فانقض عليه رجال الدين من اليمين واليسار يطالبوه بتصحيح فتواه, وزعموا أن هذا أمر غير منطقي.

قال الدكتور عبد الله نصر أستاذ الشريعة الإسلامية بباكستان "لم أقرأ مطلقا في نص أحاديث الرسول أو السنة النبوية المطهرة أن الصحابة كانوا يتبركون ببول النبي صلى الله عليه وسلم, وأن أم أيمن شربته فعليا, لأن هذا يخالف أيضا العقل والمنطق.". ثم أضاف وقال: الرسول لا يرضى مطلقا بذلك ولا يقبله, لأن "بول" الإنسان نجس, وإذا مس جلد المسلم أو ثيابه يجب أن يتطهر منه."

ذهب وزير الأوقاف محمود حمدي زقزوق وزعم أن كلمات المفتي فيها إهانة واضحة للنبي محمد, "الذي كان منزها," وقال الوزير غاضبا: "هل انتهت كل المشاكل في العالم الإسلامي ولم يجد غير فتاوى "التبرك بشرب بول الرسول صلى الله عليه وسلم؟"

أما المحامي نبيه الوحش, فمعتاد على رفع دعاوي في مثل هذه القضايا؛ فقد أراد إنقاذ كرامة الإسلام ورفع دعوى ضد المفتي, زاعما أن الدولة تهرع إلى محاكمة من يتطاول على الرئيس حسني مبارك, أفلا ينبغي عليها أن تقوم بذلك مع الرسول, الذي هو أسمى من أي إنسان.

رفض المفتي في البداية التراجع عن موقفه. ربما شعر أن مثل هذا الجدل طيب من أجل تسويق الكتاب. وذكر مبرره بأن "كل جسد النبي طاهر في ظاهره وباطنه, طاهر وليس فيه أي

شيء يتأفف أحد منه". ومرت أيام, وعندما رأى أن الأمور لم تهدأ وافق على سحب الكتاب من الأسواق.

من المكلف أن تصبح مسلما

حوالي 2.5 مليون مسلم حسب الإحصاءات الرسمية للحكومة السعودية, يزورون مكة سنويا لأداء فريضة الحج. الحج إلى أقدس مدينة في الإسلام, واحد من أركان الإسلام الخمسة التي يجب على المسلم أو المسلمة أدائها, في الحياة. ويعتبر ذلك أكبر مؤتمر في العالم, ويستمر لمدة ثلاثة أيام ويعقد سنويا منذ عصور الإسلام الأولى.

إلى أي درجة الأرقام كبيرة؟ يعمل في خدمة الحجاج أحد عشر ألف طبيبا وممرضة, في إحدى وعشرين مستشفى, و145 مستوصف طبي في مكة وضواحيها. و45 ألف شرطي مكلفون بحفظ النظام, و3 آلاف حلاق يقومون بقص شعر الحجاج, كجزء من التحلل من الإحرام أثناء الحج. و7 آلاف عامل يعملون في أيام ما بعد انتهاء المناسك على نظافة المدينة.

كميات اللحوم والطيور التي يتم استهلاكها في مكة في عيد الأضحى بعد انتهاء الحج كبيرة للغاية. وينجح السعوديون بفضل "القافلة البحرية" من نيوزلاندا, وأمريكا الجنوبية وأستراليا, في توفير الكمية المطلوبة للحجاج, التي تقدر بـ1.8 مليار دولار. تستخدم بعض لحوم الأضاحي في إطعام الحجاج, أو المحتفلين بالعيد في الدول الإسلامية المختلفة, ويوزع البعض الآخر على الفقراء.

تعتبر ذروة أيام الحج في التاسع من شهر ذي الحجة , عندما يقوم ملايين الحجاج بصعود جبل عرفة الذي يبعد 12 كم عن مكة, ويقفون فيه لساعات طويلة, في ذكرى خطبة الوداع التي ألقاها الرسول هناك. بعدها يتوجهون لرمي الجمرات على عواميد حجرية كبيرة ترمز للشيطان, ثم يطوفون حول الكعبة في المسجد الحرام.

يستمر عيد الأضحى الذي يأتي بعد الانتهاء من مناسك الحج, لمدة ثلاثة أيام. ويرمز هذا العيد إلى قصة الذبيح التي قام بها نبي الله إبراهيم لله تعالى, بعد أن عفاه من ذبح ولده إسماعيل. وهي الرواية المسلمة لقصة ذبيح إسحاق في اليهودية.

يجمع الحج إليه الكثير من المنتمين للدين الواحد, لكن معظمهم لا يتحدثون نفس اللغة. فهم يأتون من الصين, وماليزيا, والهند, والأردن, والسلطة الفلسطينية, وجيبوتي, وتركيا, وأوزباكستان, ومصر, وبريطانيا, والمغرب, والولايات المتحدة, وإسرائيل؛ في الحقيقة من كل بقاع العالم التي بها مسلمين. وجميعهم متشابهون, فالجميع مطالب بلبس زي قطني أبيض بسيط (زي الإحرام), لكن هناك الكثير من الفروق بينهم- ليس فقط في الناحية الثقافية, وقوة الإيمان, لكن أيضا في أشياء أساسية أخرى- النفقات المادية لهذه الرحلة.

كم تكلف هذه الفريضة, التي إن أداها الشخص سيحصل على لقب حاج؟ يتضح أن الحج إلى مكة لا يناسب الجميع. ففي مصر على سبيل المثال, تباع هذه الحزمة بأسعار تتراوح بين 14.500 جنيه مصري, و64 ألف جنيه. وتضم هذه الحزمة المبيت في الفندق ورحلة الطيران, ويرجع الفرق في السعر إلى مستوى الفندق, وقربه من المسجد الحرام. كما أن الحجاج الباكستانيين يدفعون أسعار مقاربة فأغلى حزمة للحج عندهم تصل إلى 134.000 روبية (حوالي عشرين ألف جنيه مصري), وأرخصها 125.000 روبية. والفلسطينيون يدفعون في المتوسط حوالي 1500 دينار أردني.

أما غير القادرين, وهناك الكثير منهم في الدول الإسلامية, فلا يستطيعون أداء هذه الفريضة الأساسية. لذلك تقوم بعض الحكومات بدعم هذه الرحلة. فسكان نيجيريا, على سبيل المثال, تقدم لهم هذه الرحلة مجانا كخدمة عامة. وتخصص السعودية الدولة المضيفة عشرات الآلاف من الدعوات سنويا على نفقتها الخاصة. لكن يبقى الكثيرون لا يستطيعون السفر, ولم يبق أمام هؤلاء سوى الرضا.

يشاهد في أنحاء مكة عادة, خاصة في موسم الحج؛ الحجاج ينامون على أرصفة المسجد الحرام, أو في حرمه. فهم يتمتعون بالخدمات العامة التي يقدمها لهم السعوديون, وعلى رأسها مياه الشرب الجارية, والطعام البسيط القائم على الخبز والأرز, وينصبون موائدهم في الطرقات. ولقد اعترفوا في إدارة الحج, أن مئات الآلاف من الحجاج يتسللون سنويا لأداء فريضة الحج؛ فهم يتسللون إلى مناطق الشعائر تحت مرأى ومسمع رجال الشرطة وبعضهم في صناديق السيارات.

حتى في أقدس مكان في العالم لا يتساوى الناس أمام الله.

ربنا يستر

مرت سنوات طويلة على الشرطة الدينية السعودية. ولم يوجه انتقاد أبدا للمدافعين عن الأخلاق أو يناصبوا العداء. وعند إدانتهم سيقال أنهم ربحوا ذلك بنزاهة.

الشرطة الدينية أو باسمها الرسمي "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر", هيئة دينية قوية ذات تأثير كبير في المؤسسة السعودية. تعمل منذ عام 1929 – الأيام الأولى للملكة العربية السعودية, وحظت طوال هذه الفترة بثقة الناس. يعمل في الهيئة حوالي خمسة آلاف شخص, يخشون ربهم, وعلى الرغم من ذلك يطلق عليهم "متطوعين". عملهم هو مطاردة ومعاقبة النساء اللائي يقمن بقيادة السيارة, وبائعي الكحوليات, والمتحرشين جنسيا. ويدعون الرجال إلى الصلاة في المساجد, والنساء إلى ارتداء الحجاب, ويعملون كذلك على عدم اختلاط الجنسين في الأماكن العامة. كما أنهم يمقتون قراء الفنجان وكف اليد – المنجمون والعرافون بأنواعهم. فهؤلاء يعتبرون أعداء الإسلام, رغم أن الناس يهرولون إليهم للاستماع لهم. "كذب المنجمون ولو صدقوا" هكذا قال الرسول.

بعد تكرار حالات العنف التي تورط فيها رجال الهيئة, قرر البلاط الملكي, بعد عشرات السنين من الاستقلالية, أن تسحب منهم سلطة عقاب المخطئين, ونقلها إلى القضاء, كما هو متبع في أي دولة راقية. لم يهدأ "المتطوعون". وفي خلال عدة أسابيع, في مايو 2008, لقي ثلاثة مواطنون مصرعهم, كان تم القبض عليهم والتحقيق معهم بواسطة رجال الهيئة.

أحمد مسلم بلوي, سائق تاكسي, 50 عاما, من مدينة تبوك شمالي المملكة, عثرت عليه مجموعة من هيئة الأمر بالمعروف في سيارته مع سيدة ليست بزوجته. كان هناك شك في حالة زنا, فاعتقل, وفاضت روحه بعد أقل من يوم. وتجرأ سليمان حريثي, 28 سنة, من الرياض, على بيع الخمر في بيته فقبض عليه للتحقيق معه ومات هناك. ولقد ذكر التقرير التشريحي للجثمان أن الضربات التي تلقاها على رأسه سببت له شرخا كبيرا في الجمجمة, كما فقأت عينه.

انتهت سلسلة الكوارث بانتحار عاملة أجنبية من شرق آسيا, في الوقت الذي زارها فيه رجال الهيئة في بيتها في جدة. لم تمر بضعة أسابيع, وإذا باثنين من الشباب هربوا من دورية الهيئة كانت تطاردهما, تنقلب بهما السيارة ويلقيا مصرعهما.

حاولت الهيئة في البداية القول إن أعمال الموت هذه لم يقم بها رجالها, لكن متطوعين انضموا إليها. كما قالوا إنه في الحالتين الأوليين, كانت الوفاة طبيعية. لكن العائلات أحضرت أطباء للقيام بعملية تشريح الجثث واكتشفوا الحقيقة. اتضح أن حماة الأخلاق قد فقدوا الأخلاق لدرجة قتل المعتقلين.

شجع الغضب الشعبي ضد رجال الهيئة الكثير من المواطنين على التقدم ببلاغات ضدهم في الشرطة. ففي عام 2006 تم تسجيل 26 حالة إساءة شديدة من المواطنين ضد محققي الهيئة بما فيها إطلاق نار وطعن بالسكين. وكان يمكن مشاهدة رد الفعل المضاد لرجال الهيئة في معطيات السنة التالية؛ حيث ألقي رجال الهيئة القبض على 434 ألف شخص, بزيادة سنوية 19%. وأصبحت الهيئة, تدريجيا, متهمة بعد أن كانت توجه الاتهامات.

وقد كتب في شكوى قدمت ضد الهيئة نشرت بين المتصفحين السعوديين "من يوافق على أن يكون عبدا لإنسان, ومتابعا لتحركاته, وأن يقوم بجلده, ومعاقبته, وإهانته؟", "عام 2007 هو عام التحرر من العبودية لدى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر."

لوهلة, استوعبت قيادة النظام الحاكم الاحتجاج الشعبي. وكان يمكن ملاحظة نتائج ذلك في محكمة العاصمة الرياض. فقد تم تقديم اثنين من رجال هيئة الأمر بالمعروف للمحاكمة في قضية مقتل الحريثي. ولقد رمزت صورتهما وهما على مقعد الاتهام إلى قمة بغضب الهيئة. ولأول مرة, منذ 78 عاما من إنشائها, يجد محققوها أنفسهم في الجهة الأخرى. لكن ذلك كان للحظة واحدة. فبعد سنة من المحاكمة تم تبرئة الاثنين من أي اتهام موجه لهما.

رغم كل ذلك, لايزال هناك في الشعب السعودي من يعتقد أن "المتطوعين" يقومون بعمل مقدس. ويعتبرهم البعض الجهة المنوطة بتصحيح الأخطاء الأخلاقية. وأحدهم ذلك المتصفح الذي تعرف في غرفة الدردشة على فتاة سعودية تكبره بعدة سنوات. ولقد بدأت القصة في التطور إلى قصة حب على شبكة الإنترنت. وفي ذروة هذه القصة أرسل إليها صوره عاريا, فيما

بعد هدأت العلاقات بينهما, وتعرف الشاب على فتاة أخرى أراد الزواج بها, فأخبر محبوبته الافتراضية بذلك التي استقبلت الخبر بغضب شديد وقررت ابتزازه؛ فهددته بنشر صوره على الإنترنت, إلا إذا دفع لها المال حسب طلبها. توجه الشاب في هذا الموقف الصعب إلى مكتب هيئة الأمر بالمعروف وتقدم بشكوى. تم استدعاء المبتزة للتحقيق وأوضحوا لها أنه إذا استمرت في ذلك العمل, فسوف يقدم ضدها بلاغ. وبذلك انتهت القضية.

وفي ذروة الاحتجاجات الشعبية ضدهم سعد القائمون على الأمر بالمعروف بإعلان أنه تم القبض على أكثر من مائة منجم في عام واحد في جميع أنحاء المملكة. وكان معظم الذين يحصلون على خدماتهم من النساء. وأوضحوا, في هيئة الأمر بالمعروف, أن السبب الرئيس لانشغالهم في ذلك هو المشكلات العاطفية والزوجية.

لكنه بدلا من التعاطف مع هذه السيدات ومساعدتهن في حل مشكلاتهن, أعلنت الهيئة عن تشغيل أربعة "خطوط ساخنة". وإن المواطنين الذين سيتصلون للإبلاغ عن المنجمين سيحصلون على مكافأة مالية. ولقد افتخرت شرطة الأمر بالمعروف بأن بعض المتصلين رفضوا الحصول على المكافأة؛ حيث اعتبروا أن صيد الساحرات ثواب كبير.

الرسم محمي

هناك حديث مشهور منسوب للنبي يقول إن التصوير حرام بل ودعا إلى قتل من يعمل به. "كل مصور في النار," قال الرسول. لطفي عبد الحميد, مواطن قلق, أرسل سؤالا حول الموضوع إلى هيئة تحرير مجلة "عقيدتي". نقلت المجلة السؤال إلى الشيخ مختار علي محمد السيد الذي أكد في رده على حديث الرسول لكنه قال إن هذا التحريم ليس جامعا.

وقال الشيخ مختار السيد "يصعب قبول فكرة أن رسومات فان جوخ, وجويا, ومحمود سعيد, وبيكاسو؛ محرمة,", "بل يصعب القول إن رسومات الطبيعة الجميلة والتماثيل في الميادين محرمة. فجميعها تتميز بالمشاعر, وتثير الأحاسيس وتقلل من الشعور الموجود لدى الانسان بالعدوان تجاه الآخرين."

لو أن الأمر كذلك, تعجب الشيخ المصري, فمن سيدخل النار؟ لقد تماشى تفسيره مع التحريم اليهودي بحظر صنع أي تمثال أو صورة. فقال الشيخ إن النبي كان يقصد الفنان الذي يصنع

وجها للرب : "فهؤلاء الذين يعتقدون أن الرب يشبه البقرة فيقدسونها, أو يعتقدون أنه يشبه الشمس فيرسمونها كما لو كانت إلها, أو يؤمنون بأن الله يشبه النجم أو القمر, أو أجرام سماوية أخرى, فالرسم محرم في هذه الحالات, ومن يعمل في ذلك سيكون مصيره الاكتواء بنار جهنم."

القبلة الضائعة

هل مسموح للنساء غير المتزوجات بتبادل القبلات الخاطفة على وجنتي الرجل في مكان عام؟ سيقول رجال الدين, بشكل غير مفاجئ, إن ذلك حرام. فهؤلاء لا يعتبرون هذه القبلة مجرد تحية غير ملزمة, بل يخشون من أن تصبح تعبيرا عن بداية علاقة جسدية. وقد أوضح الدكتور عبد الفتاح الشيخ رئيس جامعة الأزهر الأسبق "الله يأمرنا بعدم إطالة النظر,".

لم تكن هذه المرة الأولى التي يطلب فيها رأي رجال الدين في قضية متعلقة باتصال الشفتين. توجهت فتاة حديثة الزواج إلى الدكتورة سعاد صالح بسؤال مرتبط باتصال أكبر للشفتين. سألت الزوجة : هل مباح, , تبادل القبلات بشهوة في أثناء صوم رمضان؟ فالشريعة الإسلامية تحرم إقامة علاقة جنسية أثناء الصوم.

أجابت الدكتورة سعاد صالح بالإيجاب, ولم تكتف بذلك, بل زودت الخاطئين بأدوات التكفير عن ذلك."لو حدث ذلك في نهار رمضان, خاصة بين الأزواج الجدد, فعلى كل منهما الكفارة من خلال إطعام 60 مسكينا, أو صوم شهرين متتاليين."

عودة إلى القبلة الخاطفة؛ ففي أثناء ظهوره في أحد البرامج التلفزيونية سأل أحد المشاهدين الدكتور جمال البنا إذا كانت القبلة بين امرأة وصديق لها مباحة, مثلما يفعل الرجال. أوضح البنا أن الإسلام لا يحرم مثل هذه المجاملات, لكنه يعتبرها ذنبا صغيرا يمكن التكفير عنه بالأعمال الطيبة.

"للأسف الشديد, عادة ما يتم الاستهزاء بما أقوله, لكن لدي مبدأ – لا يجب على الإنسان أن يمتنع عن كل تحريم. فهذه القبلات شيء سيء, لكنه الضعف الانساني الذي يقبله الإسلام, لأنه موجود عند الإنسان."

حمل البنا المسؤولية للوالدين. فالآباء والأمهات في عصرنا, على حد قوله, لا يشجعون أبنائهم على الزواج في الوقت المناسب, بصورة كافية. فهم يسهمون في ارتفاع سن الزواج وإلى

ظهور عادات مقيتة بين الجنسين مثل تلك القبلة العلنية الخاطفة. ويشير إلى حديث النبي (عليه الصلاة والسلام) الذي يقول: " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، و أحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء". بمعنى آخر, فإن الشيخ المصري قد أظهر تفهما لوجود هذه الشهوة البسيطة لدى الخلائق. لكن الجميع لم يسرع في الاتفاق معه.

قال عبد الفتاح الشيخ "وماذا يحدث إذا تطور هذا الاتصال البسيط إلى إثم كبير, مثل جريمة الزنا؟" ؛ حيث خشي من أن استخدام مشكلة الزواج كذريعة للسماح بالقبلات سيعطي الضوء الأخضر لتطور العلاقات مما قد يؤدي إلى الرذيلة. وهاجمه الشيخ جمال قطب, بشكل شخصي محرج.

قال الشيخ قطب "البنا تخطى الثمانين من عمره,وغير متخصص في الفتوى,", "لا يجب أخذ كلامه في هذه الأمور على محمل الجد؛ لأنه غير مؤهل لذلك. وأنا أعرفه منذ 30 سنة. فهل كان سيسمح لابنته بالتقبيل هكذا؟ أنا أعلم أنه غير متزوج, وليس لديه بنات, لذلك هذا سؤال افتراضي."

لم يكتف شيوخ الأزهر بالمعارضة لكنهم توجهوا إلى الدكتور عبد الهادي مصباح, طبيب متخصص في الطب العام بكلية الطب جامعة الأزهر. وطلبوا منه أن يقدم شهادة يصف فيها الأحاسيس التي تولدها القبلة البسيطة لدى السيدات. درس الدكتور مصباح الأمر جيدا وتوصل إلى أن القبلة تثير هياجا, وانفعالات وردود أفعال كيميائية ممتعة في الجسد, ولها علاقة مباشرة بالوصول إلى النشوة أثناء الجماع.

كتب الطبيب هذه الشهادة بناء على طلب من أرادوا معرفة إلى أين من الممكن أن تأخذنا القبلات بين المحبين, والتفكير بأن الهدف الرئيس كان البحث عن الحقيقة الطبية التي ستمنع الشباب عن القبلات.

الأخ صغير, الفارق كبير

إن التمعن في فتاوى الدكتور البنا يخبرنا لماذا يمقته الكثير من زملائه. فهو على ما يبدو من المتحررين للغاية بالنسبة لهم. خذوا على سبيل المثال فتوى التدخين أثناء الصوم في رمضان.

الإسلام يفرض على المسلمين التنسك في رمضان بالامتناع عن الشهوات الجسدية التي منحها الله, وعلى رأسها الطعام, والشراب, والعلاقات الجنسية. ومع غروب الشمس مباح العودة إلى الحياة الطبيعية وذلك حتى طلوع النهار. الغرض من هذه التحريمات جعل المؤمن يعيش المعاناة التي يعانيها الفقير والمحتاج, وبذلك التعاطف معهم في أزماتهم.

أضاف معظم المشرعين التدخين إلى هذه المحرمات, لكن ليس الشيخ جمال البنا الذي قال إنه لم تكن هناك سجائر في عهد النبي محمد, لذلك فإن التدخين لم يحرم أبدا. كما ذكر أن الدخان لا يدخل المعدة, لذلك لا يمكن اعتباره طعاما. وقال محذرا "لو فرض تحريم التدخين على المدخن العصبي فقد يذهب للتدخين في الخفاء,".

السماح بالتدخين في أيام الصوم هو واحدة من سلسلة فتاوى الشيخ اللبرالية والمثيرة للدهشة. لقد دعا البنا, في الحقيقة, إلى إحداث إصلاح شامل, تغيير من الجذور للتفاسير الإسلامية, كي تناسب الحياة العصرية. حتى الكفار, اقترح عدم معاقبتهم, ثم قال موضحا "جزاؤهم عند الله,".

الإسلام الذي ينفذه المسلمون يوميا, في نظر البنا, ليس هو الذي أسس له النبي محمد. وقال إن كبار المشرعين على مدي السنوات ركزوا على دراسة المصادر, لكنهم تجاهلوا الإنسان وواقع الحياة الذي يفرض احتياجات أخرى في بعض الأحوال.

وقال "الدين ليس بيت أزياء يحدد لنا ما نلبسه وما لا نلبسه. فهذه الأمور تخضع للاختيار الشخصي," . وتجادل مع كبار رجال الشريعة الذين حذروا من تقدير نجوم الغناء اللائي يرتدين ملابس عارية "من حق نانسي عجرم, وهيفاء وهبي أن يلبسن ما يردن."

حتى الاتصال بين الرجال والنساء الذي يثير لدى كبار رجال الدين المخاوف من العهر, أمر لم يزعج جمال البنا. وقال "أصبح الاختلاط بين الجنسين ضرورة," "بل إن منع الاختلاط هو الذي قد يؤدي إلى الانحراف وارتكاب الآثام سرا." وواصل تحطيم جميع الحدود قائلا: "ليس هناك ضرورة اليوم للحجاب, لأنه يعوق المرأة في عملها, كما أن شعر المرأة لا يدعو إلى الخجل."

كلمات الرجل كانت لتقبل في هدوء لولا نسبه العائلي الأصيل. فجمال البنا, مواليد 1920, هو الأصغر من بين أشقاء الشيخ حسن البنا. فعندما أتم جمال الثامنة من عمره, أسس أخوه

حركة الإخوان المسلمين في مصر. وبعد عقدين من ذلك التاريخ وصل عدد المؤيدين للحركة إلى مئات الآلاف (ويقول البعض إن أقصى عدد وصل إلى مليونين), وأصبحت نموذجا للحركات الأخرى التي ظهرت بعدها. اغتيل حسن البنا عام 1949, وهو في الثالثة والأربعين من عمره, بعد أن قامت عناصر الجناح العسكري للحركة باغتيال رئيس الحكومة المصرية محمود النقراشي. ومنذ ذلك الوقت ومر "الإخوان" بتغييرات هيكلية كثيرة, وتعتبر اليوم حركة لها شعبية كبيرة لدى الناس[23]. فوضعوا السلاح لكنهم لم يتخلوا عن حلمهم في إقامة نظام حكم قائم على تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر.

ماذا كان يقول حسن البنا في فتاوى أخيه الأقل شهرة؟ فالأخ الأكبر يحتقر القيم الليبرالية القادمة من الثقافة الغربية, ودعا إلى استئصالها من حياة الفرد في الوطن المسلم. ففي الشريعة, حسب رأيه, توجد إجابات على جميع مشكلات الحياة, ويجب تبنيها في السياسة, والمجتمع. ومن الممكن أن نفترض أنه كان ليمقت العمل الذي عمل فيه شقيقه الأصغر, وربما اعتبره كفرا.

المدير يرضع, وسيعود لاحقا

أطلق الصحفيون على هذه الفتوى "أغبى فتوى لعام 2007". فعزت عطية, رئيس قسم الحديث في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة, كان ليسعد بالطبع بالتنازل عن هذا اللقب الممنوح لكلامه.

سئل عطيه عن رأيه فيما يخص مشكلة اجتماعية ملحة ألا وهي خطر اجتماع الرجل والمرأة في أماكن العمل. أراد السائل معرفة هل وجودهم معا في غرفة واحدة, وإن كان في ظروف عمل خالصة, ستجعلهم آثمين. اجتهد عطيه وفكر, وفي النهاية أصدر قراره. أوصى المرأة في فتواه بالقيام بإرضاع زميلها في العمل, وبذلك تتخطي عملية التحريم. وأوضح أن الإرضاع عملية تتم بين أفراد الأسرة. ولو فعلت المرأة ذلك سيعتبر الرجل فردا من الأسرة, ويسمح لهم بالتواجد معا.

سرعان ما تطايرت هذه الفتوى, وهناك من أخذ الموضوع على محمل الجد؛ فتوجهت امرأة للشيخ شمس الدين بوروبي, رجل دين جزائري, وأخبرته أن زوجها رجل متدين وتقي, طلب منها

---

[23] بتاريخ 25.12.2013 تم إعلان الحركة جماعة إرهابية.
http://gate.ahram.org.eg/News/435113.aspx

إرضاع صديقه المفضل ليستطيع أن يستضيفه بحرية في بيتهم. سؤال آخر تلقاه الشيخ الجزائري من صاحب عمل قال فيه إن هناك عاملة لطيفة في الطابق الأعلى يريد أن يطبق عليها فتوى عطية. قال بوروبي إن هاتين الحالتين هما تدنيس لكرامة المرأة.

مر عامان, وعادت الفتوى الفاضحة للظهور مرة أخرى, لكن هذه المرة من خارج مصر. فقد أراد الشيخ السعودي عبد المحسن العبيكان التطرق إلى قضية اجتماعية حساسة: وجود الرجل في بيت أسرة غير أسرته. فقد تضطر الحياة أحيانا إلى وجود ضيف قد يبيت أو وجود عمال يقومون بتجديد البيت لأيام طويلة. وهذا التواجد يفرض على نساء البيت الحرص على الاحتشام, وقد يجبرهن ذلك على الجلوس معه لفترات بمفردهن. أفتى عبيكان في هذه الحالة : "إذا احتاج أهل بيت ما إلى رجل أجنبي يدخل عليهم بشكل متكرر, وهو أيضا ليس له سوى أهل ذلك البيت ودخوله فيه صعوبة عليهم ويسبب لهم إحراجا وبالأخص إذا كان في ذلك البيت نساء أو زوجة؛ فإن للزوجة الحق في إرضاعه".

لم تمر كلماته مرور الكرام لدى الشعب السعودي. فقد نشرت قصص في الصحف السعودية عن رجال, خاصة السائقين الخصوصيين, طلبوا من النساء إرضاعهن مثلما أوصى الشيخ عبيكان. قالت الكاتبة الصحفية المحافظة بشرى فيصل السباعي وكتبت في صحيفة عكاظ اليومية "تعتبر هذه الفتوى كشف لستر المسلمات. وقد تفتح في نفسية الشخص بابا لخيالات منحرفة تتعلق بالمحارم عموما لدخول عنصر الاستثارة الجنسية على مبدأ تلك الصلة عبر ذلك الإجراء، لتدفع المسلمات ثمن تلك الفتوى من كرامتهن وحياتهن". وحكت السباعي لقرائها عن الممارسة الجنسية التي تسمى Lactaphilia. فهذه الممارسة تنسب لمن يستثار عند رؤية امرأة ترضع, أو تحلب اللبن من ثديها. وترى أن فتوى العبيكان سوف تشجع أمثال هؤلاء الرجال على التعبير عن مشاعرهم بالفعل.

ثم كتبت "لتطبيق الفتوى أثر عكسي، خاصة مع جو التهييج الشهواني للفضائيات", " بسبب تلك الفتوى صار الفقه الإسلامي عرضة للسخرية والتشنيع، وهذا ينفر الشباب عن الدين"[24]

---

[24] http://www.okaz.com.sa/new/Issues/20100621/Con20100621357240.htm

سارع بعض أصدقاء العبيكان إلى مساندته, بعد الجدل الذي احتدم بعد هذه الفتوى, وهو ما لم يحدث مع عطية. فبعد أسابيع قليلة من نشره للفتوى, تم تحويله للجنة تأديب الكلية وتم وقفه مؤقتا عن العمل. وبعد بضعة أسابيع أخرى لخيل إلى المعاش المبكر. فتوجه إلى المحكمة واستأنف على القرار وربح القضية. فقد قال القضاة أن التوبيخ الذي تلقاه في لجنة التأديب كافٍ وأمروا بإعادته إلى عمله.

زوبعة في فنجان

سؤال صعب (لكنه بسيط), تلقته هيئة تحرير مجلة حريتي المصرية. فقد حكى قارئ من سيناء عن حدث وقع له في المسجد ويريد أن يعرف موقف الدين فيه. يقول إنه أثناء وجودة في حوار ودي مع الإمام وبعض المعارف, سقطت فجأة ذبابة في كوب الشاي الخاص به.

وحكى القارئ "أردت أن أسكب الشاي" , "لكن الشيخ غمس الذبابة في داخل الكوب, وطلب مني استكمال الشرب. وبعد أن ارتشفت منه قال لي: "إن الدواء الذي يحمله الذباب يقتل أمراضك."

كان العنوان الطبيعي لهذا السؤال هو الباحثين والأطباء, لكن محرري المجلة فضلوا البحث عن إجابة لدى الدكتور زكريا نور, أستاذ بجامعة الأزهر, وكان رده قاطعا وحاسما ومؤيدا لرأي الإمام. تعتمد الفتوى على حديث للرسول قال فيه: " إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه ، فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء" رواه أبو هريرة.

تفاخر الدكتور نور بمقدرة النبي على التنبؤ ووصفه بأنه صاحب معجزات. وقال: توصل العلماء الألمان, في القرن 19 فقط, إلى استنتاج أن صاحبة الأجنحة المزعجة هذه لديها أيضا صفات الشفاء. وكان قد لاحظ أطباء نابليون قبلهم أن الجنود المصابين الذين اجتذبوا إليهم يرقات الذباب تم شفائهم أسرع من زملائهم. وفي الولايات المتحدة في بداية الثلاثينيات, قبل أن يتم الاستخدام الواسع للمضادات الحيوية, استعان الأطباء باليرقات في علاج الغرغرينا. ثم طلب الدكتور المصري من القارئ أن يعود إلى إمام المسجد ويتمنى له طول العمر لشرب الشاي الذي سقطت فيه الذبابة.

عدد متسلسل اسمه موسى

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري في دبي – هيئة تشريع محلية, قامت بنشر توجيهات جديدة للمعامل والمستشفيات. نصح شيوخ الدائرة أنه من الأفضل عدم كتابة أسماء المرضى على أنابيب الاختبار, لأنها تشبه أسماء الله ورسله.

فعلى سبيل المثال إذا حمل أنبوب أسماء: محمد, موسى, عيسى, جبريل, أو عبد الرحمن, عبد العزيز, ففي ذلك تدنيس لأسماء الله. فأسماء "عبد الرحمن", و"عبد العزيز" تحتوي على صفات الله. وموسى, وعيسى أنبياء في الإسلام, كما أن جبريل ملك. وهناك أكثر من مائة اسم على هذا الغرار.

ذكرت الفتوى التي نشرها رجال الدين في أبو ظبي, أن رجال الدين تطرقوا لعدم احترام الرب, بسبب كتابة اسمه على الورق. وزعم بعضهم أن هذا الاثم بمثابة ردة.

والحل الذي اقترحته الدائرة بسيط على ما يبدو, فقد دعوا إلى استخدام الأرقام بدلا من الأسماء. فأنبوب الاختبار رقم 3481-26 بدلا من الاسم, محسن عبد العزيز. لكن كالمتوقع, لم يحدث التغيير المأمول. فمع كامل الاحترام لله ورسوله, يبدو لهم أكثر كرامة وإنسانية البحث عن نتائج التحاليل للسيد موسى طلال الحسينية أفضل من الأنبوب رقم 3476-19.

رجلا دين, ورأيان

ماذا يفعل لاعب كرة القدم المتحمس خاصة بعد أن يحرز هدفا؟ لا يجب أن يكون نجم فريق برشلونا أو تشيلسي كي يصيبه الجنون. السجود- هو عادة محرزي الأهداف, وأحيانا استعدادا كي يأتي زملاؤهم ويقفزون عليهم بفرح وسرور لا مثيل له, وذلك أمر مشترك بين لاعبي كرة القدم في كل مكان في العالم. يكثر لاعبو المنتخب المصري "الفراعنة", من السجود لدرجة أن لقبوهم بمنتخب الساجدين.

ونظرا لأن زملائهم في تونس فعلوا نفس الشيء في أوقات كثيرة, أراد مواطن تونسي أن يستوضح ما إذا كان في هذا العمل استهزاء بالدين. فالمسلم يسجد وقت الصلاة في اتجاه مكة كتعبير عن تفرغه للرب. فأحد تفاسير جذر س.ل.م, المشتق منها الاسلام, هو الاستسلام. وتساءل ألا يجب السجود إلا لله فقط. وجه السؤال إلى الشيخ أحمد الجربي, الذي أجاب بالتحريم الصريح. وأطلق الجربي على هذه العادة "بدعة".

فقال الشيخ التونسي "السجود لله بعد حدوث خير أو امتناع كارثة أمر مقبول", لكن عندما يكون في غير ذلك فهو محرم (وفي هذه الحالة) لم يصنع الله الخير. وكذلك المكان غير مناسب للسجود." وذكر الجربي أنه للأسف الشديد لا يعتاد لاعبو كرة القدم السجود تجاه مكة ولا يحرصون على التطهر قبل القيام بذلك, مثلما يفعل المصلون.

ذاعت فتوى الجربي في مصر وقوبلت بمعارضة شديدة. فكرة القدم في بلاد النيل إدمان اجتماعي, ورجال الدين يدركون ذلك جيدا. ومنهم الدكتور عبد الفتاح إدريس, رئيس قسم الشريعة بجامعة الأزهر. وقال الشيخ المصري " السجود في ملعب كرة القدم حلال شرعا", "شخص أراد شكر الله. والمسلمون معتادون شكر الله على كل ما صنعه لهم من خير, وهذه هي طريقة "محرزو الأهداف" القيام بذلك على الفور وأمام وسائل الإعلام."

إن مناقشة مسألة السجود في ملاعب كرة القدم لأمر مثير ليس فقط بسبب انشغال رجال الدين بالرياضة, والكشف غير المفاجئ أن المنتخب المصري له مشجعين من بين رجال الدين. لكن المهم على وجه الخصوص هو التفسير المتناقض الذي أعطاه رجال الدين لنفس المسألة. فقد رفض الدكتور إدريس في كلامه أن يكون في السجود في الملاعب أي استهزاء بالدين, وأن ذلك مجرد تعبير تلقائي عن الفرحة. لقد تطرق في الحقيقة إلى السجود مثل "بركة المستمتعين" وهي الصلاة اليهودية التي يعبر فيها المؤمن عن شكره للخالق على البهجة التي منحه إياها.

بمشيئة الله

أثبتت دراسة قام بها أساتذة متخصصون في الدين الإسلامي في مصر أن: إحدى وعشرون اسما من أسماء الله الحسنى ليست مأخوذة من المصادر الإسلامية. والمقصود هنا الأسماء التي ترسخت في ذهن الناس منذ مئات السنين وتعرف بـ "أسماء الله الحسنى". فمعروف في الاسلام أن هناك تسعة وتسعون اسما لله. تردد صباح مساء بين رجال الدين في القنوات التلفزيونية, وتدرس في الجامعات الإسلامية, وتكتب على اللوحات التي تباع للناس, وتنقش على جدران المساجد, والمؤسسات العامة. والسبحة "أو المسبحة" مصنوعة من ثلاث وثلاثين حبة, تمثل بشكل رمزي ثلث أسماء الله الحسنى. وإذا بالباحثين يأتون ويقولون إن بعضها ليس له أصل.

قام بهذا البحث حوالي خمسون رجل دين –أساتذة في الشريعة الإسلامية, وباحثون من مصر. قاموا بمسح شامل لعدة سنوات للمصادر المختلفة على رأسها القرآن, والحديث وكتب التفاسير. وتم فحص حوالي خمسين ألف كتاب نشر على مر الأجيال, بحثوا فيها عن الأسماء المعروفة للخالق. وبعض الأسماء التي استبعدوها يعرفها الناس جيدا منها على سبيل المثال: الجليل, المحيي, الجامع, المانع, النور, الهادي, الصبور.

توجه من قاموا بهذا البحث إلى المحكمة, التي أوصت شيخ الأزهر, رئيس أكبر مركز بحثي في القاهرة, بعدم استخدام هذه الأسماء المستبعدة. ولقد أرسل هذا التحذير أيضا إلى رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون, ووزير الأوقاف, ووزير الإعلام, ووزير التربية والتعليم, ووزير التعليم العالي.

طلب بعض الباحثين المشاركين في هذا الكشف المبادرة بإصدار تشريع يحظر استخدام الواحد والعشرون اسما. لكن المؤسسة الدينية وقعت في معضلة: فذلك من ناحية بمثابة زلزال, ومن ناحية أخرى عليك أن تأصل تواثا طويلا. فالقليلون فقط سيوافقون على اعتبار الأسماء التي قدسها آباؤهم أمامهم منذ طفولتهم, أسماء مرفوضة.

وبين أن يتم ترسيخ ذلك الرفض بتشريع وبين عدم القيام بذلك, فإن من قام بذلك هو الذي سيعاني. "لله 99 اسما من أحصاها دخل الجنة," حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم). غير أن النبي لم يحددها, للأسف الشديد, وبذلك ترك المساحة مفتوحة لكل شخص ليقترح أسماء من عنده. والآن على رجال الدين إعداد القائمة الصحيحة من جديد, وهو عمل أصعب وأكثر تعقيدا من الاستبعاد.

فائدة مقنعة

ذهب تاجر إلى البنك وطلب منه أن يشتري له بن بكميات تجارية. جعله الموظفون يوقع على اتفاقية للشراء بالأقساط, وهم سيشترون الكمية المطلوبة وسينقلونها إلى ملكية البنك. بعدها سيحصل العميل على الشحنة, ويبيعها لتجار التجزئة ويجني الأرباح. بعد شهور أو سنين – كل شيء حسب قيمة الصفقة وطبيعة البضاعة- سيقوم بدفع دينه للبنك.

تسمى هذه العملية في اللغة العربية "التورق", مثل شراء صكوك الدين وهو أمر متبع كثيرا في قطاع الصيرفة الإسلامية. غير أن التجار هنا يتاجرون في شيء ملموس. وبهذه الطريقة تتم

آلاف الصفقات سنويا لشراء السيارات, والمعادن, والطعام الجاف, والسلع المشابهة في أسواق الدول العربية والإسلامية.

اختلف رجال الدين المتخصصون في الأسواق المالية, فيما بينهم حول المشروعية الشرعية لهذه العملية. فقد قال البعض إن اتفاق الشراء الذي يتم بأسلوب التورق هو خدعة الغرض منها التحايل على التحريم القرآني بعد الحصول على الفائدة (ربا). فالبنك الذي يشتري البضاعة يعطيها للمشتري, ويحصل منه على قيمتها بعد فترة معينة بفائدة ربحية. والإسلام لا يسمح بكسب المال بالمال.

إن تحريم الحصول على الربا الغرض منه حماية المدينين الذين سيحكم عليهم بالعبودية, لأنهم سيضطرون إلى دفع ربا فاحش. وفي سورة البقرة الآيتين 278-279 قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين, فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون "

هناك خوف آخر وهو أن في أسلوب التورق تقع الأطراف في تحري عدم الثقة في الصفقات الاقتصادية, لأنه ليس هناك ضمان في أنها ستنجح. ولقد حرم النبي على المؤمنين تعريض أموالهم للخطر: " لا تشتروا السمك في الماء, فإنه غرر". وقال بن تيمية إن الصفقة الاقتصادية التي بها مخاطر بغيضة.

في العالم الإسلامي المئات من المؤسسات المالية, منها البنوك, وشركات التأمين, وصناديق الاعتماد, وصناديق الائتمان, تعمل كلها بروح الشريعة. ويدير بعضها موظفون متعلمون, يتحدثون الإنجليزية بطلاقة, حصلوا على تعليمهم التجاري في الجامعات الغربية. ولقد ظهر اسم بعض هذه الهيئات في عناوين الصحف بشبهة ارتباطها بالتنظيمات الجهادية, غير أن الصيرفة الإسلامية بعيدة كل البعد في الأساس عن أي تشدد.

أوجد رجال الدين المتخصصون في الاقتصاد الطرق المناسبة للهيئات المالية من أجل العمل بدون فائدة – أو على الأقل ليس بالصورة المعروفة في الغرب. ومن أشهر هذه الطرق العملية المعروفة بالمرابحة. فمن يرغب في شراء سيارة بالتقسيط يتوجه إلى البنك ويطلب أن

يشتريها من أجله. وبعد أن يقوم بشرائها ينقلها البنك إلى المشتري في مقابل ثمن مرتفع أكثر من الذي اشتراها به, على عدد أقساط محدد من البداية، وبها تتم الصفقة بدون دفع فائدة.

كذلك وجدوا طريقة للتحايل على تحريم الحصول على قرض عقاري. فهناك حل هو شراء العقار بالمشاركة مع صندوق تمويل واستئجاره منه في مقابل قسط شهري, حتى يصبح في النهاية ملكية خاصة للمستأجر. والبعض يقوم ببناء المنزل على مراحل, وعلى سنوات حسب الحالة المادية.

يزعم أنصار الاقتصاد الإسلامي, أن هذه الطرق لا تتماشى فقط مع المشيئة الإلهية, بل تمنح الحماية أيضا للمؤمنين من الوقوع في الاغواء الوهمي. فالاقتصاد الغربي في نظرهم يشجع أبنائه على الاستهلاك اليوم والدفع غدا. أما البنوك الإسلامية في المقابل, فقادرة على ضبط المستثمرين المغامرين وتعليم العميل الاستخدام الأمثل لماله حسب قدراته فقط. وفي امكانياتها قمع الاستهلاك الزائد لدى الناس, والفجوات الطبقية, والاستغلال. وتعتاد الكثير من المؤسسات في سوق المال الإسلامي التبرع للمحتاجين من غرامات تأخير العملاء, أو من أموال الزكاة, حسب النسبة المئوية 2.5%.

تبدو أساليب عمل البنوك الإسلامية, للمتابع من بعيد, كأنها تآمر مع الله, لكن الواقع أقوى من أي تحريم إلهي. فبدون هذه المناورات المرنة في الأماكن الصحيحة لكانت الصيرفة العربية لتتم في ضوء الرأسمالية الغربية, وهو ما لم يكن الله ليغفره أبدا.

الفصل العاشر

الجنس والحياة الزوجية

الحنين إلى العفة

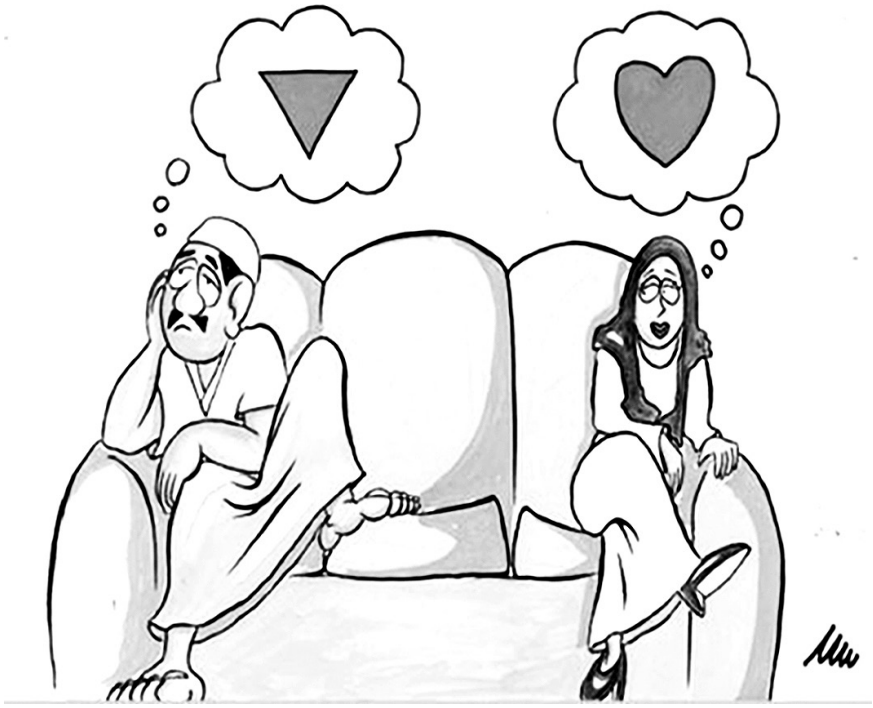

العرب يتحدثون عن ذلك في العلن, ولديهم طرق للتحايل لإقامة علاقات جنسية قبل الزواج, الشذوذ متأجج, والدعارة مزدهرة. من الممكن ممارسة الحب, لكن لا تعلنوا ذلك.

دكتورة فوزية الدريع, سيدة محجبة لديها الملايين من المعجبين, جلست في استوديو التلفزيون واستقبلت الاتصال التالي. يعتبر البرنامج الأسبوعي لخبيرة العلاقات الزوجية في قناة "الراي" الكويتية,برنامجا مجدٍدا, غير أن الأستاذة الكبيرة تصرفت هذه المرة على وجه الخصوص بشكل جريء. فقد قررت فتح نقاش حول مسألة: هل حجم عضو الذكري مهم؟ انهالت اتصالات المشاهدين, وطب منهم التعبير عن رأيهم في هذه المسألة, وكان الضيف المتواجد في الاستوديو يقوم بالإجابة على المتصلين.

بدأت الدريعي مشوارها المهني بنشر بحث عن البرود الجنسي عند النساء. بعدها أصدرت كتابها "اللمس", الذي دعت فيه حديثي الزواج إلى الإكثار من المعانقة والقبلات, واللمسات المتبادلة. وقالت "من لا يلمس لا يحب. ومن لا يحب لا يلمس,". ولقد وصلت إلى شهرتها الكبيرة بفضل برنامجها "سيرة الحب" الذي أذيع في الساعة العاشرة مساء يوم السبت. قالت في كتابها "سلوكيات الرجل الحيوان" إن الغرائز الجنسية لدى الذكر تشبه تلك لدى الحيوانات.

تهاجم الرسائل الجنسية الناس من كل اتجاه, خاصة لجيل الشاب, في الإنترنت, في التلفزيون, على عبوات المنتجات الاستهلاكية, وفي مسابقات الجمال, وفي القصص الشهيرة التي يكتب النساء معظمها. يتماشى النموذج النسائي, الذي يفضله الجنسين في الدول العربية, مع مقدمة البرامج التلفزيونية ممشوقة القوام, أو المغنية التي ترتدي بنطلون ضيق.

وتساءل الدكتور مشعل بن عبد الله القدهي, الباحث السعودي "يا رب الأسرة! هل تعلم ما يفعله أبناؤك عندما يجلسون لساعات في الغرف المغلقة أمام الإنترنت؟", "هل تابعت ابنتك وعرفت ماذا كتبت لأصدقائها في غرف الدردشة, أو أي صور أرسلت لهم؟ نسأل الله العلي القدير أن يرشدنا إلى الاستخدام الأمثل لهذه الخدمة, كي لا نتضرر."

قامت شركة فايزر منتجة حبوب الفياجرا, بدراسة شاملة حول رضاء العرب عن العلاقات الجنسية, أجريت الدراسة في سبع وعشرين دولة في جميع أنحاء العالم, من بينها خمس دول عربية هي: مصر, ولبنان, والإمارات العربية المتحدة, والمغرب, والكويت. ولقد أظهرت النتائج أنه على عكس الصورة المحافظة للدول العربية, إلا أن الأزواج بهذه الدول يقيمون العلاقات الجنسية بشكل أعلى من المتوسط العالمي الذي يصل إلى 6.48 مرة في الشهر. في لبنان والمغرب,

والكويت يمارسون تلك العملية أكثر من سبع مرات في الأسبوع. ورغم ذلك فإن 46 بالمائة من الرجال اللبنانيين, و29 بالمائة من الرجال في المغرب, ونسبة مشابهة في الكويت اشتكوا من أنهم لا يقيمون علاقات جنسية بشكل مرض. تعتقد 98 بالمائة من النساء في الإمارات العربية أنه لا يمكن استمرار العلاقات الزوجية لسنوات طويلة بدون علاقات جنسية. وهذا ما تعتقده أيضا 96 بالمائة من الكويتيات. والمتوسط العالمي في هذه المسألة هو 85 بالمائة فقط.

فرغم الطابع المحافظ للدين الإسلامي إلا أنه لا يعارض إقامة العلاقات الجنسية, شريطة أن تتم في إطار الزواج. طريق المؤمنين ممهدة للتوجه إلى رجال الدين وسماع رأيهم في المسألة الجنسية التي تزعجهم. فمواقع الإنترنت تتناول أسئلة وأجوبة بخصوص الشريعة, ويمكن العثور على فتاوى تسمح للمسلم باستثارة نفسه عن طريق لمس أعضاء جسمه, ومشاهدة الأفلام الإباحية مع زوجته. فقد سمح العراقي أية الله علي السيستاني, من كبار عصره بين رجال الدين الشيعة, سمح للمؤمنين بالاطلاع على الكتب والمجلات ذات المحتوى الجنسي. وحرم الاستماع إلى صوت المرأة في الفراش, أثناء الجماع, لو كان المستمع ليس الزوج.

إن ما يزعج المؤسسة المحافظة ليس الانشغال بالجنس في إطار الزواج, لكن خروجه عن الإطار العائلي وأن يتحول إلى مسألة تناقش جهلرا. قالت الداعية الكويتية خولة العتيقي "كارثة حلت بنا," "الرياليتي تسمح بقول كل شيء بصراحة, وعلى الهواء. حتى العفة لم تصبح كما كانت. الناس يتحدثون عن مشاكلهم مثل أن تحكي الفتاة عن علاقاتها بوالديها. إن هذا نشر للسموم."

أوصت العتيقي كل من يواجه مشكلة في حياته الشخصية بالتوجه إلى العيادات المتخصصة أو إلى مراكز الإرشاد بأنواعها, وليس التوجه إلى التلفزيون أو مواقع الإنترنت. رغم ذلك, فمن الواضح لها ولزملائها أنه ليس في مقدورهم منع اقتحام الجنس للحوار الاجتماعي.

عروس لديها مشكلة بسيطة

السياسة العصبية للشرق الأوسط ألصقت به طابع التشدد, لكن اتسم رجال الدين الشيعة, في بعض الأحوال, بالرؤية الأكثر تسامحا خاصة في الشؤون الاجتماعية. أحدهم هو آية الله إسحاق فياض.

فياض, من كبار رجال الدين في المراكز الدينية في النجف, سئل عن رأيه في الظاهرة التي تميز المجتمعات العربية الحديثة. فالفتيات اللائي خضن تجربة جنسية يذهبن إلى الجراح قبل الزواج ليرقع لها غشاء البكارة. بهذه الطريقة تخفي سرها عن الزوج الجديد وتمنحه الشعور الكاذب بأنه أول شخص تعرفه. وفي رد على ذلك قال رجل الدين العراقي إنه مسموح للفتاة الشابة القيام بعملية ترقيع غشاء البكارة لتنقذ نفسها من يد أفراد عائلتها الغاضبين.

وقال فياض "لو أن حياة الفتاة في خطر, فالجراحة مباحة", "وعندما يكون الاختيار بين ترقيع غشاء البكارة أو القتل لتلويث اسم القبيلة, فعليها اختيار الخيار الأقل ضررا."

فياض هو "آية الله العظمى", وهو لقب سامٍ في التسلسل الشيعي. وهو واحد من أربعة "آية الله" في النجف, إلى جانب كل من علي السيستاني, ومحمد سعيد حكيم, وبشير نجفي. لكن رغم نواياه الطيبة, إلا أن زملائه تحفظوا على هذا الرأي. واعتبره البعض تشجيعا على إقامة علاقات جنسية قبل الزواج, ولقد عرفوا الآن لماذا هذه الظاهرة في تزايد مستمر.

لو أنها فضيحة, فهي زوجة

إحدى الدول الرائدة في قطاع جراحات ترقيع غشاء البكارة هي الإمارات العربية المتحدة التي أصبحت عاصمتها الاقتصادية دبي جنة عدن للجراحين وقبلة الفتيات والنساء من الدول العربية المختلفة اللائي يرغبن في القيام بهذه الجراحة بعيدا عن البيت. سعر هذه الجراحة في دبي حوالي عشرة آلاف دولار أمريكي, وهو مبلغ مناسب إذا كان مرتبطا في بعض الأحوال بحياة شخص.

يحظر القانون في الإمارة إجراء مثل هذه الجراحات لغير المتزوجات, لكنه يسمح بإجراءها للمرأة المتزوجة. فالمنطق الشرعي يقول إنه لو فقدت المرأة عذريتها قبل ازواج, فقد زنت. وإذا قامت بإخفاء ذلك بالجراحة فقد أضافت خطيئة إلى الجريمة. كما أن الطبيب الذي يساعدها على ذلك العمل فقد اشترك معها في الإثم.

فقال أحمد الكبيسي أحد رجال الدين في الإمارة "إن من يشارك في ذلك يخفي الخطيئة, لذلك فهو مخطيء بنفسه". لكن إذا أجريت الجراحة بعد الزواج, فهي قد فقدت عذريتها بالطريقة المعهودة في إطار الزواج.

لقد ضخ هذا القطاع أموالا طائلة في خزينة الدولة, لذلك غضت السلطات الطرف ولم تسرع في العمل ضد من يقومون به. كما أن معظم من تجرى لهن هذه الجراحة من دول مجاورة, على رأسها السعودية, ومصر, و الكويت والبحرين. ولو اعترض أحد فمن الممكن دائما القول أن جميعهن كن متزوجات, أثناء الجراحة, ومن يعتقد غير ذلك فعليه إثباته.

كل ما أردت معرفته

ما مكانة الزوج السابق في حياة ما بعد الانفصال؟ كيف يؤثر الأب على الآداء الجنسي لأبنائه؟ هل من الممكن اعتبار الاستمناء علاقة جنسية؟ بوابة إلكترونية أردنية على شبكة الإنترنت تقدم للقارىء دليل موجز عن علم نفس الجنس. لن تجد فيه الأوضاع الجنسية لكن مجموعة من الأدوات السلوكية, وإليكم الدليل كاملا, في خدمة القراء الراغبين في المعرفة, ولم يكن لديهم من يسألونه.

"أربعة عوامل تؤثر بشكل مباشر وكبير على فهمنا لموضوع العلاقات الجنسية, وعلى الفارق بين نجاحها وفشلها",, كتب في المقدمة. " لو تتبعنا هذه العوامل وتأثيرها علينا, فإن علاقاتنا الجنسية في غرفة النوم لن تصبح مثل العلاقات العامة في غرف الجلوس."

العامل الأول؛ في رأي الكتاب هم الوالدين. "يؤثر علم الوراثة على الحافز الجنسي لدينا. فلو أن للأب أو الأم شهوة جنسية قوية أو ضعيفة, فمن الممكن بالطبع أن يكون قد انتقل ذلك وراثيا. حتى موقف آبائنا من الجنس يؤثر علينا كثيرا. فعلى سبيل المثال, فلو نشأت مع أب صارم, متمسك بفكرة "الأم ذهبت للمستشفى وأحضرتك من هناك," أو "الله أرسلك إلينا من السماء"؛ أب يرتجف عند مشاهدة رقبة عارية – فبالطبع ستختلف أفكارك عن الجنس عن الأطفال الآخرين الذين نشأوا في بيت متحرر تحدث فيه الوالدان عن الجنس بصراحة."

والعامل الثاني؛ هو العلاقات السابقة ، وقد كتب "التجربة, وإن لم تكن جنسية فإن لها تأثير,", " فلو كانت لك علاقة مع شخص رقيق, محب, ويحترمك, ستشعر وقتها أن العلاقات الجنسية هي مجال من العطاء."

يرى الكاتب أن العلاقات الأولى من شأنها أن تؤثر بشدة على أصحابها. "نحن نميل إلى التعامل مع من سيأتي بعده بنفس القدر, وهو ما قد يسبب عدم تفاهم مع الشريك القادم. ولو

كنا ما زلنا على علاقات صداقة مع من كانت لنا به علاقة سابقة, فسيكون لذلك أثر سلبي على العلاقات القائمة. عليك تخطي التجربة السابقة, والتعمق في غور العلاقات الحالية."

وفي المرتبة الثالثة اهتم الكتاب بجدوى التعرض للبورنو. "هناك نوعان من الجنس – خيالي, وحقيقي. الخيالي هو مانشاهده على الشاشة, حيث كل شيء جميل والعلاقات بينهم نموذجية, في حين أن الواقع مختلف تماما. فالعلاقات الزوجية ليست مشهدا في فيلم ساخن بل التحام جسدي بين شخصين مرتبطين ببعضهما بحب ومشاعر. حتى الجنس الأحادي الجانب لا يعتبر علاقات جنسية لكن عمل إجباري. علينا أن نخرج من رؤوسنا العلاقات الجنسية التلفزيونية, التي تعمل على تشويش أفكارنا وتقودنا إلى رؤية الجنس كما لو كان مشهدا ساخنا."

حذر كتاب الدليل من أن الأصدقاء يساعدون على رسم صورة جنسية قد تساهم في تشويهها.

"فرغم كثرة مصادر المعلومات, فعادة ما نرجع إلى الأصدقاء كي نعرف الحقيقة عن الجنس. ورغم أن ذلك طبيعيا, لكنه غير مستحب. فلكل شخص فهمه الخاص, وأفكاره الخاصة بخصوص الجنس. فالبعض يعتبره وسيلة للحفاظ على النسل. ويعتبره البعض مصدرا للمتعة, والبعض الآخر يرى فيه انصهار جسدين. ولو طلبت من صديقين الكتابة عن كيفية فهمهم للجنس, ستكون الإجابات مختلفة ومتعددة."

والآن النصائح – كيف تخرج من الفخ الذي نصبته لك العناصر الأربعة؟ النصيحة الأولى هي إدراك موقعك على الخريطة التي ذكرناها سابقا." كُتب بعدها تحليلك الشخصي للجنس. وبهذه الطريقة ستساعد ذهنك على محو المعلومات السابقة وبناء رؤية جديدة."

"بعد القيام بذلك," يستمرون في تقديم النصائح, "قم بتعارف جنسي مع نفسك. ج نفسك بعدة حقائق عن الجنس. إقرأ كتب خاصة عن العلاقات الجنسية. ساعد نفسك على التخلص من الرسائل الجنسية الخاطئة. إقرأ عن الحب والولادة."

وللختام: "لا تتردد في طلب المساعدة. فلو شعرت في أن فهمك عن الجنس محدود, فأنت في حاجة إلى حديث مع متخصص."

ألم يشاهد أحد ملابسي الداخلية؟

أثارت فتوى نشرت في مصر جدلا كبيرا بين رجال الدين في جامعة الأزهر. فقد قال الشيخ رشاد حسن خليل, عميد كلية الشريعة والقانون الأسبق, إن التعري التام لأحد الزوجين, حتى أثناء الجماع, محرم شرعا, وذنب كهذا من شأنه أن يبطل عقد الزواج. ولقد ذهب زميله, الشيخ عبد الله مجاور, أمين عام اللجنة العليا للدعوى الإسلامية بجامعة الأزهر؛ إلى أكثر من ذلك؛ فقد أفتى بأن النظر إلى الجسد العاري للزوج/الزوجة, مباح, لكن ليس إلى عورته, حاشى لله. ونصح الزوجين بارتداء الملابس الداخلية أو وضع أي غطاء على الخصر, حتى أثناء الجماع.

من قام بإنقاذ أمة الإسلام من هذا التحريم المخجل, المناقض لواقع الحياة, الذي فرضه علينا السيدان المبجلان؟ امرأة بالطبع هي الدكتورة سعاد صالح, عميد كلية الدراسات الإسلامية للبنات بجامعة الأزهر, التي عرفت على ما يبدو أمورا قد نسياها من سبقاها.

فقالت " يجوز شرعا للزوجين فعل كل ما يؤدي إلي التقريب والتحبيب بينهما" . وأوضحت الباحثة المصرية أن التعري التام من الملابس غير مستحب, لكنه غير محرم, وبالطبع لا يبطل عقد الزواج.

لم تكن الدكتورة سعاد صالح بمفردها في ذلك الموقف, فكان هناك أيضا الشيخ عبد المعطي بيومي, عضو مركز الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر, الذي أطلق صفارة التهدئة. فحسب قوله فلا يوجد أي أمر شرعي يحرم التعري الكامل أو النظر إلى أحد أعضاء الزوج/الزوجة. لكن كان لديه إضافة خاصة: "لا يوجد أي فعل محرم بين الزوجين أثناء المعاشرة والجماع إلا الوطء في الدبر". حتى في ذلك سيظهر من يعارضه. فبعض الفقهاء قد سمحوا به, شريطة الرضا بين الطرفين, وأن يكون بين الرجل والمرأة فقط.

إمرأة كالرجال؟ ليس عندنا

من المثير كيف كان سيرد عبد المعطي بيومي على إيناس الدغيدي, المخرجة السينمائية المصرية. لقد نادت الدغيدي إلى تقنين الدعارة ومنح الفتيات اللائي يعملن فيها رخص عمل. ترى الدغيدي أن تنظيم هذا القطاع سيسمح بمتابعة الفتيات, ومنع استغلال القوادين لهن, ومتابعة حالتهن الصحية. لا تحاول الدغيدي محاربة هذه الظاهرة حتى القضاء عليها, واعتبار الدعارة غير قانونية. ولقد فالت إذا كان كثيرون يستمتعون بها, فعلى الأقل لا يضروا الآخرين.

وقالت "كنت أقصد حماية المجتمع وحماية من يمتهن هذه المهنة أيضا في الوقت ذاته، فمهنة الدعارة موجودة في كل مكان في العالم، وفي مصر قبل الثورة كانت مهنة معترف بها ولها أحياء معروفة تماما، لكن اليوم أصبح الأمر يتم في الخفاء في الوقت الذي قد تكون فيه هؤلاء الفتيات حاملات لأمراض خطيرة من الممكن أن تنتقل بسهولة للطرف الآخر"[25]

وصف الدكتور محمد مختار المهدي, أستاذ بجامعة الأزهر, هذا المقترح بـ"الكلام الفاحش" وقال إن كلامها غير منطقي. وأضاف قائلا: "ما هو إلا دعوة علمانية ضد الديانات السماوية التي بها خمسة ثوابت لا حياد عنها وهي (الحفاظ على النفس – الحفاظ على الدين – الحفاظ على العرض – الحفاظ على المال – الحفاظ على العقل)".

واتهم الدكتور مختار المهدي, إيناس الدغيدي بأنها ليست على دراية بالمشكلات الاجتماعية، لو أن هذه هي طريقتها لإصلاح المجتمع. وقال "لا شأن لها بالمجتمع إذا كانت هذه هي نظرتها لطريقة إصلاحه والتي تدعو فيها إلى الهبوط بمرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان الذي يرضي شهوته ضاربا عرض الحائط بالثوابت الدينية والمجتمعية." .

رفضت الدغيدى مجادلة رجال الدين. فالدين ورجاله لن يحددوا ماذا يجب فعله. وقالت: "أنا لا أتكلم باسم الدين أبدا لأني لست متبحرة فيه، ولكني أتكلم باسم المنطق والعقل والواقع الذي يشير إلى ضرورة حماية المجتمع"

يخطيء من يعتقد أن المخرجة المصرية إبحاية جدا. فعندما سئلت الدغيدي في الماضي عن رأيها في شواطيء العراة في مصر أجابت أنها ترى أنه لا ضرورة في ذلك. وقالت "حينما رفضت هذه الفكرة فهي أيضا حماية للمجتمع ونحن لسنا في حاجة إليها، ومنطق الرفض هنا أنه لن يضيف لنا شيئا."

---

[25] http://www.alarabiya.net/articles/2008/08/05/54309.html

أسرار أخبرتها للمحممة

هل الحمامات في دمشق هي مكان للقاء الفتيات المثليات؟ فتنتشر الشائعات في العاصمة السورية أن الفتيات اللائي يحضرن للاستحمام في بعض الحمامات المعروفة في المدينة قد خضن تجربة جنسية مع العاملات في المكان.

سوريا وليست تركيا, على عكس الرأي الشائع, هي أصل الحمام. فالحمام الخاص يحصل فيه الزائر على غطس في المياه الساخنة, ويدخل الساونا, ويكحت جسمه, ويخرج من الحمام في النهاية بشوش الوجه؛ قد ظهر في القرن الثامن الميلادي – في العصر الذهبي للدولة الأموية التي كانت عاصمتها دمشق. لكن وظيفته اليوم, ليس كما كان في الماضي؛ حيث كان الحمام بالنسبة للناس مكان للاستحمام اليومي, هي في الأساس إمتاع مستخدميه. وفي دمشق أحد عشر حملما فقط بعد أن وصل في ذروته إلى ست وثلاثين ومئة حمام. يرتاد معظمها السائحون, لكن أيضا السكان المحليون الذين يبحثون عن مكان للتدليل. وهذه الخدمة غير مختلطة. المكان مفتوح من ساعات الصباح حتى المساء للنساء فقط, وفي الليل للرجال.

بعد ألف ومائتي عام من كون دمشق مركز الدولة الإسلامية, انفجرت الشهوات في داخل قاعات الاستحمام. فهناك أخبار منتشرة بين سكان المدينة بأن المحممات – العاملات اللائي يقمن على نظافة أجسام الزائرات بقطع من وبر الجمال, يتخطين مهام عملهن, وبعضهن يقمن علاقات حميمة مع الزائرات.

المحممات في الحمام مثل سجل الحي. فالجميع يحكي لهن كل شيء, وتمتد العلاقة مع الزائرة في بعض الحالات إلى ما بعد ساعات العمل. كما يحكى عنهن أنهن بالنسبة للفتيات مركز معلومات في خطواتهن الأولى في الحياة الجنسية. والمحممات مقبولات في الحمام أكثر من العاملات اللائي يقمن بتوزيع المناشف, وتنظيف الغرف وتقديم الشاي (بعد زنجبيل, أو قرفة, لمن يرغب).

أنكر مروان حمامي, مدير حمام "بكري" المشهور في وسط دمشق؛ الشائعات عن وجود علاقات جسدية في قاعات الاستحمام, لكنه اعترف بأن الخدمة في حمامه أكثر من مجرد تدليل.

قال حمامي : "هنا تعقد الأفراح", "فالأمهات يجدن عرائس لأبنائهن. فالنساء تحكي للمحممات كل شيء."

فمائتين وثلاثين ليرة سورية تعطيك الحق في دخول المكان شريطة أن تحصل أولا على تأشيرة الدخول إلى سوريا.

رفيقة واحدة أكثر من اللازم

عرضت على خشبة المسرح في العاصمة المنامة مسرحية "بودي جارد" – وهي كوميديا لاذعة بطولة المصري عادل إمام, من أعظم الكوميديين العرب. تدور قصة المسرحية حول حارس شخصي تورط مع مصلحة الضرائب ودخل السجن. وحتى وراء القضبان أدار أعماله بشكل عادي, مع وجود حارس شخصي له ومميزات كثيرة – على رأسها فتاة ترافقه. تسخر مسرحية "بودي جارد" من الأثرياء, ومن فساد السلطة, والجيل الذي ضل الطريق, والمال الذي أصبح محط الأنظار.

عرضت المسرحية مئات المرات على مسرح عادل إمام في القاهرة, ومن المعتاد في أعمال من هذا النوع أن تسافر للعرض في خارج مصر. وهكذا وصلت إلى البحرين؛ وكان في انتظارها جمهور يحب الكوميديا الجيدة, جاء بعضه خصيصا من السعودية. وأحضر بعض المشاهدين معهم أطفالهم. لكنهم لم يعرفوا كيف يخفون الخجل عن وجوههم في المشهد الذي اجتمع فيه بطل المسرحية في الزنزانة مع الممثلة شيرين سيف النصر, التي جسدت الفتاة المرافقة. كما صعق المشاهدون أيضا عندما علموا أن ابن البطل عضو في جماعة عبدة الشيطان – مجموعة تتبنى الشر وتكفر بالله, وهي مشكلة يخشاها الآباء في كل مكان.

خرجت بعض العائلات في خجل حتى قبل أن ينتهي العرض, وتوجهوا في اليوم التالي لعضو البرلمان محمد خالد, ممثل الاتجاه الإسلامي, وحكوا له مدى البؤس.

قال خالد "المسرحية تملؤها الإيحاءات الجنسية, واهتمت كثيرا بعبدة الشيطان," "إن وجود عادل إمام في المملكة لا يمثل احترام لنا. فكيف تسمح هيئات الرقابة في البحرين بعرض مثل هذه المسرحيات التي يحضرها الأطفال؟"

سارع عضو البرلمان المتحمس في تقديم استجواب لوزير الإعلام. فحص الوزير القضية ورد على السائل بإجابة بسيطة, لكنها غير ملزمة. وقال إن حكومة البحرين ستحرص من الآن على الرقابة الفنية على المسرحيات التي ستعرض على مسارح المنامة.

لم تكن هذه المرة الوحيدة التي مارست فيها الدوائر المحافظة الضغط على سلطات المملكة. فقد منعت حكومة البحرين, في تلك الفترة, عرض حفل غنائي للمغنية اللبنانية هيفاء وهبي لشكلها المثير وللبسها العاري على المسرح. لكن في حالة "البودي جارد" لم تكن الدولة هي التي أرادت التضييق على حرية الإبداع, لكن الشعب نفسه هو الذي أراد ذلك.

كان من الممكن أن تهنأ الفرقة المسرحية بنجاحها الباهر في الوطن مصر, على الرغم من عدم حرمانهم من ذلك في البحرين. فرغم خروج بعض العائلات إلا أن خمسمائة مشاهد آخرين كانوا مستمتعين ولم يتوقفوا عن الضحك.

عروس لديها مشكلة كبيرة

احتفل اثنا عشر زوجا من المثليين في فندق في أبو ظبي, بعيدا عن عيون الناس, بليلة زفافهم. وكان هناك رقص ومشروبات كحولية, وارتدى نصفهم فساتين الزفاف. لكن شخص ما أخبر الشرطة, التي داهمت الفندق في ذروة الاحتفال.، وألقي القبض على أربعة وعشرين شخصا, ومعهم الدي جي, وأحد منظمي الاحتفال. كان الرجال من أهل الإمارات وأجنبيين, أمضوا ثلاثة شهور في السجن في انتظار المحاكمة. غير أن القوانين في الإمارات ليس فيها قوانين ضد الدعارة, لذلك اتهموا بازدراء الأديان.

طالبت كل منظمات حقوق الإنسان بالإفراج عنهم. كما طلبت الخارجية الأمريكية من نظيرتها في أبو ظبي حسن التعامل مع القضية. لكن الحكومات تمقت التدخل العلني في شؤونها, خاصة إن كانت حكومات عربية وإذا كان الضغط أمريكيا. فلعلمها بعداء الشارع للولايات المتحدة, عرفت كيف تحظى بالتأييد الشعبي لو أظهرت استقلالية في مثل هذه القضايا. وكانت النتيجة صعبة من ناحية المتهمين. فقد أدينوا وحكم عليهم بالسجن لخمس سنوات.

قامت "إدارة التحقيقات الجنائية" – الشرطة الأخلاقية للإمارات بعملية مداهمة الفندق الذي كان فيه الاحتفال. وفي كل مرة تشعر فيها وزارة الداخلية أن جو الليبرالية قد تجاوز

حدوده, أو أغضب المتدينين بشكل زائد, تقوم بإرسال شرطة القسم لممارسة عملها. وفي هذه الحالة اعتقد شخص ما في الأعلى أن المحتفلين قد شدوا الحبل أكثر من اللازم عبر العلنية التي أعطوها للحفل, وقرر وضع حد لذلك. هذا هو الخط الفاصل بين الحرية والحبس. إن نشاط الشواذ مباح, في حالة إذا تم في هدوء. لكن عوس صاخب؟ فالقانون هو القانون.

كلية السياحة

حتى في المغرب حياة الشاذ جنسيا مريحة, إلا إذا استخدم ميوله الجنسية في كسب العيش. اكتشف بعض طلاب جامعة محمد بن عبد الله في مدينة فاس أن أحد أصدقائهم في الدراسة يقتات من العمل في دعارة الرجال. ذهبوا إليه بما عرفوا, لكن الطالب الذي اعتاد تقديم خدماته لسياح المدينة, لم يرتعد. فجمع أصدقائه في الكلية, وحكى لهم على مدى ثلاث ساعات عن ميوله الجنسية وعن عملة في خدمة السياحة الوافدة. وقال "لست الرجل الوحيد في هذه المهنة".

إلى أي مدى يتساهل المغاربة مع هذه الظاهرة, هو ما ستظهره مدينة مراكش. ففي قلب الميدان الرئيس ستقابلون الشواذ جنسيا, أو المتحولون جنسيا, الذين يعرضون أجسادهم على السائحين. رسميا هذا جرم: فالقانون يقضي بالحبس ثلاث سنوات كحد أقصى على من يقيم علاقة جنسية مع بني جنسه.

لكن لهذا التساهل حدود. فمنذ حصول المغرب على الاستقلال عام 1961, قدم للحاكمة خمسة آلاف شاذ جنسيا في المغرب. وفي عام 2007 حاول أبناء هذه الجماعة الاتحاد في العلن وأعلنوا عن عقد مؤتمر تأسيسي في مدينة تطوان الساحلية, فأحبطت السلطات مخططهم وأجبروهم على نقل نشاطهم إلى أسبانيا. وبعد بضعة شهور, رفع على الإنترنت فيلم يوثق حفل زواج لمثليين في بيت خاص. انتشر الخبر بين الناس, وقام مجهولون بمهاجمة البيت في ظلام الليل وأنزلوا به دمارا كبيرا. بعدها نشر مائة وخمسون مفكر, وفنان, وسياسي عريضة تحذر من التحريض على الكراهية ضد هذه الجماعة.

لذلك لا نتعجب من مصير الطالب من مدينة فاس. فبعد أن أنهى محاضرته, تم استدعائه إلى إدارة الجامعة التي قامت بفصله منها.

التكنولوجيا في خدمة الإباحية

حكمت محكمة مدينة الخبر السعودية بالسجن ثماني سنوات على رجل سعودي قام بتصوير نفسه أثناء عملية الجماع مع صديقته. وحكم على ابن أخيه الذي قام بتصويره بخمس سنوات. ويظهر في الفيلم المرأة تتوسل إلى ابن الأخ بأن يتوقف عن التصوير. لكن رغم طلبها واصل الاثنان عملهما باستمتاع كبير, بل وقاموا بنشر عملهم بين الأصدقاء عبر البلوتوث في الهاتف المحمول. زعم العم أثناء التحقيق معه أن السيدة التي قاموا بتصويرها هي زوجته, وأنه قام بتطليقها بعد ذلك. لكن تحريات الشرطة أوضحت أنه لا يوجد شبه بين الاثنتين. فأضافت المحكمة لكل منهما مئات الجلدات.

لماذا حصل الاثنان اللذان يهويان التصوير على هذا الجزاء القاسي؟ ليس لأنهما تجرءا على تصوير وضع ساخن, لكن بسبب ما فعلوه بعدها بالصور. فالمؤسسة السعودية المحافظة اضطرت إلى التعامل مع الأساليب التي تستخدم التكنولوجيا الحديثة. فليس الإنترنت فقط هو الذي تخطى الحدود ومنح الناس وسيلة لحرية التعبير, فالتكنولوجيا تسمح الآن بالإساءة إلى شرف النساء بسهولة كبيرة. فهذا الحكم الكبير كان محاولة لوضع حد لذلك ونقل رسالة تعليمية للناس بخصوص المسألة التي تزعج قادتهم.

تسببت وسائل نقل المعلومات بين الهواتف المحمولة في عدة فضائح في السعودية. ففي إحدى الحالات قام شاب يبلغ من العمر تسعة عشر عاما بمعاقبة صديقته التي تبلغ سبعة عشر عاما ، حيث قام بتصويرها؛ فقد دفع سائق الأسرة, نيجيري الأصل, إلى اغتصاب الفتاة, وطلب من صديقه تصوير ذلك بكاميرا الهاتف المحمول الخاص به. ثم نشر الفيلم بعد ذلك بين أصدقائه ومعارفه. وفي حالة أخرى, أبعد مدير مدرسة مجموعة من فتيات الثانوي تم تصويرهن بهاتف محمول في حفل زفاف. ووصلت الصور إلى المدير, وكان ما لفت نظره هو أكواب المشروبات التي كان يبدو أن بها خمرا.

حاولت المؤسسة الدينية منع غزو الأدوات التكنولوجية الحديثة للملكة فأصدرت الفتاوى لكن بدون فائدة. ففي عام 2004 أصدر المفتي فتوى بتحريم بيع التجار للهواتف التي بها كاميرا. وقال إن ذلك من أجل ضرورة حماية شرف المرأة. وقال المفتي السعودي, الشيخ عبد العزيز

الشيخ "حتى لو استخدموه بالصورة اللائقة,", "من الأفضل عدم بيعه. ومن الأفضل التخلي عن الفائدة, لأنه من المكن أن تصور به صور بغيضة ونشرها في المجتمع المسلم."

جيل الشباب في المملكة معروفون بحبهم للأدوات الحديثة أكثر من احترامهم للتقاليد أو أقوال الشيوخ. هذا أمر المفتي بين الجميع, لكن من هو ليمنع المجتمع عن مواصلة التمتع بعجائب التكنولوجيا.

الكلام ليس كل شيء

يصعب قضاء وقت مع النساء ثم إخبار الأصدقاء, خاصة إذا كنت سعوديا. هذه العظة تعلمها بنفسه مازن عبد الجواد, مطلق البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أب لأربعة أطفال من جدة. تباهى عبد الجواد أمام الجمهور العريض بعلاقاته الجنسية, فوجد نفسه خلف القضبان. منتقصته حدود الحوار الاجتماعي فيما يخص العلاقات الجنسية, خاصة خارج إطار الزواج.

أثار هذه الضجة تقرير, طوله خمس دقائق, أعدته قناة LBC اللبنانية, تناول فقدان الاهتمام بالعلاقات الجنسية في إطار الزواج. وجد معدو التقرير إنه من الضروري أن يقدموا للمشاهدين رجلا نشيطا مثل مازن عبد الجواد, الذي سيقدم النصائح للأزواج من منطلق تجربته الخاصة ذلك لإنعاش الحياة الجنسية بينهم. قاموا بتصويره بمفرده في البيت, وسجلوا أحاديثه مع أصدقائه من الشباب, وخرجوا معه في جولة في مراكز الترفيه بالمدينة. لكن هناك شك إذا ما كانت قصته قد أنقذت زوجين من الانفصال؛ لكن الأمر الأكيد هو ارتفاع نسبة مشاهدة البرنامج.

أدخل عبد الجواد الكاميرا إلى داخل غرفة نومه المتواضعة. وقال بشيء من الجدية "كل شيء تم هنا". تبدو الغرفة, لأول وهلة, كما لو كانت غرفة مراهق يبلغ من السن خمسة عشر عاما. فقد كان بها مختلف أنواع الدمى, خاصة الأسود والنمور, وسرير كبير, وسجاد معلق على الحائط, ودولاب فاخر. عرض على الكاميرا ألعابه الجنسية على شكل دمية عارية (قام محررو التقرير بتشويش صورتها) وزجاجات السوائل المثيرة للشهوة.

وقال "أعشق المرأة التي ترتدي الأحمر," "هذا مثير للغاية." ثم جلس بعد ذلك على فراشه وقال أول مرة أقمت فيها علاقة جنسية كنت في سن الرابعة عشر. "كانت جارتنا. ليست من نفس العقار, لكن من الحي. وهي التي دعتنى وفعلنا ذلك."

عرض عبد الجواد على الكاميرا كتاب باللغة العربية بعنوان "مئة سؤال وسؤال حول الجنس", وعلى حد قوله فقد ساعده ذلك الكتاب كثيرا في بداية مشواره, وأضاف "استفدت كثيرا من هذا الكتاب. يتحدثون فيه عن الرجل, والمرأة, عن الأعضاء التناسلية, وعن أهمية النظافة. وكيفية إثارة المرأة."

ذهب معدو البرنامج للبحث عن عاشق لاتيني, فوجدوا جامع دمى بائس, حتى أن شهوته محل شك. وأسوأ من ذلك فقد تجرأ على الاعتراف بميوله الرومانسية. وقال"الشيء الذي أحبه أكثر من أي شيء آخر هو العناق" , "من الممكن أن تجلس ساعة, أو ساعتين والاستمتاع بذلك." حتى تخيلاته مملة. وأضاف : لو سألتني أين أريد أن أمارس الجنس, لقلت ربما في الطائرة,".

تم رفع التقرير التلفزيوني على موقع اليوتيوب, وفي خلال بضعة أيام سجل أكثر من نصف مليون مشاهدة. ثارت ضجة كبيرة في المملكة, واجتمع سكان من مدينة جدة وقدموا شكوى في الشرطة ضد هذا الشخص. وتساءل البعض إذا كانت بعض الفتيات التي أغواهن عبد الجواد, غير متزوجات, أو ربما الأسوأ من ذلك؛ متزوجات. ولقد سميت القصة "قضية المجاهرة بالرذيلة". وبعد ثلاثة أيام من عرض الفيلم ألقي القبض على عبد الجواد في منزله, وتم التحقيق معه وسجن. وقال "أخطأت, ومستعد لتحمل العواقب" .

لم ينفعه الندم. ودعا المتصفحون في منتديات الإنترنت إلى إعدامه بقطع رأسه أسوة بالرجال والنساء المدانين بارتكاب الزنا. وأعد آخرون عريضة دعوا فيها إلى مقاطعة قناة LBC التلفزيونية, لأنها جرؤت على عرض أعمال مشينةكما قامت الشركة السعودية المشغلة للهواتف المحمولة بمقاطعة إعلانات المحطة اللبنانية. فسارع مديرو القناة إلى الحذف المؤقت للبرنامج, في محاولة لتخفيف الضغط الشعبي.

تشير هذه القصة إلى حساسية المملكة تجاه العلاقات بين الجنسين عندما تذاع في العلن. فقد أدرك الجميع فجأة أن هناك من يمارسون الجنس من أجل المتعة فقط, بل ويجاهرون

بذلك متباهين. تعاملت السلطات القانونية مع القضية كما لو كانت حدث فردي, لكنها كانت مضطرة إلى الاستجابة للضغط الشعبي لتلقين المجرم الدرس, وبهذه الطريقة،وضعت خطوط حمراء أمام من يرغب في تشجيع ممارسة الجنس خارج إطار الزواج.

، قدم عبد الجواد للمحاكمة وحكم عليه بالسجن خمس سنوات, مع ألف جلدة. كما حكم على المعدة السعودية التي عملت في القناة وشاركت في إعداد التقرير, بستين جلدة. كما أمره القضاة بحظر الاتصال بالصحافة أو السفر إلى خارج البلاد لمدة خمس سنوات بعد قضاء فترة العقوبة.

عدم احتشام واضح

قرر وزير السياحة اليمني, نبيل فقيه, عدم السكوت. فقد أجبره التقرير الصحفي الذي نشرته صحيفة سعودية إلى نشر تكذيب صوتي. فقد ذكر التقرير أن الأثرياء من رجال الدول المجاورة, وعلى رأسها السعودية, والإمارات العربية المتحدة, يسافرون في نهاية الأسبوع إلى اليمن ويتزوجون النساء هناك, والهدف من البداية ليس تكوين أسرة, بل قضاء وقت قصير في أحضان الفتيات الصغيرات. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام, أو بضعة أسابيع, على الأكثر, يقومون بتطليقهن, فقد احتاجوهن من البداية لغرض معين فقط.

قال فقيه عن المنشور في التقرير "لا يعترف القانون أو العادات والتقاليد في اليمن بهذه الأنواع غير الشرعية من الزواج, ولا وجود لها عندنا,".

لم تختلق شيئا الصحيفة لكنها كشفت سرا ظاهرا. لكن رغم ذلك لم يستطع وزير السياحة الصمت. والغرض من إنكاره هو الدفاع العلني عن شرف بنات اليمن, وكذلك إعطاء الحكومة الشكل المحافظ. وأضاف قائلا إن الحكومة, التي هو أحد أعضائها, رفضت مقترحات مستثمرين أجانب بإقامة منتجعات سياحية على شواطي اليمن, ذلك خشية أن تكتسب بلده سمعة سيئة –ذلك شاهد على أن قادة البلاد يحرصون على الأخلاق الوطنية.

رغم كل ذلك أصبحت اليمن مركزا غير رسمي للسياحة الجنسية في قلب العالم العربي. فأمراء وأثرياء دول الخليج يحصلون على باقات سياحية لنهاية الأسبوع. ويقوم وسطاء محليون بمقابلتهم بالفتيات, بالطبع في مقابل المال , ليقضوا معهن أيام العطلة. معظم الرجال سعوديون

في العقد الخامس أو السادس من حياتهم. والنساء في المقابل, فتيات صغيرات جدا, لا تتخطى أعمارهن عشرين سنة. يتزوجن بالسائح الثري في حفل رمزي حسب الشريعة الإسلامية, ويعلم معظمهن أنه سيطلقها في القريب. وفي هذه الأثناء, يحصلن منه على الهدايا والمال. الرجال يربحون صحبة نسائية غير ملزمة لقضاء العطلة, وتدخل العملة الأجنبية خزانة الدولة.

توجهت معظم الفتيات إلى هذا العمل عن علم, وفي بعض الأحوال بتشجيع من الوالدين الذين يتوقون إلى دخل أفضل، وبعضهن من عائلات قروية فقيرة. واعتقد البعض, بسذاجة, أنه وجد زوجا مساندا. لكن بعد ثلاثة أيام, أو ثلاثة أسابيع,، يلقين إلى العالم الكبير, حيث للمرأة المطلقة فيه صورة سلبية جدا. وفي بعض الحالات, تحمل المرأة من الرجل الذي أمضت معه الوقت, وبعد أن يطلقها قد لا تعرف من هو في الأساس.

عقود الزواج محددة المدة من البداية, الغرض منها التحايل على تحريم إقامة علاقات جنسية خارج إطار الزواج. وبعضها منتشر خاصة في موسم الصيف, ومن هنا حصلت على مسميات منها: "زواج الصيف", "زواج المتعة", "زواج السياحة", "زواج النهار" وهو: زواج يلتقي فيه الزوجان لفترة قصيرة من النهار, "وكذلك "زواج يوم الخميس"؛ وكل هذه الأنواع ليست سوى بديل عن قضاء عطلة نهاية الأسبوع في أحضان عشيقة مؤقتة.

لم يظهر كل الشيوخ تحفظا من هذا الاتفاق المؤقت, بل اعتبره بعضهم أهون الشرين. ومنهم الشيخ اليمني عبد المجيد الزنداني, رئيس جامعة"الإيمان" الإسلامية في صنعاء. يعتبر الزنداني – الأصولي- من مؤسسي حركة الإخوان المسلمين في بلده, وأظهر في هذه المسألة مواقفا لا تتفق مع رجال الدين الليبراليين. وكان غرضه من ذلك التخفيف على الشباب والشابات الذين يقيمون في الغرب ويتعرضون لثقافته الإباحية. وأجاب في رد على سؤال تلقاه, إنه مسموح لهؤلاء الشباب الارتباط بشخص باتفاق زواج مؤقت, شريطة أن يحرص على أن تنتهي هذه العلاقة بالطلاق.

أثار رأي الشيخ الزنداني حفيظة كبار الشيوخ خاصة المصريين منهم, لكننا سنذكرها بمفردها نظرا لوجود المصطلح الذي أوجدوه له: "زواج فريند". وهو من دمج لكلمتي Boyfriend, Girlfriend مع كلمة الزواج.

ولقد كشف دراسة أجريت في اليمن أن 70 % من علاقات الزواج بين السائحين العرب والنساء المحليات انتهت بالطلاق السريع. ولقد علمت السلطات اليمنية جيدا بقصص الرجال الأجانب في الفنادق اليمنية, بل شجعتهم في صمت. وإن إنكار وزير السياحة فقيه يهدف إلى التغطية على ازدواجية الأخلاق لدى بعض الدول في العالم, مثل تايلاند, التي تحررت منها وحولت صناعة الجنس إلى قطاع معلن.

في اليوم الذي سيرغب فيه وزير السياحة, أو أحد زملائه, الدفاع حقا عن هذه الفتيات, فسيضطر إلى العمل كثيرا. وسيكون عليه في البداية المبادرة بإصدار قانون يمنع زواج الفتيات الصغيرات. فلا يوجد مثل هذا القانون في اليمن, بل إن متوسط سن زواج البنت هناك هو خمس عشرة سنة. ثم سيضطر بعدها إلى إيجاد بديل للدخل الذي فقده, وهذه مهمة معقدة للغاية.

هذه ليست سيدة, هذا حسين

خلال خمس سنوات فقط, أجرى ستمائة رجل وامرأة, في السعودية, عمليات جراحية لتغيير النوع. بمتوسط مئة وعشرين شابا وفتاة في السنة, قاموا بتغيير نوعهم من رجل إلى امرأة, أو العكس. وفي إسرائيل المعروفة بأنها لبرالية بشكل نسبي, مازال من الصعب قبول الرجل الذي تحول إلى امرأة, فما بالك بالسعودية. لذلك من الممكن تفهم لماذا يلفظ المجتمع ومؤسساته وجود أبناء الجنس الثالث.

ذكر الدكتور بسام أبو العباس, طبيب في مستشفى "الملك فيصل التخصصي" بالرياض, أن بعض من قاموا بإجراء الجراحة قد ولدوا مخنثين – أي يحملون الأعضاء التناسلية للنوعين. وواحد كل خمسمة آلاف طفل سعودي مصاب بتلك الظاهرة, ويرجع ذلك إلى عيب خلقي وراثي منتشر جدا في المجتمع القبلي المعتاد على الزواج من داخل العائلة منذ آلاف السنين.

توجهت صحيفة "الوطن" السعودية إلى بعضهم, وعادت بتأكيدات حول هذه المعاناة. ناجي, رجل أكاديمي, 30 سنة, يبدو كرجل منذ إجراء الجراحة, لكن أعضائه التناسلية بقيت لأنثى. انتقل إلى بلدة أخرى, لكن أحد أصدقائه فضح سره, وأخبر الجميع؛ فأصبح ناجي محل سخريتهم. سامية, ابنة الست وعشرين سنة, كانت رجلا يدعى سالم, ولدت بأعضاء تناسلية لأنثى,

وتزوجت ثلاث مرات. طلقها زوجها الثالث بعد أن ضربها وأجهضها. وقالت " أمي فقط, من بين كل أفراد أسرتي, هي التي ساندتني," .

فيصل, البالغ من العمير اثنتين وعشرين سنة, سموه هدى, دخل في حالة اكتئاب, ونادرا ما يخرج من بيته. خالد, في نفس السن,,ولد كفتاة باسم نوب, خطب عدة مرات لكن علمت خطيباته بماضيه وتركوه, ويفكر في البحث عن زوجة خارج البلاد, ويعمل الآن من أجل سداد مبلغ مائتي ألف ريال تكاليف العملية الجراحية. ورد, كانت ذات مرة رجلا يدعى علي, طلقها زوجها الثاني, لأنه غار عليها بعد أن أجرت جراحات تجميلية جملت وجهها.

بحث رجال الهيئة السعودية للصحة عن الطريقة المناسبة لإنشاء رابطة لهؤلاء الشباب. فالمملكة من ناحية, تعارض تغيير النوع, وتعتبر ذلك تدخلا في الخلق؛ ومن ناحية أخرى, ليس ذلك نزوة لكن مشكلة طبية حقيقية,, ينبت فيها الجسد عضوا أعطته الطبيعة للنوع الثاني.

ومن يبحث عن بعض التفاؤل في هذه القصة ربما يجده في المملكة المجاورة ، مملكة البحرين. فزينب, التي تبلغ أرعة وثلاثين سنة, ضجرت من العيش في جسد امرأة. لقد ولدت كأنثى, لكن مع السنين ظهرت في جسمها بوادر الذكورة. عانت طوال طفولتها من ذلك, لكن عندما كبرت, ادخرت بعض المال, وسافرت إلى تايلاند وأجرت جراحة لتغيير النوع. ومع عودتها أخبرت المحيطين بها أنه ستسمى من الآن حسين وطلبت من معارفها اعتبارها رجلا في كل شيء. احترم الجميع رغبتها, لكن وزارة الداخلية رفضت تسجيلها بالاسم الجديد.

الصعوبة الكبيرة التي واجهها حسين لا تتميز بها مملكة البحرين فقط. فالشباب في الدول العربية الأخرى الذين أرادوا تعديل بند النوع في بطاقات الهوية, بعد إجراء الجراحة أو تغيير هويتهم الجنسية, قوبلوا بالرفض. واضطر بعضهم إلى التوجه إلى المحكمة لكنهم اصطدموا هناك أيضا بجدار صلب؛ فالقضاة, إلى أي درجة هم لبراليون, ليسوا مخولين بالعمل ضد القانون.

الدين, في كل الدول العربية, تقريبا, هو المصدر الرئيس للتشريع. ولقد أعرب الشيوخ ورجال الدين في الفترة الأخيرة عن معارضتهم الشديدة لجراحات تغيير النوع, أو طمس الهوية بين الرجل والمرأة. والجو العام الذي خلقوه, إلى جانب القانون, يصعب, بشكل كبير, على المحكمة الاستجابة إلى الالتماسات المقدمة إليها.

لم يستسلم حسين, رغم كل ذلك, ومؤمنا بعدالة قضيته, بدأ في نضال قضائي ضد وزارة الصحة البحرينية, ووزارة الداخلية, كي يأمرا بحذف اسم زينب من أوراق هويته. ولقد حاولت محاميته, فوزية جناحي, أن تشرح للمحكمة أن الحديث في هذه الحالة ليس عن تحول جنسي – مع كامل الاحترام للمؤسسة المحافظة- بل عن مشكلات فسيولوجية نادرة.

وأوضحت "هناك فارق كبير بين جراحة تغيير النوع, وبين التغييرات الجنسية," "الحالة الثانية هي مشكلة طبية قائمة وفي حاجة إلى علاج."

استوعبت السلطات, بعد عامين من النضال, الظروف الخاصة لهذه الحالة, وسمحت للمحكمة بالحكم لصالح حسين. وحذف اسم زينب من سجل السكان, وتحول صاحبه إلى ذكر اسمه حسين ربيعي. كانت هذه أول حالة في الدول العربية توافق فيها الدولة بشكل رسمي على تغيير النوع.

قال حسين "بكيت عندما سمعت الخبر," "وانتهت سنتان من العناء."

اهتمت المحامية جناحي منذ ذلك الحين بحالات أخرى لفتيات عربيات من إمارة قطر, والكويت, والإمارات العربية المتحدة, والمملكة العربية السعودية, رغبن في تغيير نوعهن إلى رجل, في ظروف مشابهة. ولقد وقفت جناحي أمام القضاة, في جميع هذه القضايا, مستعينة بحالة حسين كسابقة. ولقد تجادلت في صحيفة دفاعها حتى مع الرب. هذا ليس تدخلا للإنسان في الخلق, قالت للمحكمة, لكن العكس بالضبط. ففي هذه الحالة روح الخالق هي التي دبت في جسد الإنسان.